طريق الصلاح والسير الى الله

تَزْكِيّة النَّفس فِي ضوء القُرْآن وَالسُنَّة

تأليف

علي باپير

دار الحكمة
لندن

طريق الصلاح والسير إلى الله

تَزْكِيّة النَّفس فِي ضوء القُرْآن وَالسُنَّة

تأليف

علي بـاپيـر

ameer.maktab@yahoo.com

/AliBapir /AliBapir /MediaAmeerOffice

www.alibapir.net

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب : طريق الصلاح والسير الى الله... تزكية النفس في ضوء القرآن والسنة

تأليف : علي باپير

تصميم : عزالدين محمد عمر

سنة الطبع : الأولى ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م

عدد النسخ : ١٠٠٠ نسخة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨
قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠ ﴾
الشمس.

الإِهــداء

إلى السائرين على جادة الشريعة الغـرّاء، والــساعين بِجِـدٍّ لِنَيْل زكاءِ النَّفْس، وتَقْوى القَلْب، وسُموِّ الخُلُق، عَبْرَ التخلية من الرَّذائل، والتحلية بالفـضائل، أمـلاً بـالفوز برضـوان الله الكريم وفضله العظيم.

ameer.maktab@yahoo.com
/AliBapir /AliBapir /MediaAmeerOffice

مقدمة الطبعة العربية

إن الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ آل عمران.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ ﴾ النساء.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ الأحزاب.

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كَلامُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُل مُحْدَثَةٍ بِدْعَة، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ[١].

لاشك أن موضوع تزكية النفس، من أهم المواضيع الإسلامية التي ينبغي أن يهتم بها المسلمون عامة، والعاملون في ساحة العمل الإسلامي خاصة.

---

١) هذه الخطبة تسمَّى (خطبة الحاجة) وهي تُشْرَعُ بين يَدَي كل حاجة، رواها كل من: الترمذي برقم: (١١٠٥) وَحَسَّنَهُ، والنسائي برقم: (١٤٠٤)، وابن ماجه برقم: (١٨٩٢)، والطبراني في (الأوسط) برقم: (٢٤١٤)، وأحمد برقم: (٣٧٢٠)، وروى طرفاً منها مسلم في صحيحه.

وقد حاولْتُ في هذا الكتاب، بحث هذا الموضوع المهم والحسّاس جداً، وتطرقت فيه إلى أكثر القضايا التي تمسُّ إليها الحاجة، وحاولت حدَّ الإمكان أن أضع فيها النقاط على الحروف.

وأنا على علمٍ أن المكتبة الإسلامية زاخرة بالكتب والمصادر التي تبحث موضوع التزكية باللغة العربية، والكنّي آمل أَلاّ يخلوا كتابي هذا من إضافة وإغناء لهذا الموضوع المترامية الأطراف، والذي يبقى المجال فيه دَوْماً للبحث والتحقيق والإجتهاد.

هذا وقد قام أحد الإخوة الخيِّرين بترجمة هذا الكتاب من الكوردية إلى العربية ولكن آثر عدم ذكر اسمه، فجزاه الله خيراً، وقد قمت بِمُراجعة الكتاب بنفسي بدقة، وقام أحد الشباب الصالحين بتخريج الأحاديث النبوية آثر أيضاً عدم ذكر اسمه، شكر الله سَعيه وأَجْزَلَ ثَوَابَه.

وأسأل الله العظيم ربّ العرش الكريم بأسمائه الحُسنى وصِفَاته العُلَى أن ينفع بهذا الكتاب في طبعته العربية، وينال رضى الإخوة المُتكلِّمين بلغة الضاد، كما نفع به في طبعاته الكوردية التي تكرّرت لحد الآن أَرْبَع مَرّات.

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنَّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ.

المؤلف
٩ ذي الحجة ١٤٣٢هـ
٥ تشرين الثاني ٢٠١١م
أربيل/ العراق

مقدمة الطبعة الرابعة

الْحَمدُ لِلّهِ رَبّ العَالَمِين وَصَلّى اللهُ تَعَالَى وَسَلّمَ وَبَارَكَ عَلَى جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِين سَيّدنا مُحَمَّدٍ إِمَامِ الْمُتّقِين وَقَائِدِ الْمُجَاهِدِين وَعَلَى آلِهِ أَجْمَعِين إلى يَوْمِ الدّين.

أَيُّهَا القُراء الأَحِبَّة!

هَذِهِ هِي طَبعَة الرابعة [1] لكتاب (طَريق الصلاح والسير الى الله)، وأجد من الضرورة بِمَكان أن أُنوِّه إلى بَعْض النُقاط:

١/ ان تزكية النَّفس تعتبر النقطة الْمشتركة بين جميع الْمُسلِمين، فَعَلَى الْجَمِيع ان يكون له نصيب من ذلك قلَّ أَوْ كَثُرَ، مَادَام يريد أن يكون ضمن دائرة الإسلام والإيْمَان.

أ- ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ الشمس.

ب- ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ الأعلى.

والفلاح يعني: الوصُول إِلى الغَايةِ الْمَنشودة والنجاة من هموم الدّنيا وَالآخِرَة.

وانطلاَقاً من حقيقة ان الله تَعَالى بين لنا بِأَنَّ التزكية تُؤدِّي إلى الفلاح، والتَدْسية تؤدِّي إلى الْخيبة والْخُسران، اذاً فالوَاجِبُ عَلَى الْمُسلِم الّذِي يتطلع إلى الفلاح وَالسَّعَادَة ان يَتَحَلّى بالتزكية ماسْتَطاع إِلى ذلِكَ سَبِيلا، وإلا

---

١) أي باللغة الكوردية.

فسيكون حالُهُ أشبه بالّذي يُلقي بنفسه في بَحْر متلاطمة الأمواج، وَهُوَ لاَ يُجِيدُ مِنَ السِّباحَة شَيْئاً، أَوْ كَالْمُفْلِس الّذي يرتاد السّوق ويتوق إلى شراء أَصْنَاف البَضَائِع!!

٢/ وَإِذَا كَانت التزكية واجباً محتماً عَلَى الْمُسلمين عمُومَاً،فأن ذِلكَ آكد في حق من ينخرطون في ميدان العَمَل الإسلامِي ويتصدون لدعوة النّاس إلى الإسلام، فَفَاقِدُ الشّيءِ لاَيُعْطِيهِ "كَمَا هُوَ مُعْلوم" والإصلاح لايتَحقّقُ إلاّ عَلَى أَيدي الصّالِحِين.

ان ضرورة التزكية للعاملين في مَيدَانِ العَمَل الدَّعَوِي، إِضَافَة لكونهِ شَرْطَاً لِلْفَلاح وَسَعَادَة الآخِرَةَ، فَإِنَّهَا منبثقة من جَانِبَيْن:

والدليلُ عَلَى ذلِكَ أنَّ اللهَ تَعَالى جَعَل الفلاح نتيجة لتزكية النفس، كَمَا يَقُولُ تَعَالى:

الْجانب الأَوَّل: ان الذِي لاَيَكُون صَالِحاً في نَفْسِهِ، لاَيمكنه القيام بالإِصْلاَح في محيطهِ.

الْجانب الثاني: الذِي لَمْ يفلح في تزكية نَفْسِهِ، لايمكنه ان يذلل الصّعوبات الّتي تعيق طريق الناس للتزكية، ولا يمكنه تحمُّل الْمَشَاق والعَرَاقِيل الّتي تعترض طريقه، وبالتّالي فَسَيَكُونُ مهدداً بالإِنْقِطَاع وَالفَشَل، أَوْ بِالإِنْحِرَاف والْخروج عَنْ جَادَة الصَّوَاب، وَحينها فَسَيَكُونُ وبالاً عَلَى نَفْسِهِ بَلْهَ أَنْ يصلح الآخَرين! وَالأَمْثِلَة عَلَى هَذَا الصنف مِنَ التأرِيخ والوَاقِع الْمَعَاصر كَثِيرَة.[١]

---

١) عندما نتأمل ظاهرة الإنحراف لدى هؤلاء، نجد بوضوح ان السبب وراء ذلك هو حب الدنيا واتباع الهوى وحب الذات، وهذه الاسباب بدورها أعراض لانعدام التزكية والتقوى.

ان هَذِهِ الْحَقِيقَة تُعْتَبر إِحْدَى الْحكم البَاهِرة في تأكيد الله جَلَّ وَعَلا عَلَى نَبِيِّهِ فِي كَثير مِن مَوَاضِع القُرْآن الكَرِيم، وَفِي معرض الْحديث عَنِ الدّعوة والصدع بالْحَق والأَمْر بالْمَعْروف والنَّهي عَنِ الْمُنْكَر وَالْجِهَادُ في سَبِيلِ اللهِ، بِأَنْ يقترب مِن رَبّهِ وَيَتَوكّل عَلَيْهِ ويُسَبِّحه ويذكره كَثيراً وَيسجد لَهُ وَيتهجد وَيَتْلُو القُرْآن، وَيحذر من الغَفْلَة عَنِ الآخِرَة، كَمَا يبدو جَلياً فِي هَذِهِ الآيات:

١- ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾ ﴾ العلق.

٢- ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ الحجر.

٣- ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ ﴾ الإنسان.

٤- ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ طه.

وَلاَ غُرو فِي ذلِكَ، فَأن تزكية النّفس تكون سَبَباً فِي:

الفلاح وسعادة الآخرة.

النَّصْر وَالقوّة في العَمَل وَالنّشاط.

السَّلاَمَة والعصمَة من العَجْز والإنهزام والفَساد والإنْحِرَاف في مَيْدَان الْجِهَاد وَالعَمَل الإِسْلاَمِي.

ولِذلِكَ فَعِنْدَمَا أرى شَخْصَاً منخرطاً في العَمَل الإسلامِي، لَكنَّهُ في عِبادَاته الْخَاصة بِهِ يعتريه الفتور ولايَخْتلف عن عَوامِ النَّاس، ينقدح في ذَهْني سُؤَال عَلى هَيْئة علامة للتَعَجّب: أتُراه صَادِقاً في دعواه حبّ الله تعالى أَكْثَر مِنَ الآخرين، وانه يخشاه وَيَستحي مِنْهُ أَكْثَر مِنْ غَيْره؟ واذا كَانَ فِعْلاً أكْثَر مِنْهُمْ خَشيَة لله وَإِيْمَانَاً باليوم الآخِر، فَلِمَاذَا لايَفْضُلُ عَلَيْهِم بأَي

عَمَل أَوْ عِبَادَة؟! وان لَمْ يَكُنْ صَادِقاً فَمَا بالهُ يدعي هَذَا الإدعاء العريض، ان شَخْصَاً مِنْهَاراً من الدّاخل، ليت شعري كَيْفَ يعمر ما انهار مِن غيره من بناء العِبَادة وخشية الله تعالى؟!

٣- وانه من غير الْمَعقول والْمَنطقي ان ننتظر حصول التزكية دُونَ تهيئة أَسْبَابها وتذليل صِعابها، فَلاَ شَكّ ان التزكية نتيجة مربوطة بِمجموعَة مِنَ الْمقدّمات الّتي لَوْلاَهَا لَنْ تَكُون هُنَاكَ تزكية للنَّفْس.

وَنْحَنُ بَيْنَ دَفَتِي هَذَا الكِتَاب، حَاوَلْنَا جاهدين ان نعرض لدقائق هَذَا الْمَوضوع، ونبيّن الطرق الّتي يمكن لِلْمُسْلم مِن خلالها، تزكية نَفْسِه وتُيَسِّرُ له الوصول لتلك الغاية المنشودة، وخلاصة القول ان الذي يريد التطهر من الفجُور والتَحلّي بالتَّقوَى، وان يصبح صاحب نفس زكاة، عَلَيْهِ أَن:

١) يتأمل في إيْمَانِهِ وَعَقِيدَتِهِ وَيَجعلها بالْهَيئة الّتي يرضى عَنْهَا اللهُ ورسوله صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وَوفقاً لما هُوَ مبُيَّن في الكِتَاب الكَريم والسُنَّة الْمشَرَّفَة، ذلِكَ ان الإيْمَان الصَحِيح هُو الأَساس الّذي عَلَيْهِ التزكية، وَبِدُون ذلِكَ فأن جهُود الإِنْسَان تَكُونُ عَبَثَاً غَيْر مثمر، كَمَا قَالَ تَعَالى:

﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾ ﴾ محمد.

وَكَمَا تَرى فإِنَّ اللهَ جَلّ شَأْنهُ لَمْ يأمر نَبيَّهُ بالإِسْتِغْفَار، إلاّ بَعْدَ ان أَمره بالتّوحيد في الْخطوة الأولى للسير إلى الله وتزكية النّفس.

٢) ان يتأمّل الْمُسْلِم في عِباداته وخاصة صلاته التي هِيَ دعامة إسلامِه وَالسُّلّم الذي يرقى مِن خلاله إلى اللهِ تَعَالى، وَيَكُونُ ذلِكَ عَن طَرِيق:

أ- (الْخشُوع) الذي يعتبر رُوح العِبَادَة، كَمَا يَقُولُ تَعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾ المؤمنون.

ب- تأديتها في أَوْقَاتِهَا: ﴿ فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴿١٠٣﴾ ﴾ النساء، وَعِندَمَا سئل النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَن أَفْضَل الأَعْمَال، قَالَ: {الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا}، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، الْبُخَارِي برقم: (٥٠٤)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٢٦٤)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (١٧٠) عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ.

ج- الْحفاظ عَلَى واجباتها وسننها وهيئاتها كما نَصّ عَلَيْهِ النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، لأن اللهَ تَعَالى وَصَفَ الذين يُحَافِظُونَ عَلَى صَلاتِهم بِأَنَّهُمْ مُفْلِحُون، وَالنَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ: {صَلّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي}، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ برقم: (٦٠٥)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (١٦٥٨) عَنْ مَالِكُ بْنُ الْحُوَيْرِثِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ.

د- تأديتها في جَمَاعَة " أَي الفَرائض الْخَمْسَة جميعها " ذلِكَ بأَن النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ اعتبر صَلاةَ الْجَمَاعَةِ أَفْضَلَ مِنْ صَلاَةِ الفَرْدِ بِسَبْعٍ وَعِشرِينَ دَرَجَةً: {صَلاَةُ الْجَمَاعَةِ، أَفْضَلُ مِنْ صَلاَةِ الْفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً}، رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (١٥٠٩) وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٢٠٥٢) عَنِ ابْنِ عُمَرَ، وَلِلْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: {بِخَمْسٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً}.

هـ - الحفاظ عَلَى السُّنَن والنَّوَافل، وخصُوصاً صَلاَةِ اللّيلِ والوتر والرواتب، لأن النقص الذي يَعْتَري الفرائض يُسَدُّ بالنوافل، كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيث النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وَأَنْ يؤكد أَيْضاً عَلَى العِبَادَات الأُخْرَى، مثل: الصّوم والذِكر والدُّعَاء وَقِرَاءَةُ القُرْآن وَغَيْر ذلِكَ، بأَن يهتم بها ويؤديها بالصورة التي ورد بها الشَّرْع الْحَنِيف.

٣) أن يقوم بالْمداومة على مراجعة نَفْسِهِ مِن خِلال التأْكيد عَلَى حُسن تعاملهِ وَأَخْلاَقِهِ في كَافة مجالات الْحَياة، وأن يزن

كُل صَغِيرة وَكَبِيرة بِميزان القُرْآن وَالسُنَّة، وان يترك مالا يرضى به الشَّرع ويقلع عَنْهُ ويَجتنبه.

٤) ان يتفاعل مَعَ كِتَابِ اللهِ تَعَالى، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لاَيتمُ ذلِكَ إلاّ بإتقان تِلاَوَتِهِ وَحِفْظِهِ وَتَدّبرِهِ والإلتزام بِهِ، فَهُوَ الْمنهج الوحيد الذي يوصل الى مرضاةِ اللهِ تَعَالى، وَذلِكَ من خلال التَّقْوَى وتزكية النَّفْس، كَمَا يَقُولُ تَعَالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ الاسراء.

ومادام الأَمْرُ كَذلِكَ، فَالّذِي يريد أَن يسير إلى الله تعالى وَيزكّي نفسه، لابُدّ لَهُ أن يُطيل البقَاء مَعَ كِتَابِ اللهِ تَعَالى ويخصص لـذلك وقتـاً ومجـالاً، ولا يخفـى ان فهم كتاب الله تعالى لايتأتّى إلاّ عَنْ طَرِيـق اتّبـاع النَّبِـيّ صَـلّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ والإلتزام بِسُنَّتِه، كَمَا يَقُولُ تَعَالى: ﴿.... وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ النحل.

فَيَا رَبَّنَا نَسْأَلُكَ بِاسْمَائِكَ الْحُسْنَى وَصِفَاتِكَ العُلَى أنْ تُعيننا عَلَى التَفَاعل مَـعَ كِتَابِكَ واتّبَاعِ نَبِيِّكَ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، كَي نزكّي أَنْفُـسَنَا وَنـصقلها وَنحـثَّ الْخُطي في السيـر إِلَيْكَ وَالسَعَادَة بلِقَائِكَ.

آميـن

٣/ رمضـان ١٤٢٦

٢٠٠٥/١٠/٦

أربيـل

مقدمة الطبعـة الثالثـة

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ باللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ

وَصَلّى اللهُ وَسَلّمَ وَبَارَكَ عَلَى سَيّدنَا مُحَمَّدِ الأَمِين الْمَبعُوث رَحْمَة لِلْعَالَمِين وَآلِهِ أَجْمَعِين مِنَ الصَّحَابَةِ وَالقَرَابَةِ وَالتّابِعِين لَهُمْ بِإحْسَان إلى يَوْمِ الدّين

قَارِئي العَزِيز!

هَذِهِ الطبعة الثالثة لكتاب ((طريق الصلاح والسير الى الله)) تأتي بعد احدى عشرة سنة بعد تأليفه وطبعته الأُولى، وتأتي هَذِهِ الطبعة الثالثة لكتاب ((طريق الصلاح والسير الى الله)) تأتي بعد احدى عشرة سنة بعد تأليفه وطبعته الأُولى، وتأتيء نُفوسَهُمْ، وأعمالهم الْمُشينة من جهة، ومخططات أعدائهم الدنيئة من جهة أُخْرَى" إلى أَصْنَاف الْمَشَاكل والأدواء الْمستعصية التي تعصف بهم.

لذا رَأَيْتُ مِن الضروري، بَلْ من الواجب ان أَقوم بِمراجعة هذا الكتاب تارة اُخرى، وأجري فيه تغييرات جذرية، سأشير إليها في التمهيد، نَعَم نَحْنُ الْمُسْلِمون في غمرة التعقيدات والأزمات، نفهم ونوقن "كَمَا يقول من عنت الوجوه له، بأن التغيير والإصلاح لظروفنا وانتشالها من هذا الإرتباك والشرذمة، لابد أن يبدأ من داخل نفوسنا" وان ماء مغوراً ومطيناً من منبعه لا تُجْدي محاوله تصفيته من مجراه، ولا الجدار الذي بني عَلَى أساس أعوج، تُجْدي محاولة تقويمهِ من أعلاه: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ...﴿١١﴾﴾ الرعد، فالْحَقِيقَةُ ان جذور أفعالنا السيّئة وأعمالنا الْمنكرة الْمخالفة للشرع،

متأصلة في نفوسنا ورؤسنا، ولِهذا السبب عَلّمنا رَسولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ان نقول: {نَعُوذُ باللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا} وان عامل انكسارنا وظفر أَعْدَائِنا بنا أيضاً، يكمن في أَخطائنا ومجانبتنا للشرع وصفاتنا السيّئة قبل كُل شَيء، كَمَا يَقُولُ الْحَق تَبارَكَ وَتَقَدّس: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ... ﴿٣٠﴾ ﴾ الشورى، وَيَقُولُ تَعَالى أَيْضاً: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ ﴾ آل عمران، وَيَقُولُ تَعَالى أَيْضاً عَن سَبب هَزِيْمَة وانسحاب عدد من أَصْحَاب النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ في مَعْرَكَة أُحُدٍ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾ ﴾ آل عمران.

نَسَأَل الله بِمنِّه وَكَرَمِهِ انْ يَهدينا لِتزكية نفُوسِنَا وَتطهيرها من الرَّذَائِل الْمتجذرة فيها، وأن نُنَقّيها بِمنقاة التَّقْوُى، وان نزيِّنَها بالصِّفَاتِ السامقة والأخلاق الباذخة ، كَي نُمَهِّد لأنفسنا الطريق للسير إلى الله والتقرب إليه تعالى، وان نَحْرِزَ الفلاح لأنفسنا والنّجاة من الشّيطان ببركة إصلاحنا لنفوسنا، كَمَا قَالَ تَعَالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ ...﴿٦٥﴾ ﴾ الإسراء، وان نُحْفَظ من حبائِل الأَعْدَاءِ الأَلِدَّاء ومُخططاتِهِم، كَمَا قَالَ تَعَالى: ﴿ ... وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا...﴿١٢٠﴾ ﴾ آل عمران.

١٣/ رجب /١٤٢١ هـ
١١ / ١٠ / ٢٠٠٠ م

مقدمــة الطبعــة الثانيــة

الْحَمْدُ لله كَمَا يَنْبَغِي لِجَلاَلِ وَجْهِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ وَصَلّى اللهُ تَعَالى وَسَلّمَ وَبَارَكَ عَلَى مُحَمَّد النَّبِيّ الأُمّي وَآلِهِ الطَّيّبِينَ وَصَحْبِهِ الأَكْرَمِين والتّابعِينَ لَهُمْ بِإحْسَانٍ إلى يَوْمِ الدّين .

أَيُّهَا الْمُسْلِمون الأَحِبَّاء الأَعِزّاء!

الكِتَاب الذي في متناول ايديكم أُلِّف وَطُبِع لأَول مَرّة في عام (١٤١٠) هــ وهو محاولة من العبد الفقير لملء الثغرة والفراغ الواسع الحاصل في الناحية الْمَعْنَوية مِنَ العَمَل الإسلامي الذي كنت أتَلَمَّسهُ.

والآن:

أي بعد انقضاء خمس سنوات على الطبعة الأولى، أرى أنه رغم تقدم العمل الاسلامي في كوردستان والعراق وسائر الْمناطق الأخرى في العالم، لكن الناحية الْمَعْنَوية والأخلاقية في رَأيي لا تزال تعاني من الثغرة والفراغ ذاته، بل لقد اتسعت الثغرة في أعقاب توسع كيان العمل الاسلامي!

لذالك "ونزولاً عند طلب عدد من الأخوة الْمخلصين" رأينا من الضروري في هذه المرحلة ان نعيد طبع هذا الكتاب بصورة أحسن وأوسع من سابقتها، مع تصرف يسير في بعض الْمَواضِيع.

١٩٩٥/ ١١/ ٣٠

لِمَاذا سميّتُ هَـذَا الكِتاب بـ:
((طريق الصلاح والسير الى الله))؟!

بتأمل الآيات والأحاديث والآثار الْمُتَعَلّقَة بالناحية الْمَعْنَوية وتزكية النَّفس تبين لِي – وبالإعتضاد بتجربتي الشَّخْصِية – بأن الغاية من التربية وتزكية النفس شيئان:–

أَولاً: إصلاحها وتهيئتها للتقرُّب مِنَ الله زُلْفَى.

ثانياً: إسعادها بلقاء الله تعالى، وهو عِبَارة عن الْمَعْرِفَة الْمُثْلى التي تَتَمَخَّضُ عَنْهَا العبودية والعبادة في الدّنيا، والسعاده في دخول الْجَنَّة الّتي لاَ يَنْتَهي نعيمها في الآخِرة، كَمَا يَقُولُ تَعَالى: القيامة، وَالنَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: { إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا} رَواهُ الْبُخاريُّ برقم: (٦٩٩٨) وَقَولِهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَيْضاً: {اذا دخل اهل الجنة الجنة، يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً ازيدكم، فيقولون: الم تبيض وجوهنا، الم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال بلى: فيرفع الحجاب فينظرون الى وجه الله فما اعطوا شيئا احب اليهم من النظر الى ربهم، ثم تلا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ... ﴿٢٦﴾﴾ يونس،}، رَواهُ أَحْمَد برقم: (١٨٩٥٥)، ومُسْلِمٌ برقم: (٤٦٧)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (٣١٠٥) عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلِهَذَا يَقُولُ تَعَالى عَن الكُفّار والفُجّار: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ

ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ﴾ المطففين.

كَمَا تَرَونَ: فإِنَّ الله تَعَالى يتحدث عن موقف الكفار والفجار والمُفْسدِين إزاء دينه، وهو اعتبارهم آيات الله أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين، ويبين تعالى ان الكافرين قد غطى حِجَاب الآثام الأَسْوَد قلوبَهم بسبب أَفعَالِهم الْمنكرة، ثُمَّ ان الله تعالى يتوعدهم، ويهددهم بأَنَّهُم سيُحْرَمون من رؤية رَبِّهم يَوْمَ القِيَامَةِ، فَلاَ يصلح لرؤية الله تعالى من صَدَأَ قَلْبَهُ وسَوَّدَها بالذنوب وَالْخَطَايَا، حَتّى غَدا خلواً من كُل خَيْر.. وَمِمّا يدعو إِلى النظر والتأَمّل! أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ قَدَّم عقوبة الْحَجْبِ من رؤيته، عَلَى عقوبة الدخول في جَهَنَّم: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ﴾ المطففين، إذْ فمادام لا يوجد هُنَالِكَ ما هُوَ أَحبّ إلى أَهْلُ الْجَنَّة من النظر إِلى رَبِّهِم "كَمَا مَرّ معنا في الْحديث الصحيح" فلا غرو ان يكون الْمنع من تِلْكَ الرؤية السعيدة والنِّعْمَة العُظمى، ان يكون أَشَدّ من كُل عذاب وعقوبة!

ونحن سمينا كتابنا بـ (طرق الصلاح والسير الى الله تعالى) لأننا نأمل مِنْ كل مّنْ يفهمه جَيداً ويعمل بِمقتضاه، أن يغدو صالِحاً بإِذْن اللهِ تَعَالى، وان يقوده صلاحه نحو الْحصول عَلَى مَعْرِفَة فضلى، ورؤية اللهِ تَعَالَى في الدّنيا بعين القَلْب وفي الآخِرَة بعَيني رَأْسِهِ، نَعَمْ، فَكَمَا ان التزكية والطهر شرط لدخول جَنّة الله تَعالى كَمَا يَقُولُ تَعَالَى عَلَى لِسَان مَلاَئِكَتِه: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ الزمر، وَكَذلِكَ فَإِنّ دخول جنة الْمعرفة وعبادة الله، مفتقر الى تلك التزكية ومتوقف عليها.

تَمْهِيـــد

قرّائي الـــمُوقَّرون!

الكتاب الذي في متنــاول أيــديكم في طبعتــه الرابعــة هــذه، رتبــت مواضــيعه وفصوله على الْهَيئَة التالية:

الفصل الأَوَّل: تَعريف، وأَهْمِيَة، وَمَنْزِلة تزكية النَّفْس.

وقد سُلط الضوء – باديء ذي بدء – على هذه الكلمات والْمصطلحات: (التزكية، الإِحسان، التصوّف، السير والسلوك).

ثُمَّ عُرِضَتْ مرتَبَةُ وعِظَمُ تزكية النَّفْس، في دينِ الله تَعَالى وَمَنْهَجه الْمعصوم.

الفصل الثاني: يَتَضَمَّن مراحل طريق الصلاح والسير الى الله تَعَالى، وَهُـنّ سِـت مراحل:

١– **التوبة والتطهر:** لأن الله تعالى طيب يُحب الطيّب، والإنـسان مـن غـير ان يطهر نفسه من دَرَن الذّنوب وأوضار الآثام، لاَ يَستحق حَتّى السير الى الله، بَلْهَ الإقتراب من جنابه والسرور بلقائه السعيد:

٢– **العِلْم والْهِدَايَةَ:** فَلاَ يعبد الله إلاّ تَحْتَ أَنْـوَار العِلْـم الْمتلألئـة، والـشخص الْمُسَافِر بعد الإغتسال والإستعداد لـشد أحزمـة (الـسفر)، لايبـدأ الْمَـسير حَتّى يُحيط معرفة بالطريق الذِي سيسلكه.

٣– **الإِخْلاَص والتَجرّد:** ان نُبـل الغايـة وتجريـد القـصد لله وحـده، أَســاس، ورُوح، ونواة، وخميرة للعمل الصالح، إذاً فالسالك لطريق الله تعالى لا يخطـو خُطـوة واحدَة إِلاّ بَعْدَ ان يطمئن ان وجهة قلبه نحو الله عَزَّ وَجَلَّ، وَانَّهُ لَيْسَ

في قلبه مقصد مادي ولا مَعْنَوي غير رضوانه سُبْحَانَهُ، ولايتَّجِهُ إلى قبلة غير قبلته تَعَالى.

٤- **التَّقْوَى والتحري**: وهذا فِي الْحَقِيقَةَ هُوَ لُب ذلك الطريق وجوهره، كَمَا سَيْأْتِي توضيحه لاَحِقاً.

٥- **الإحْسَان وَالسموّ**: في مستوى التَعَامل مَعَ الْخَالق سُبْحَانُه، وَمَعَ الْخَلْق.

٦- **الإِسْتِقَامَةَ**: وهذه هي الْمَرْحَلَةَ الأَخِيرَة لِلْسَفَر الْمبارك الْمفعم بالْخير، فَلاَ شَكّ ان الإِسْتقَامَةَ هِي الشرط الضروري والْحَتمي للوصول الى النتيجة في أي عَمَل.

الفصل الثالث: زاد هذا الطريق: وقد تحدثنا في (٨) بنود عن (٥٢) وسيلة وَعَاملاً من عوامل الصلاح والتقرّب إلى الله زلفى.

الفصل الرابع: الْمَوَانع والعراقيل التي تعيق السالك في ذلك الطريق:

في هذا الفصل وعلى طول ثمانية فصول تحدثنا عن كل العراقيل والْموانع الرئيسية التي تصبح سبباً لإبعادِ الإِنْسَان عن دربه الصحيح وانْحرافه عن الجادة.

الفصل الخامس: تضمن ايضاحات لمجموعة مِنَ الْحقائق وَتَصْحِيحَاً لعَدَد من الأخطاء في مَجَال التزكية.

الفصل السادس: تضمن هذا الفصل آخر ملاحظاتي وتصوراتي عن التزكية، وقد ضَمَّنْتُها في عدد من النقاط الْمُلَخَّصة.

الفصل السابع: وهو عبارة عن تجربتي العملية فيما يخص تزكية النفس، وأودعتها بعض النقاط الْمركزة، لتصبح باعثاً على إنارة الطريق لإخواني واخواتي الْمُسْلمِين عموماً، في كافة نواحي تدينهم وخصوصاً في مجال تزكية النَّفْس.

وفي خِتام هذا التمهيد اتوجه الى القاريء وأَقُولُ:

عَزِيزي! آمل مِنَ اللهِ تَعَالى، أَن تُقْبِل عَلَى طَرِيق الله بعزم لايلين، وقلب متنور بنور الإِيْمان "كالعارفين والسالكين لطريق الله تعالى" وان يكون سفرك هذا سفراً مفعماً بالْخير، تقطع مراحله جَميعاً، لتصبح في النتيجة مُسْلِمَاً كَامِلاً واصلاً الى مبتغاك مَسْروراً بلقاء خالقك، ثُمَّ إِعْلَم علم اليقين ان وصولك مع أمثالك – إِن شاء لله – سيصبح سَبَباً لزَوَال مشاكلنا، فَقَدْ سَبَق من الله تعالى الوعد بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ الأنبياء.

فكلما أصلحنا نفوسنا يصلح الله تعالى بنا الناس وبتعبير آخر: كلما أَجرينا التغيير في ذواتنا، كلما كنّا أقدر على تغيير الواقع، كما يقول عَزّ من قائل: ﴿...إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ... ﴿١١﴾﴾ الرعد.

فَيا أخوتي في الدّين!

إذا كُنا نريد مرضاة ربّنا عنا، بأدائنا للواجبات الْملقاة عَلَى كواهلنا، فَلْنسارِعْ الى اصلاح أنفسنا ونتدارك مايجب علينا فعله حتى تشملنا بشارة الله تعالى، فنرث الأرضَ في هذه الدينا، وَالْجَنَّة يَوْمَ القِيَامَة.

الفصل الأول

تعريف تزكية النَّفس ومنزلتها وأهميتها

١- التعريف بـ (التزكية) و(الإحسَان) و(التصوّف) و(السّير والسُّلوك):

من منطلق أنّ كلاً من كلمات ومصطلحات: التزكية والإحسان والتصوّف، والسير والسلوك، قد استخدمت تعريفاً وعِنواناً للناحية الروحية والْمعنوية، فقد رأيت من الضروري ايضاح معاني تلك الْمصطلحات باقتضاب:

أ- التزكية: وهي كلمة قرآنية وردت في الذكر الحكيم بصيغ متعددة، ومعناها عبارة عن: (النُموّ وَالبَرَكَة وَالطهارة)، يقول راغب الأصفهاني في كتابه: (مفردات ألفاظ القرآن)، ص٢١٨:

{زكا: أصل الزكاة النُّموّ الحاصل عن بَرَكَةِ الله تَعَالى، ويعتبر ذلك بالأُمُور الدّنيَوِية والأُخروِيّة، يُقَالُ: زكا الزرع يزكو، اذا حصل منه نمو وبركة ... وبزكاة النفس وطهارتها يصير الإنسان بحيث يستحق في الدّنيا الأوصاف المحمودة وفي الآخرة الأجر والْمثوبة، وهو ان يتحرى الإنْسَان ما فيه تطهيره، وَذلِك يُنْسَبُ تَارَةً إلى العَبْد لكونه مكتسباً لذلك حَقِيقَة، نحو: ﴿ قَدْ أَفْلَح

مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾ الشمس، وَتَارَةً يُنْسَبُ إلى اللهِ تَعَالى لكونه فاعلاً لذلك في الحقيقة، نحو: ﴿ ...بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ... ﴿٤٩﴾ ﴾ النساء، وَتَارَةً إلى النَّبِيّ لكونه واسطة في وصول ذلك اليهم، نحو: ﴿ ...تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ... ﴿١٠٣﴾ ﴾ التوبة}.

إِذاً: فتزكية النَّفْس عِبَارَة عن التصفية والتطهر من الصفات السيئة والخِصال القادحة، واحسانها وتزيينها وانماؤها وايصالها إلى الكمال بسَبَب تثبيت الخِصال الجميلة والصفات السامية وبتعبير أَهل العِرْفَان: التخلية من الرذائل والتحلية بالفضائل.

ب- الإِحْسَان: وهذه الكلمة أَيْضَاً وردت في القُرْآن بصيغ متنوعة، وأصلها في اللغة مأخوذ من الْحسن، وعرفها النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ من ناحية الإصطِلاح الشّرعِي فَقَالَ: {الإِحْسَانُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ}، رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (٣٦٧)، وَالبُخَارِيُّ برقم: (٥٠)، وَمُسْلِمٌ برقم: (١٠٢)، وَابْنُ مَاجَهْ برقم: (٦٤) وَابْنُ خُزَيْمَة برقم: (٢٢٤٤)، وَغَيْرهُم عَنْ عُمَر بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومعلوم ان هذا النوع من العبادة التي يسميها النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بـ (الاحسان)، يسميها أهلُ العرفان والتصوف (الايمان الشهودي) الذي هو أكبر أثرٍ من آثار تزكية النفس والقمة السامقة للتدين الشخصي.

ج- التصوف: وهذه الكلمة هي أَكثر استعمَالاً وتَداولاً من كل الكلمات والْمصطلحات الأُخرَى ولكن لَمْ ترد في أي نص من نصوص القُرْآن والسُنَّة، بَلْ يستخدمها أَهْل الطرق الصوفية، وفيما يتعلق بالأصل الذي أُخِذَ منه كلمة (التَصُّوف) وعن كيفية ظهورها، فللعلماء والباحثين آراء

مختلفة حول هذا الْمَوضُوع، فابن تَيْمِيَة (مَثَلاً) يَقُولُ بهذا الصدد: [أَمَّا لَفْظُ "الصُّوفِيَّةِ " فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَشْهُورًا فِي الْقُرُون الثَّلَاثَةِ ... فَقِيلَ: إِنَّهُ نِسْبَةٌ إلَى "أَهْلِ الصُّفَّةِ " وَهُوَ غَلَطٌ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذلِكَ لَقِيلَ: صُفِّي، وَقِيلَ نِسْبَةٌ إلَى الصَّفِّ الْمُقَدَّمِ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَهُوَ أَيْضًا غَلَطٌ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذلِكَ لَقِيلَ: صُفِّي، وَقِيلَ نِسْبَةٌ إلَى الصَّفْوَةِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَهُوَ غَلَطٌ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذلِكَ لَقِيلَ: صفوي، وَقِيلَ: وَهُوَ الْمَعْرُوفُ – إنَّهُ نِسْبَةٌ إلَى لُبْسِ الصُّوفِ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَا ظَهَرَتْ الصُّوفِيَّةُ مِنْ الْبَصْرَةِ وَأَوَّلُ مَنْ بَنَى دويرة الصُّوفِيَّةِ بَعْضُ أَصْحَابِ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ زَيْدٍ وَعَبْدُ الْوَاحِدِ مِنْ أَصْحَابِ الْحَسَنِ وَكَانَ فِي الْبَصْرَةِ مِنْ الْمُبَالَغَةِ فِي الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ وَالْخَوْفِ وَنَحْوِ ذلِكَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي سَائِرِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَلِهَذَا كَانَ يُقَالُ: فِقْهٌ كُوفِيٌّ وَعِبَادَةٌ بَصْرِيَّةٌ، وَقَدْ رَوَى (أَبُو الشَّيْخِ الأصبهاني) بِإِسْنَادِهِ عَنْ (مُحَمَّدِ بْنِ سيرين) أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ قَوْمًا يُفَضِّلُونَ لِبَاسَ الصُّوفِ فَقَالَ: إنَّ قَوْمًا يَتَخَيَّرُونَ الصُّوفَ يَقُولُونَ : إنَّهُمْ مُتَشَبِّهُونَ بِالْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ وَهَدْيُ نَبِيِّنَا أَحَبُّ إلَيْنَا وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَلْبَسُ الْقُطْنَ وَغَيْرَهُ].(١)

ولكن صاحب: (الفتوحات الإلَهية شرح الْمباحث الأَصلية) له رأي آخر حول أَصْلَ هَذِهِ الكَلِمَة عرضه بين ثنايا هذين البيتين لأبي الفتح البستي:

تخالف الناسُ في الصوفيِّ واختلفوا جهلاً
وظنوا انه اشتُقَّ من الصوف
ولست أمْنَحُ هذا الإسم غير فتى
صافى فصوفي حتى سُمي صوفي

---

١) انظر: مجموع الفتاوى، ج: (١١)، ص: (٦-٧).

هذا عن كيفية ظهور اشتقاق كلمة ومصطلح الصوفي والتصوف، اما عن مضمون التصوّف وفحواه، فان أهل العرفان قد عَرَّفوهُ بعشرات التعاريف الْمتقاربة، وذلك بالنظر الى التصوّف من جوانبه المختلفة، فمثلاً نقل ابن قيم الجوزية عن أبي بكر الكتاني، قوله: (التصوف خُلُقٌ فمن زاد عليك في الخُلُقِ زاد عليك في التصوف أَيْضَاً)(1).

وقيل عن التصوف ايضاً: (هو تجريد القلب عما سِوى الله تعالى).

وفي رأيي ان اكمل تعريف وأحسنه هو ما كتبه صاحب (الفتوحات الالهية)(2)، {أنَّ هذه الطريقة أي طريقة الصوفية هي موضوعة لكيفية تهذيب القلوب وتصفيتها من الرذائل وتحليتها بالفضائل لِتَتَهيّأَ بذلك لمعرفة الحق تعالى المعرفة الحقيقية التي هي معرفة العيان بطريق الذوق والوجدان} وقال أَيْضَاً في موضع آخر: ((مقصود التصوف تصفية البواطن حَتّى يكون الإِحْسَان الذي فسره الرَّسُول صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بقوله: (أنْ تَعْبُد اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ) وذلك لا يصح بدون ما تقع به العبودية والتعبّد، من عقائد الإِيْمان وأَعْمَال الإِسلام، فهما ظاهرهُ وهو باطنهما، فلا قيام لَهُما إِلاّ به ولا صحة له بدونهما، فهو كالروح وهما كالْجَسَد، فالرُوح لا تقوم بغير الجسد، والْجَسَد لا يقوم بغير الروح، ولذلك قال الإِمام مالك: من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه وتصوف فقد تحقق ...)).

---

1) انظر: مدارج السالكين، ج: (1)، ص: (٣٦٥).
2) انظر: ص: (٣٦).

د- السير والسلوك: وَهَاتَان الكَلِمَتَان منفصلتان في الأَصْل، وهُمَا في عرف أهل التصوّف تستعملان معاً في الغالب الأعم، والْمقصود من ذلك كيفية تعامل السالكين لطريق الدّين ومعرفة الله تعالى في السير على طريق الدّين والتوجه نحو من اشرقت لوجهه ظلمات البر والبحر.

يقول أحد الكتاب الْمعاصرين عن لفظة (السير الى الله): {(السير الى الله) يعني الإنتقال من نفس غير مزكاة الى نفس مزكاة، ومن عقل غير شرعي الى عقل شرعي، ومن قلب كافر أَوْ مُنَافق أَوْ فَاسق أَوْ مريض أَوْ قَاسٍ، الى قلب مطمئن و سليم، ومن روح شاردة عن باب الله غير متذكرة لعبوديتها وغير متحققة بهذه العبودية، الى روح عارفة بالله قائمة بحقوق العبودية له، ومن جسد غير منضبط بضوابط الشرع الى جسم منضبط انضباطاً كَامِلاً بالشريعة، وبالْجملة من ذاتٍ أقل كمالاً الى ذات أَكْثر كَمَالاً في صلاحها و اقتدائها برَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَوْلاً وَفِعْلاً وَحَالاً}[١]

وبعد ان وضحت لنا معاني التزكية والإِحْسَان والتَصوّف والسير والسلوك، لنتحول الى المسألة الثانية وهي:

٢- أهمية تزكية النَّفْس ومَنْزِلتُهَا:-

أشرنا آنفاً الى أن لَفْظَتَي: التزكية والإِحْسَان ورَدَتا بصيغ متعددة في نصوص الكتاب والسُنَّة، لذلك بتأمل مجموعة من النصوص القُرْآنية والْحديثية التي تضمنت اللّفظتين أعلاه، نتعرف على الْمنزلة الرفيعة لتزكية النَّفْس وأهميتها:

---

١) (تربيتنا الروحية) سعيد حوّى.

أ- التزكيـــة:

تعد تزكية النَّفس احدى الواجبات الأَرْبَعَة البالغة الأهميـة لِلْنَّبِـي الْخـاتم صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فَقَدْ ذكر الله جَلّ جَلاَلَهُ في أَرْبَعة مواضع مـن كتابـه، واجبات النَّبي صَلّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ بـين امتـه وحـصرها في أربعـة أشـياء كالتالي:

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ البقرة.

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ البقرة.

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ آل عمران.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ الجمعة.

نَعَمْ فَتلاوة آيات الله تعالى، وتزكية النَّفس، أي تطهيرها واصلاحها وإنعاشها، وتعليم كتاب الله تعالى والْمَقْصود بذلك قواعد الشريعة، والْحِكْمَة، والْمَقْصود بها الكيفية الصحيحة لتطبيق الشريعة، أَوْ الإلتزام بالآداب الشرعية والأخـلاق الرفيعة، كانت الوظائف الأربع الأساسية لرسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ.

ثانياً: بسبب التزكية وعن طريقها، يحصل الانسان على السعادة الحقيقية في الدنيا والاخرة، كما يقول العلي القدير:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾ الشمس.

ويقول تعالى أيضاً: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ الأعلى

ثالثاً: صاحب التزكية يكون بمأمن من اتباع الشيطان والسيئات والذنوب، كما يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ النور.

رابعاً: كل انسان محتاج الى التزكية ومفتقر اليه، سواء كان مسلماً، لزيادة طاعته وتقربه من الباري جل شأنه: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ ﴾ عبس، والمقصود هنا من تزكية (ابن ابي مكتوم) رضي الله عنه هو ترعرع الإيمان وزيادة طاعة والتقوى، أو كان كافراً لنبذ كفره وتزيينه بالايمان والتوحيد، كما قال تعالى: ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ ﴾ عبس، وتزكيتهم هي: خلاصهم من شركهم وإيمانهم بالله الواحد الاحد.

ب- الإحسـان:

أولاً: الإحسان هو القمة السامقة للتديّن وعبادة الله تعالى: {الإحسان أن تعبد الله كأنـك تـراه} رواه مـسلم، وقـال تعـالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ... ﴿١٢٥﴾ ﴾ النساء.

ثانـياً: يُجازى العَبْدُ على إِحْسَانه الذي بقدره، بإحسان الله الذي هو أَهله كَمَا قَالَ تَعالـى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ الرحمن.

ثالـثاً: ان اللهَ يُحِبُّ أَهْلُ الإِحْسان ويكون تعالى مَعَهُم بِمَعِينَتِهِم الْخَاصَّة: كَمَـا قَال تَعَالـى: ﴿ ...وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ العنكبوت.

رابعاً: الإِحْسان خصلة جامعة ومنزلة بالغة السمو وله جوانـب كـثيرة وَلَـيْسَ مقتصراً عَلى أَشْيَاء وجوانب بعينها، فهو يمثل كـل الحـسنات والطّاعـات ويشمل جَوانب الدّيانة عموماً، وقد عدد الله تَعَـالى في لعبـاده الْمختـارين الذين سماهم بالْمُحسنِين خِصالاً كثيرة وصفات متعددة كَمَـا قَـالَ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ الذاريات.

وَيَقُولُ النَّبِيّ الخَاتَم مُحَمَّد صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: {إِنَّ اللّـهَ عَـزَّ وَجَـلَّ كَتَـبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَـإِذَا قَتَلْـتُمْ فَأَحْـسِنُوا الْقِتْلَـةَ، وَإِذَا ذَبَحْـتُمْ فَأَحْـسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ}، رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (١٧١٥٤)، وَمُـسْلِمٌ بـرقم: (٥١٦٧)، وَأَبُـو دَاوُدَ بـرقم: (٢٨١٤)، والتِّرمِـذِيُّ بـرقم:

(١٤٠٩)، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَالنَّسَائِيُّ برقم: (٤٤٠٥)، وَابْنُ مَاجَهْ برقم: (٣١٧٠)، وَالبَزَّار برقم: (٣٤٦٨) عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهنا نصل الى حقيقة مهمة فيما يخص التزكية والإِحْسَان، وهي ان اللفظتين اضافة لكونهما معنيان لحقيقة واحدة، فإنهما ليستا زائدتين على الإِيْمان والإِسلام، ففي حديث مُسْلِم عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الْمَعْروف بحديث جبريل، يَقُولُ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ في آخِره: {هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ} فَالرَّسُولُ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عِنْدَمَا يَسألهُ جبريل (أَخْبِرْنِى عَنِ الإِسْلاَمِ) و(أَخْبِرْنِى عَنِ الإِيْمَان)، لم يزد النَّبِيّ على ان ذكر له أركان الإسلام الخَمْسَة: (الشَّهَادَتَين، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَحَجّ بَيْتِ الله الحرام)، وَأَرْكَان الإِيْمَان الستة: (الإِيْمَان بِاللهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ).

وَعِنْدَمَا سأله عن الإِحْسَان لم يُضِفْ شَيْئَاً الى الإِيْمان والإِسلام، بل ذكر كيفية العبادة الله تعالى: {أَنْ تعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ}.

إِذاً: فالتزكية والإحسان والتصوّف والعرفان والسير والسلوك، كلها تعاريف وعناوين لحقيقة واحدة، هي الناحية الْمَعْنَوية والباطنة في العبادة والتديُّن.

وهي من جهة العدد والحجم والكمية، لا تضيف أيَّ زيادة الى دين الله تعالى ومنهجه، ولكنها من ناحية الماهية والكيفية والباطن، تلبس الدّينَ وأَرْكَان الإسلام والإِيْمانَ قاطبة روحاً جديدةً تحوّلها الى حالة أخرى، وتنشئها نشأة أخرى، وتصل بها الى مستوى رفيع وفسيح، حيث:

١- إيصالُ الإِيْمان من مرحلة العِلْم والدليل، الى قِمَة الدّوق والْمشاهدة، والْمقصود هنا الإِيْمَان بسائِرِ الأرْكَان، وَلَيْسَ الإِيْمَان بِاللهِ وَحَدَهُ.

٢- تغيير الإِسلام والطّاعة من التكلّف الى التَشرُّف "أي: الإحساس بالفخار وزيادة الشرف والحرمة".

٣- وتغيير العقل والقلب من حالة التشتت والإنشغال، الى حالة الثبات والسرور.

٤- اضافة الى انها تستأصل جذور الرذائل وتمحوها وتُزيلها من ذهن الإنسان، وبالعكس فأنها تُفتق زهرة الفضائل وتَنْشُر أريجها العَبِق.

والخُلاَصَة:

في أعقاب تزكية النّفس والوصول الى منزلة الإحْسان الرفيعة، يتحقق جوهر الإِيْمَان والإِسلام لِجَمِيع أَرْكَانهِ وأَقْسَامِهِ وأَعْمَالِهِ ونشاطاتهِ في الإِنْسَان، وَكَذلِكَ التوحيد والتَّقْوَى والعبودية والتوكل والصبر والشكر، والتي لاتخرج مع الكثير من الْمفردات الأخرى، عن دائرة الإِيْمَان الرحبة.

اذاً:-

ليعلم الذين يعتبرون أَنْفُسهم موالين للتزكية والتصوّف، ولكنهم يزعمون التصوّف وطرُقه شيئاً منفصلاً عن الشريعة، وكذلك الذين يتذرعون بذريعة معاداة البدع وجهلة المتصوفة، فيشعرون بالحساسية الشديدة ليس فقط تجاه كلمتي التصوف والطريقة، بل حتى تجاه التزكية والذكر، بسبب مواقفهم العاطفية فيحرمون أنفسهم من بحر العرفان والتصوّف المليىء باليواقيت والدُّرَر، وبذلك اهملوا تلك الناحية الروحية والْمَعْنَوية الْمهمة بسبب تلك الحساسية غير المعقولة وغير الْمبررة، ليعلموا جَيداً: أَنّ الأَوَّلين اصيبوا بداء الإفراط والآخرين أُصيبوا بداء التفريط، والْمَوَقِف الصحيح الْمَوافق للشَّرع ان نتخذ من القُرْآن والسُنَّة ميزاناً لتقييم أية مسألة، وان نكون على حذر عَظيم حَتّى لا نجور في أحكامنا او نجانب مقتضى الضمير بسبب حُبّ الناس أَوْ بُغْضهم.

الفصل الثاني

مراحل طريق الصلاح والسير الى الله تعالى

ameer.maktab@yahoo.com
/AliBapir /AliBapir /MediaAmeerOffice
www.alibapir.net

المَرْحَلَة الأُولى: التَّوْبَة والتطهر

أَيُّهَا الْمُسْلِم العَزِيز!

ان أولى خطواتك ومراحلك ان تتوب الى اللهِ تَعَالى توبة صادقة، وتُجَدِّدَ معهُ عهد العبودية بصدق، ليطهرك من كل أخطائك ومخالفاتك، وان يجعلك في مصاف الذين قال فيهم : ﴿ ...إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ البقرة.

فأن انت قطعت هَذِهِ الْمَرْحَلَة، فَقَدْ حققت في نفسك الخصلة الأولى من خصال الْجَمَاعَة الْمؤمِنة الْمُختارة الذين يصطفيهم الله تعالى لتجديد دينه وتحقيق منهاجه: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴿٥٤﴾ ﴾ الْمائدة، وقبل ان نتحول الى جلاء الغبش عن كيفية وماهية تلك التوبة، أرى أنه من الأفضل أن أذكر شيئاً من اهمية ذلك الامر الجلل:

أَيُّهَا الْمُسْلِم الموقر!

فكما انه لايجوز لك الصَّلاة إلاّ بَعْدَ الوضوء وطهارة الْمَلبس والْمَكان الذي تقف عَلَيْهِ، وكما انه لايمكنك دخول الْمَسْجد وقِرَاءة القُرْآن إلاّ بَعْدَ التطهر والإغتسال من الجَنَابَة، وكما ان الفلاّح لايزرع أرضه إلاّ بَعْدَ ان يحرثها ويُصفِّيها، كذلك الْمُسْلِم لايمكنه السير الى الله والتَقَرُّب مِنْهُ تَعَالى، إلاّ بَعْدَ ان يتوضأ من الإنشغال بدنياه، ويتطهر من الآثام والذنوب ومن أدغال الرذائل والصفات السيئة، لان السعادة بلقيا الله جل وعلا، مقصد سامٍ وأَمر ذو شأن: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ الواقعة.[1]

---

١) يقول احد العارفين من اصحاب القلوب الصافية : (كيف يشرق قلب صور الاكوان منطبعة في مرآته؟ ام كيف يرحل قلب الى الله وهو مكبل بشهواته؟، أم كيف يدخل الحضرة ولم يتطهر

ولذلك عد الله سبحانه وتعالى التوبة هي الخصلة الاولى للمؤمنين البائعين لانفسهم وامواهم في سبيل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ التوبة.

وللسبب ذاتة يَقُولُ الْمصطفَى صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: {الطّهُورُ شَطْرُ الإِيمَان}.[1] أَخْرَجَهُ أَحْمَد برقم: (٢٢٩٥٣)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٥٥٦)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (٣٥١٧) وَقَالَ: صَحِيح، وَالدَّارَمِيُّ برقم: (٦٥٣) برقم: (٢١١)، وَالبَيْهَقِي في (شعب الإيمان) برقم: (٢٧٠٩) عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ.

ومعلوم ان لفظة الطهور حتى لو كانت تشمل طهارة الظاهر، فأنها تعني على الأكثر الطهارة الْمَعْنَوية، اذ يجوز ان يكون مظهر الإنسان أنظف وأجمل من غيره، ثم لايكون في قلبه مثقال حبة من الإيْمَان.[2]

من جنابة غفلاته ؟ ام كيف يفهم حقائق الأسرار من لم يتب عن هفواته ؟ انظر: (إيقاظ الهمم في شرح الحكم)، ج: (٢)، ص: (٤٦٢).

١) متفق عليه.

٢) أغلب الظن ان معنى هذا الحديث: {الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمان} هو الذي يعبر عنه في الاصطلاح الصوفي (بالتخْلية)، أي تخلية النفس من الرذائل، فكما يقول العلماء والعارفون، ان اصل الدين ومعرفة الله شيئان:

والآن هلم الى ذكر مضمون التوبة وماهيتها:

معنـى التَّـوبــة:

التَّوبَة هِيَ الرُّجُـوع، وبعكـس مايفهمهـا النـاس، فهـي ليـست كلمـة تقـال باللسان، لأن التوبة في اصلها اللغوي معناها الرجوع، واستعمل في الشرع على أساس معناها اللّغوي، ولكنه خَصَّها بالرجوع الى الله تعالى.

نَعَمْ فالتوبة تعني ترك الذنوب والْمَعَاصي والإقلاع عن الأفعال السيئَة والنّدم بالقلب، والإقرار بالذنب باللسان، والتضرع والطلب بالـصفح مـن الله تعـالى، والعـزم علـى عـدم العـودة الى الـذنوب والـسيئات والإسـتقامة علـى العبـادة والأعمال الْحَسَنَة، وتنفيذ هذا العزم بالأَعضاء والجوارح لإثبات حقيقة الندم.

فالذين يقولون بأَلسِنَتِهِم (أَسْـتَغْفِرُ اللّهَ وَأَتُـوبُ إِلَيْـهِ) ولكـنهم دائبـون عَلَـى أَحْوالِهِم السابقة، فهؤلاء لايطرء التغيير إلاّ عَلَى أَلْسِنَتهم، والا فأن جوارحهم لم تتوقف عن الذنوب ولم ترتدع عن فعل الخطايا، فَأولَئِكَ لايعتـبرون تـائبين، بـل يعتبرون مستهزئين بالتوبة، فأنت اذا دعوت أحداً إِلَيْكَ وَقُلْتَ لَهُ: إرْجِع، فَيَقُولُ لَكَ بِلسانهِ: قَدْ رَجَعْتُ، أَوْ سَأَرجِعُ، ولكن لاينفِّذ كلامَه عَمَلِيـاً، فأنـت لاتعتـبر مثل ذلك التصرف سِوى ضربٍ من الإستهزاء!، والآن وبعد علمنـا بِمَـضْمون التوبة ومعناها، فلنتعرف على كيفية التوبة في الفقرات الثلاث التالية:

أ- التطهر والانخلاع من الـصفات والعـادات الحيوانيـة والـشيطانية، التـي ويـسميها الامـام الغزالي (المهلكات).

ب- التزين بالخصال الحميدة والحسنة الموجودة في الملائكة، والتي يـسميها الامـام الغزالـي بــ (المنجيات) وهذا ايضاً يُدْعى في مصطلح التـصوف (التخْليـة)، والتخليـة والتحليـة تُكَوِّنـان التزكية، وهي كما قـال تعـالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ ﴾ الـشمس، اذاً: فالتـزكية هـي التخْلية، والتخلية في آن معاً...أنظر مفردات الفاظ القرآن، للراغب الاصفهاني، ص٢١٣.

١- كيفية التوبة:

يقول الرسول صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّم: {مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبَاً، ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَطَهَّرُ، ثُمَّ يُصَلِّي، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إلاّ غَفَرَ لَهُ} رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ برقم: (٤٠٦)، وَقَالَ: حَدِيثٌ صَحِيح، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٦٢٣)، وَحسَّنَهُ الأَلباني في (المشكاة) برقم: (١٣٢٤)، عَن أَبي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي رِوَايَة أَبِي دَاوُد: «فَيتطهَّرُ فَيُحسِنُ الطُّهورَ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكَعَتَين فيستَغفرُ الله ... الحديث».

اذاً: يا قارئي الحبيب، والْمُسْلِم العَزِيز!

ان كنت ناوياً ان تسلك طريق الصلاح والتوجه الى الله جل شأنه، فخطوتك الأولى وأنت عازم للأوْبة الى الباريء، ان تغتسل، فإن تعذّر عليك ذلك، فتوضأ وضوءاً كاملاً، ثُمَّ صلِّ رَكَعَتين ثُمَّ إحمد الله ما استطعت الى ذلك سبيلاً، وصلِّ عَلَى النَّبِي كَثيراً، ثُمَّ تَذَكّرْ ماضيك واستعرض في خيالك جميع ذنوبك التي ارتكبتها بقلبك وبلسانك وبصرك وَسَمْعِك ورجلك و... الخ، وقل برقبة ذليلة، وعين دامعة، وصوت مبحوح من الضراعة والإنكسار، وارفع يديك:

اللّهُم اني نادم على ماكان مني، ممّا علمته أو نسيته أو ماجهلته أنه ذنب أصلاً، اللهم اني نادم على ذلك كله وأُقر بذنوبي، ولكنني على يقين ان ذنوبي مهما كثرت وتضافرت، فعفوك أوسع وشفقتك أعظم، فياربّي اني استميحك الغفران، والصفح، فلا تعيدني خائباً وليشملني لطفك وعفوك، فلئن لم أكن أهلاً لأن تغفر لي، فأنت أَهْل لذلك!

ثُمَّ ارجع البصر الى ذنوبك كرتين، وانظر أيها متعلقة بالله وحده، فلعله ان يغفرها لك اذا كنت صادقاً في توبتك، ولكن ماهو متعلق منها بالناس، فهناك إضافة لما قلناه أشياء اخرى يتوجب عليك القيام بها، وهذا ما سنوضّحه في الفقرة التالية.

٢- كيفية التوبة من الذنوب المتعلقة بالناس:

أ- قم بمراجعة ماضيك ودقق الْمشاهدة ماوسعك ذلك، هل لأحد حق عليك، أَوْ آذيت احداً من زمن بلوغك وحتى هذه الساعة التي تتوب فيها، سواء كان ذلك غيبة أَوْ بهتاناً أَوْ حَسَداً أَوْ تمادياً منك على احد، أَوْ استهزاءاً، أَوْ ظناً سيئاً، أَوْ أكلاً لِمال غَيرك ....الخ

فأذا تذكرت جميع من لهم حق أَو حقوق عليك، فتضرع الى الله بقلب ملؤه الحزن وعين دمعها جارٍ، ارفع يديك وادع لهم دعاءاً عريضاً ان يرحمهم الله، وان يكرمهم في دنياهم وأخراهم، وخصوصاً الذين تعلم قصورك نحوهم:

فاذا كنت انما اغتبته لتسيء الى سمعته، وتُحَقِّر من منزلته بين الناس، فادع الله ان يُعْلِيَ ذكره ويزيد حرمته، وان كنت حسدته لأنه أعلم منك وأفهم، وخُلُقه اسمى منك وأعظَم، فادع الله له ان يكرمه بمزيد من العلم والخلق، وان كنت غضبت عليه لثرائه وأمواله وحاولت الإضرار به، فاطلب له من الله مزيداً من الْمَال الْحَلاَل ...

والْمُهم ان تدعو لهؤلاء بقلب سليم من الأعماق ان يشملهم الله برحمته وإِحسانه، لا ان يخادعك الشيطان اللعين، فتدعو لَهُم دُعاءً عابرا سريعاً لا روح فيه! ثم تفكر بعد ذلك ملياً مَنْ تتصور انه يبغضك، أَوْ يُسيءُ بك الظن، أَوْ يؤذيك أَوْ يحسدك ...الخ

بعد ان تستعرض في مرآة خيالك جميع هؤلاء، تضرَّعْ الى الله تعالى صادقاً من قلبك:

يا الهي أنت عفوّ تحب العفو، لذلك فقد عفوتُ عن كل من آذاني أَوْ أضَرَّبي، وأنا اطلب منك يا رباه ان تغفر لهم وتلطف بهم وتشفق عليهم

وتسامحهم[١]، فياربي كما تجاوزتُ عن حقوقي وأبرْأتُ ذمتهم، رغم إلحاقهم الأذى بي، فلتغفر لي برحمتك وكرمك، ولتمحوَ عني الحقوق التي للناس عليّ، وطهرني من دَرَنِ تلك الذنوب والسيئات ونجِّني منها.

ب- ثُمّ اسْعَ سعياً حثيثاً ان تطلب الصفح وبراءة الذمة من كل من أضررت به أَوْ آذيته[٢].

ج- وحاول إرجاع ما بِذمتك من حقوق للأحياء، وان كانوا أَمواتاً فأرجعها لورثتهم، وان لم يَتَسنَّ شيء من ذلك، وكان للمسلمين بيت مال حقيقي، فضع ماله عليك من حق فيه، وان تعذر ذلك أَيْضاً فَتَصَدَّقْ بِهَا لَهُ.

فياعَزِيزي الْمُسْلِم!

فان أَنْتَ حققت في نَفسِك ما قلناه حذو الشعرة بالشعرة، فكُن على يقين ان كنت تبت توبة صادقة، ولم يكن قصدك إلاّ إرضاء الله تَعَالى والتقرّب منه، انه سيغسلك من ذنوبك مهما عظمت بالْماء والثلج والبرد، فتغدو كالقماش الأبيض غُسِلَ عنه الدنس.

يَقولُ الرَّسُول الكَرِيم صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: {التّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَذَنْبَ لَهُ}، أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهْ برقم: (٤٢٥٠)، وَالبَيْهَقِي في (شعب الإيمان) برقم: (٧١٧٨) وَرجَالُهُ ثِقَات عَنْ عُبيدة بن عبدالله عَن أبيهِ، وَحَسَّنَهُ الأَلباني في (سُنَن ابْنُ مَاجَهْ) برقم: (٣٤٢٧).

---

١) وهذا يختص بالمسلمين ولايجوز ذلك في حق غير المسلمين، الا ان يكون دعاء هداية .

٢) للمزيد من الإطلاع على كيفية ردّ الحقوق الى أصحابها والتوبة منها انظر: (الزّواجر عن اقتراف الكبائر)، ابن حجر الهيثمي، الكبيرة: ٤٦٣، ج: (٢)، ص: (١٨١).

وهذا يعني أنك تبت توبة صادقة صحيحة، وهي التي اشتهرت شرعاً بالتوبة النصوح، ولكن كيف نعرف كون التوبة نصوحاً أو غير نصوح؟ وهذا ماسنبحثه في الفقرة الثالثة:

٣- علامات التوبة النصوح :

أَيُّها الْمُسْلِم العَزِيز!

بعد ان تتوب بالهيئة التي ذكرناها لك، ربما تُحَدِّثُك نَفْسُك هَلْ قُبلت توبتك أَمْ لا؟ وهذا من حقك أن تتأكد من قبول توبتك، كي تعود للتوبة مرة ثانية وثالثة، ومرات عديدة، اذا علمت ان توبتك لم تقبل، فتكرر ذلك حتى تستيقن وتطمئنَّ ان توبتك قبلت، فكما ان الذي يغسل شَيْئاً اذا علم أنّهُ لايتنظف بغسله مرة واحدة فَسَيُعيد غسلهُ مرات ومرات، حتى يتنظف ويذهب عنه الدنس، كذلك نحن علينا الاّ نملّ حَتَّى نوقن بقبول توبتنا.

والآن هلم الى ذكر العلامات الدالة على قبول التوبة:

بداية أقول: يَقُول تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ... ﴿٨﴾﴾ التحريم.

في هذه الآية يبدو جلياً ان التوبة النصوح مقبولة حتما بلطف الله كَرَمه، ويجعلها تعالى سبباً لتطهر الإِنْسَان من سيئاته ومعاصيه وسعادته بالْجَنّة.

ومادام الأمر كذلك فأذا تمت التوبة بصورة صادقة بلا كدر، فهي توبة مقبولة ولا شك،[١] وبإمكاننا ان نعرض العلامات الدالة على قبول التوبة في النقاط التاليـــة:

أ- ان يعزم التائبُ صادقاً من قلبه بصورة قطعية ونهائية:

أَولا: فيما يخص ماضيه: ان يندم على كل ذنب أَوْ معصية أَو اساءة قام بها، وألاّ يعود اليها ثانية، وان يعطي كل ذي حق حقه، وأن يُبْرِيءَ منه ذمته، وان يحزن على مافاته من الْحَسَنات والواجبات، ويعد ذلك ضرراً عظيماً لَحِقَهُ.

ثانياً: فيما يخص حاضره: أن يُقْلِعَ عن كل معصية صغيرة وكبيرة، سَوَاءٌ كَانَت تركاً لواجبٍ، أَوْ ارتكاباً لمحظور، وان يُشَمِّر ساعِدَ الجِدِّ لتنفيذ مايَقَعُ على كاهِلِه من واجبات، وإعادة ما فاتهُ في الماضي.

ثالثاً: فيما يخص مستقبله: ان يكون عازماً ثابت القلب، على عدم العودة الى الذنوب والْمَعَاصي والإِستقَامَة على الصلاح وتأْدية الفرائض.

ب- أن يحاولَ إجهاد نفسه وإذابة الشحوم واللحوم التي تسمن بها، عن طريق العبادة والحزن وإيلام النفس، كما كان في السابق يكدس اللحم والشحم بسبب الحرام أَوْ الآثام، أَوْ الكَسَل فِي أَحْسَن الأَحْوَال.

ج- أن يستشعر مرارةَ الْمَعَاصي والذّنوب كالصاب والعلقم، بعد أن تاب توبته، وان يتلذذ كأحسن مايكون اللذّة من العبادة وفعل الحسنات.

د- أن يُقلِّل من الأكل والشرب والنوم والكلام والإختلاط (سيكون لنا وقفة أكثر تفصيلاً مع هذا الموضوع).

---

١) لأن العلماء يقولون: (عسى من الله واجبة): ﴿...عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ... ﴿٨﴾﴾ التحريم.

تلك كانت طائفة من الشعارات والعلامات الرئيسية للتوبة والعودة الصادقة الـى الله.

ولنختتم حديثنا عن التوبه والعـودة الى الله، بهـذا الحـديث الْمبـارك للنَّبِـيّ الخَاتَم صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ والتـي يظـهر فيه بعضٌ من آثار وبركـات الرجـوع الى المولى جل شأنه:

{مَنْ لَـزِمَ الاسْـتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَـهُ مِـنْ كُـلِّ هَـمٍّ فَــرَجًا، وَمِـنْ كُـلِّ ضِـيقٍ مَخْـرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَـسِبُ}، رَوَاهُ أَحْمَـد بـرقم: (٢٢٣٤) تعليـق شعيب الأرنؤوط: إِسنادُهُ ضَـعِيف، وَأَبُـو دَاوُدَ بـرقم: (١٥١٨)، وَابْـنُ مَاجَـهْ برقم: (٣٨١٩)، وهذا الحديث وان كان ضعيفاً في سنده، فهو صحيح وقـويٌّ معنىً وَمَتْـناً.

نعم يا قارئي الْحَبِيب ان أكثر الصعوبات في حياتنا وجل مـشاكلنا في حياتنـا الْمادية والْمَعْنَوية، تنبثق من معاصينا وأخطائنا وانحرافاتنا، كَمَـا يَقُـول عَـزّ مـن قائـل: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ الشورى.

وكما ان الحيدة عن الطريق وعصيان الله تبارك وتعـالى، يُمَثِّـل مَنْبَـع الأَدواء والْمَشَـاكل، كـذلك الْحَـسَنات والعــودة الـصادقة الى الله تعـالى تُعَـدّ بلـسم الجروح الـمادية والـمعنويـة.

لِهَـذا عِنْـدَمَا نَـرى ان الأَنْبِيــاء عَلَـيهِمُ الـصَّلاَةُ وَالـسَّلاَم يـأمرون أقـوامهم بالتوبة وطـلب الغُفـران مِـن الله، والرجـوع اليــه، فـأنهم اضـافة الى تبـشيـر النـاس بالْمَغْـفِرة والْجَنَّة، فقد كانوا يبشرونهم بسعادة الـدّنيا وخيــرها أيـضاً، مثال ذلك:

١- قول نُوح عَلَيْهِ السَّلَام كَمَا وَرَدَ فِي مُحكم التنزيل: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾ نوح.

٢- وكذلك يخاطب هود قومه قائلاً: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ هود.

٣- ويونس عَلَيْهِ السَّلَام عندما التقمه الحوت، لم يَسَعْهُ الإعتراف بذنبه واعتبار نفسه ظالِمَاً وطلب الْمَغْفِرَة من الله تعالى، ولم يَنْفَعْهُ شيءٌ سِوى ذلِكَ: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ الأنبياء.

فيا أَيُّهَا الْمُسْلِم الْحَبِيب!

بعد توبتك بالصفة التي ذكرتها لك،[1] وتضمنت توبتك للعلامات التي عرضناها آنفا، فعند ذلك كُنْ عَلَى يقين بأن توبتك قد قُبِلَتْ، وانك تطهرت من ذنوبك تَمَامَاً، وَمَعنى ذلك انك كشخص متوضيء يحق لك ان تعقد صلاة

١) مباحث التوبة لاتنتهي بهذه الصفحات القليلة بل انني عازم بأذن الله تعالى ان اتناول الموضوع في كتاب مستقل يصدر بعد هذا الكتاب ان شاء الله، ولذلك فقد ادخرت بعض المواضيع التي كنت انوى تضمينها في هذه الطبعة الى حين صدور ذلك الكتاب.
والآن – ١٩ رمضان ١٤٣٢هـ أقول: الحمد لله لقد صدر ذلك الكتاب الموعود، بعنوان: (التوبة الى الله تعالى) وقد طبع لحد الآن خمس مرات باللغة الكوردية، واعلَّ الله تعالى يُقَيِّض له من يُترجِمه إلى اللغة العربية.

التقرّب الى الله تعالى، وكأي انسان طاهر يحق لك الذهاب الى بيوت الله، وان تمد يديك الى القُرْآن، كَالفَلاّح الذي يحرث أرضه ويُصَفِّيها، فأنت أَيضاً احرث قلبك ونفسك بمحراث التوبة، وصَفِّها من أدغال الذنوب وحشائش الْمعاصي، لتكون مهيئة لبذر بذور الخير فيها، ومادام الأمر آل الى هذا المآل، فاخْطُ خطوتك الثانية راشداً:

الـمَرْحَلَةَ الثانيـة : العِلْـم والتبيُّن

أَيُّهَا الْمُسْلِم الْمكرم!

بعد ان قطعت الْمرحلة الأولى من سيرك الى الله تعالى، فتبت وتطهرت، فَأَنْتَ الآن إذن كمسافر هيّأ عُدَّةَ السفر لاينتظر الاّ الإنطلاق، ولكن لاشك بأنه لَيْسَ هنالك مسافر يملك حظاً من العقل، يَبْدَأُ بالْمسير دون التعرف واكتساب الخِبرَة بذلك الطريق الذي يريد ان يسلكه، وهكذا بالنسبة لك بعد ان طبت وتطهرت، عَلَيْكَ ان تشغل نفسك بما تَحتاجه طبيعة الطريق التي تقربك من الله جَلّ وَعَلا، ماهو؟، وماذا يتحتم عليك فعله وتركه، والاّ فلو بدأت بالْمسير دون عِلم أَوْ خبرة وَتبيُّن، فلا يبعد ان تضل الطريق، وتُعَرِّضُك الشياطينُ لِمشاقِّ الوقوع في الوديان والْمنحدرات والْمواقع الْمستعصية، فلا تبلغ مرادك ومبتغاك.

وَاعلَم جَازماً، بان الكثرة الكاثرة من الذين يبدؤن الْمسير الى الله بدون إحاطة وإلْمَامٍ بالطريق، ليس فقط لَمْ يصلوا، بَلْ لقد آل مصيرُ كثيرٍ مِنْهُمْ الى الزندقة والإنحراف والضلال البعيد، ويقول تعالى في هذا الْمَجَال: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ...﴿٣٦﴾ ﴾ الإسراء.

وَيَقُولُ الإِمام مالك: (من تفقه وَلَمْ يتصوّف فَقَدْ تفسق، ومن تَصَوَّف وَلَمْ يتفقّه فَقَد تزندق، ومن تفقه وتصوَّف فقد تحقق).

ورُبَّما تَقولُ نَعَم اقتنعت بأن السير الى الله بلا عِلم وفَهم وتبيّن لايجوز، ولكن ماهو ذلك العلم وأين يمكن الحصول عَلَيْهِ؟

نَقُولُ فِي الإِجَابَة:

الحقيقة اننا نعني بذلك العلم والْمَعْرِفة، الفِقه الْجيد في الإسلام والذي يمكن استحصاله فقط وفقط بدراسة القُرْآن وَالسُنَّة، وما كتب عنها، من تفاسير وشروح، وهذا لايتسنى الاّ للقلّة من الناس، لهذا لابد هنا أن نُعَيِّن الحَدَّ الأَدْنى لتلك العلوم والْمعارف والّتي هِي عِبارة عن:

١) معرفة أصول التصور الإِسلامي عن الكون والْحياة والإسلام.

٢) معرفة الأَرْكان الأَساسية للعقيدة الإِسلامية.

٣) معرفة مضمون العبادة وحقيقتها عموماً، وكذلك الشعائر الخمس:

الصَّلاَة، الصَّوم، الزَّكاة، الْحَجّ، الذِكر.

٤) العلم بالأَخلاق والآداب الشرعية.

٥) معرفة أي مَسئَلَة أُخرى في سائر جوانب الأُسْرَة والنواحي الإِجتماعية والسياسية والإِقتصادية ... الخ، والتي يحتاجها الْمُسلم وتتوقف أمورهُ عليه، فمثلا: الذي يريد الزواج وتكوين الأُسرة، يحتاج الى العلم الشرعي في ناحية الأُسرة، والذي يريد ان[1] يجاهد، عليه ان يتبين في القضايا الشرعية ذات الصلة بالْجِهاد، وكذلك الْمعاملات التجارية و... الخ.

---

١) استعملت كلمة (الجهاد) هنا بمعنى القتال والدفاع والمقاومة.

فيا أَيُّهَا الْمُسْلِم العزيـز!

بعد أن تجتاز هذه الْمرحلة أَيْضاً، عَلَيْكَ ان تشدّ حِزامك وتَحُثَّ الخطى نحو الْمَرْحَلَة الثالثة، وهي:

المَرْحَلة الثالثة: الإِخلاص والتجرُّد

أَيُّهَا الْمُسْلِم الغالي!

بعد ان قطعت الْمَرْحَلَة الثانية وتوضحت امامك امور دينك ومعالم طريق السير الى ربّك، فتبينت طبيعة الطريق وكيفيتها ومايجب عليك فعله وتركه، كي تتمكن من اجتياز الطريق وطي الْمسافات لتبلغ الْهدف، وتغدو مُسْلِماً كَامِلاً صحيح الإِسلام، والآن لَمْ يَبْقَ امامك الاّ الإنطلاق والبدء بالخطوة الأولى ولكن رويدك لاتخطو تلك الخطوة رَيْثما تقطع هذه الْمرحلة أَيضاً، وهي عبارة عن الإخلاص والتجرّد.

فيا نور عيني !

لو كانت الأعمال بذوراً وعمرك أَرْضاً، فأن الإِخلاص وتجرّيد القصد لله هو الْمَاء، وما من نبتة تنبت ولاتترعرع من دون ماء، اذن فلا يقبل عمل صالح دون تجريد القصد لُمخرِجِ الخَبء في السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض، فَكَمَا ان الْحَليب لايصبح لبناً دون خمير يخثره، فَأَيْضاً لاتصح ولا تصلح أية حركة أَوْ نشاط دون ان يتخمَّر بالإخلاص، ولهذا يقول نبينا الْمُرشد مُحَمَّد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَم: {كُلُّ أمْرٍ ذِي بَالٍ لَم يُبْدأُ فِيهِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَن الرَّحِيم فَهُوَ أقْطَعُ} رَوَاهُ أَبُو دَاوُد، فحين التسمية يجب أن يستحضر الإنسان أشياء ثلاثة:

١- إِنَّنِي أَقوم بهذا العمل باسمه تعالى وإرضاءً لَهُ.

٢- إِنَّنِي لاَ أَقوم بهذا العمل لا بحولي ولا بقوتي، بل بِحَول اللهِ وَقوّته.

٣- إِنَّنِي أَقوم بهذا العمل وفق شريعة الله ومنهجهِ القويم.

ولاشكّ بأن القيام بأي عمل للخير، يفتقدُ أحَد هذه الشروط، فهو حصاد للحشيش، وعمل لَيْسَ وراءه طائل.

ولذلك علّمنا رَسُولُ الله صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ان نَقُولَ فِي الصَّلاَة قَبْلَ الفَاتِحَةَ:

{وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ...}، أَخْرَجَهُ أَحْمَد برقم: (٧٢٩)، وَمُسْلِمٌ برقم: (١٨٤٨)، وَابْنُ خُزَيْمَةَ برقم: (٤٦٢)، وَالبَيْهَقِيُّ في (شعب الإيمان) برقم: (٣١٣٣)، عَنْ عَلِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ولا يَجوز ان يُفهم من الوجه هنا الوجه الْمادي، لأن الإنْسان يوجِّهُ وجهه في صلاتهِ إلى القِبْلَة، ومعلوم ان الله تَعَالى لَيْسَ في جهة الكَعْبَة ولا في مكانٍ آخر.[1]

فالْمَقصُود من الوجه هنا اذن هو وجه القَلْب والنَّفْس والنية.

فيا أَيُّهَا الْمُسْلم العَزِيز!

قَبْلَ ان تتحرك، وَجِّه قلبك ونِيَّتك الى قِبلتك الأَعْظَم، وَهُوَ الله العَلِيّ العَظِيم الوهاب الْمبدع صاحب اللّطف والرّحْمَة، وجرِّد قلبك تجريداً مطلقا الاّ مِنْ التقرّب الى الله تعالى والسمو الى العُلى والسعادة، الْمتمثِّلة في مرضاة اللهِ جل

١) المقصود هو التواجد المادي والحسي، لأن الله تعالى لايشبه مخلوقاً لا في ذاته ولا في صفاته (ليس كمثله شيء)، وعندما نقول: ان الله فوق السموات على العرش، فنحن لانحيط بتلك الفوقية، وهي بكيفية تليق بجلالِ الله تعالى.

شأنهُ، والتطلّع الى الكَمَال، فرّغ قلبك الاّ من هذه الأَمنية الْمباركة والغاية العليا، وغَرْبِلْ مقاصد قلبك وآمالها بغربال القُرْآن والسُنَّة، وذر كلّ شيء سِوى الله تَعَالى والسير نحوه تبارك وتعالى.

ولكن أَيُّها الْحَبِيب:

حذار من خداع النّفس والشيطان، اياك اياك والوقوع في شراكهما وحبائلهما، وما احسن ما قال البوصيري:

وخالف النفس والشيطان واعصهما وان هما مَحّضاك النصح فاتهم.

ولا تقبل منهما خصما ولا حكماً فقد علمت كبر الخصم والحكم.

واسمح لي في ختام هذا الحديث ان انصحك بهذه النصائح الثمينة:

أولاً: ربما يخادع اي انسان نفسه، ولكن هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ان يخدع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالى، فَنبِيّنَا صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يقول: {إنّ الله لاَ يَنْظُرُ إلى أجْسَامِكُمْ، وَلاَ إلى صُوَركمْ، وَلَكن ينْظُرُ إلى قُلُوبِكمْ وَأَعْمَالِكُم}، رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٦٧٠٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

واذن ياعزيزي!

فَلاَ تَسْتَعْجِل وتقذف بنفسك الى الْمهالك، ولاتحاول عبور هذه الْمرحلة حتى يأتيك اليقين، أنَّ وجهة قلبك ليست متجهةً لغير الله جَلّ وعلا.

ولو ملئت الأَرْضَ بذوراً مِن غَيْر سقيا، فلن ينبت منها بذرة واحدة، فلهذا لاتحرك ساكناً حتى تقوّم مؤشر قلبك لتجعله يتّجه الى الله تَبَارَكَ وَتَعَالى، وحَتّى تطهر نفسك تَمَاماً وتُجَرِّدها تَمَامَاً، لأن الْجِدَار اذا بني على مزبلة فان عاقبتها الإنهيار .

ثانيا: ان كُل حَرَكَةَ وَنَشَاط وكد للمسلم يكون من اجل مرضاة الله تعالى والفَوز بِمحبته، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى أعلن صراحة بأنه لايقبل العمل الاّ من الْمُتَّقِين: ﴿ ...إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ المائدة، اذن فقبل أن نُقْدِمَ على أي خطوة فَلْنُدَقِّقْ في أنفسنا، هل يا تُرى نحن بالهيئة التي يتقبل الله منا.

ثالثاً: يَقُولُ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ في حَدِيث قُدسي: {أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي...}، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البُخَارِيُّ برقم: (٦٩٧٠)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٦٩٨١)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (٣٦٠٣)، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَابْنُ مَاجَةْ برقم: (٣٨٢٢)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٨١١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

واذاً يَا عَزِيزي الْمُسْلِم!

اعْلَمْ جَيداً بأَنَّكَ لاَ تَنْتَفِعُ بشَيءٍ مِن أعمالك دون التجرّد للهِ تَعَالى، فكلما جردت قصدك لله تعالى، كلما أَرَادك اللهُ عَلَى قدر ذلك.

والخُلاَصَة: كيفما كان الله تعالى عِنْدَك، كُنت عند الله كذلك.

والآن بعد ان تجردت تمام التجرد لله جل شأنه، وبعد أن أفرغت قلبك من كل قصد وأُمنية مادية او معنوية، سوى احراز مرضاة الله تعالى والتقرب اليه، ولم تعد ترى في مِرْآته سوى ذلك، فالآن سَمِّ الله وشُدَّ أحزمتك نحو أعظم مرحلة من مراحل السفر الى الله تعالى، ألا وهي:

المرحلة الرابعة: التقوى والتحقق

أَيُّهَا الْمُسْلِم الكَرِيم!

الآن بَعْدَ عبورك للمرحلة الثالثة وتوجهك كليا الى اللهِ تَعَالى، لَمْ يبقَ لديك غاية اسمى من السعادة بلقاء اللهِ تَعَالى والتكامل والإِيْمَان، وَلَمْ يعد لديك مقصد مَعْنَوِي كسماع الْمدح والإطراء، والحصول على الْمَناصب، وكسب وجوه الناس إليك،أَوْ مَقْصَد مادي، كحب السُّلْطَة والْمال والنِّسَاء، فَلَمْ تعد ترى في مرآة قلبك تلك الأشياء، فهيأ نفسك هذه الْمرة لخوض غمار الْمَرْحلة القادمة.

وقبل ان نتحول الى توضيح كيفية التَّقْوَى، دعونا نقدم بين يدي الْمَوضوع تَعْرِيفاً مُخْتَصَراً لِهَذِهِ الكَلِمَةَ ولنتحدث يسيراً عن معطياتها:

يرجع كلُّ كلام العُلَمَاء وأبحاثهم عن كلمة التَّقْوى، الى أن معناها هُوَ: الْحذر وحِفْظ النَّفْس، فَمثلاً يقول الراغب الأصفهاني: وَصَارَ التَّقْوَى في اصطلاح الشَّرع: حِفْظُ النَّفْسِ عَن مَا يُؤْثِمُ.

نعم أن جوهر التَّقْوَى هو الْمراقبة والْحذر والْمحَافَظَة عَلَى النَّفْس، من أي مقصد وغاية، أَوْ قَوْل وَفِعْل فيه سَخَط الله تعالى، وهذهِ الأَفعال التي تؤدي الى مسخطة الربّ تَعَالى تنقسم الى ثَلاَث:

الأَوّل: الإِمْتناع عَن فِعل واجب أَوْ فعل حسن.

الثاني: القِيام بفعل حَرام أَوْ فعل سيء وقبيح.

الثالث: الإفراط في فعل الْمُباحات.

وَلِذلِكَ يَقُولُ أَحَد أَصْحَاب النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ في جَوَاب شَخْص سأل عَنِ التَّقْوى: (هَلْ سلكت طَرِيقا ذَا شَوك) فَقَالَ نَعَمْ:

فَقَالَ مَاذَا فَعَلْتَ:

فَقَالَ: (شَمَّرْتُ وَاجْتَهدت) فَقَالَ: (فَذلِكَ التَّقْوَى).

وَبَعْدَ ان تكوّن لدينا إلمام الى حد ما بالتَّقْوَى، دعونا نتحدث الآن قَلِيلاً عن أهميته وآثاره، وما يمكن أن يتمخّضَ عنه من نتائج:

١- التَّقْوَى يُؤدِّي الى العِلْم وَوضوح الرؤية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ... ﴿٢٩﴾ ﴾ الأنفال.

٢- التَّقْوَى يُكْسِبُ الإِنْسَانَ معيّة الله: ﴿ ... وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ التوبة.

٣- بالتَّقْوَى نَفْهم القُرْآن: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ البقرة.

٤- التَّقْوَى يَجعَلُ الإِنْسَان محبوباً عِنْدَ اللهِ تَعالى: ﴿ ... فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ آل عمران.

٥- التَّقْوَى سَبَب لِدخُول الْجَنَّةَ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ القمر.

٦- التَّقْوَى يُزيل الكرب ويأْتِي بِالفَرَج: ﴿ ...وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ ﴾ الطلاق.

٧- التَّقْوَى سَبَب ليسر الأمور: ﴿... وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ الطلاق.

٨- التَّقْوَى يَجلِب الأَجْر ويُكَفِّر السَيِّئَات: ﴿... وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ الطلاق.

٩- التَّقْوَى درع واق من دسائس الأعداء ومكائِدهم: ﴿... وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ آل عمران.

١٠- لاينهدم ما أقيم على أَساس التَّقْوَى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ...﴿١٠٩﴾﴾ التوبة.

١١- العَاقِبَة الْحسنى لِلْمُتَّقِينَ: ﴿...إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ هود.

والآن فلنتبين التَّقْوَى مَا هُوَ، وَكَيْفَ يَكُون وبأي طريقة يُسْتَحصل؟ ونقول: إن أَحْسَن طريقة للحصول على التَّقْوَى هِيَ: ان يتعامل الإِنْسَان يومياً بلا انقطاع مع العهد ذي البنود الْخمسة التي وضعها العلماء العارفون من أصحاب القلوب اليقظة، والنفوس الْمتقية، للتكامل والسير الى الله تعالى، وهذه "باختصار" البنود الْخمسة التي اتفق عليها العلماء حَوْلَها:

١) الْمشارطة ٢) الْمراقَبة ٣) الْمعاتبة
٤) الْمحاسبة ٥) الْمعاقبة

واليك كيفيـة العمل بالعهد السالف الذكر:

الخطـوة الأُولـى: الْمشارطة:

حادث نفسك وشارطها كل يوم عندما تصحو من النوم مبكـراً، بـأن تكـون حذرة واعية من الوقوع في سَيّئَة، أَوْ فعل محرم، أَوْ لغو، أَوْ مكروه، ولا يتم هذا الْحذر والحيطة الا بالْمحافظة على التزامات سَبعٍ:

١- الكلمات: ألاّ ينطق الإنسانُ بكلمة مَعْصِية أَوْ حتى لغـو، وان لا يَـسمح لنفسه بترك أية كلمة فرض، أَوْ سُنّة.

٢- النظـرات: ان لاينظـر الى شـيئ حـرام أَو مكـروه، وان يـشتغل بـصره بالنظرات الواجبة أو الْمُسْتَحبّة.

٣- الخطرات: ألاّ يَدَعَ الأفكار السَيّئَة والْمكروهة تخطـر علـى قلبـه، وان لا يُقَصِّر في النيات والْمَقَاصِد الواجبة أَوْ الْمستحبة.

٤- اللحظات: أن لا يُمْضيَ أية لحظة من عمـره في الْمخالفـات الـشَّرعية أَو اللغو، وان يشغل أوقاته بالواجبات الشّرعية والفروض والسُّنن.

٥- الخطوات: أن لا يخطو نحو الْمحرمات والْمَكروهات، ولا يـدخر وسـعاً في السير قدماً نحو الفضائل والخيرات.

٦- اللقمات: ألا يُدخِل بطنه لقمةً حراماً ولا مـشتبهاً فيهـا، وألا يُكْثِـرَ مـن الْمباحات.

٧- الحركات: ألا يَقوم بـاي تحـرك محـرم أَوْ حَتَّـى مكـروه باعـضائه، وأَلا يتكاسل عن أي تحرك واجب أَوْ مستحب.

الخطوة الثانية: الْمراقبة:

وبعد ان قطعت الْمرحلة الأولى، حيث عقدت مع ربّ العزة عهداً متيناً، وشارطت نفسك ان تجتنب الْمنكرات وتفعل الْحسنات، ثم بعد ذلك مباشرة شارطتها بوضع رقابة دقيقة ومستمرة على نفسك، دقق وحقق في الكلمات والجمل التي ينطق بها لسانك، والنظرات التي ترسلها عيناك، والْهواجس والنيات والخواطر التي تخطر في فكرك وقلبك، وراقب دقائق حياتك وثوانيها، وخطواتك التي تخطوها، واللقمة التي تبلعها وشربة الْماء التي ترتويها، والحركات التي تقوم بها أعضاؤك، فان لم تجعل ماذكرته لك سبباً لرضى الله تعالى عليك، فلا تجعله باعثاً على الإفتضاح والبوار وذهاب الأعمال هباءً منبثاً، وهذه الْمراقبة والْمحافظة على الذات، لَيْسَ عَمَلاً خَاصاً بوقت ومكان معين، بل يجب ان يستمر ذلك من لحظة الإستيقاظ الى حين النوم، وبذلك يتعين علي الإنسان ألاّ يغفل عن نفسه طَرْفَة عين، لأن النّفس والشيطان للإنْسَان بالْمرصاد، يتحينان الفرصة: اما في إقحامه في إِثمٍ، أو إضاعة حسنة عليه.[١]

الخطوة الثالثة: الْمعاتبة:

وبعد ان قمت بمَراقبة نفسك من حين الإستيقاظ الى حين الخلود الى السرير، فوضعت عينك وسمعك ولسانك وقلبك وعقلك وبطنك ويدك ورجليك وسائر

١) مما هو معلوم بالضرورة ان التقوى لايتحقق فقط بالحفاظ على النفس من الوقوع في المعاصي والمخالفات، فحتى الحجارة الصم لاتذنب ولا تعصي، ومع ذلك تظل حجارة لاتتحول الى شيئا آخر، واذاً فالتقوى الحقيقية هو ان تقوم بعمل الحسنات اضافة الى ترك السيئات، ومن الجلي أن ترك المأمور إثمٌ، كما أن فعل المحظور إثم سواء بسواء.

أعضائك، تحت الْمراقبة والْملاحظة والتدقيق الشديد، بعد ذلك وعندما أويت الى فراش النوم، لا تنم حتى تقوم بعملية مراجعة دقيقة لأعمال يومك الغبر، فما وجدت من خير وحسنة فاحمد الله تعالى، واعْلَم بأنّك ماكنت لتقوم بذلك بلا معونة من الله، وان رأيت لا قدر الله سَيِّئَة، فتب منها من ساعتك، وعد الى مولاك طالباً منه الصفح، وكن على يقين بأنّك ارتكبت هذا الإِثْم بأَمر الشَّيْطَان اللعين، الذي أوقعك في هذا الْمزلق، ومادام الأَمر كَذلِكَ فحق عليك ان تلوم نفسك وتعاقبها وتعنفها.

الخطوة الرابعة: الْمحاسَبَة:

وبعد أن عاتبت نفسك يومياً، قبل الإيواء الى فراش النوم على أخطائها ومعاصيها، فان صلُحتْ نفسك بتلك الْمعاتبة والتعنيف واللوم، فتأدَّبتْ واستحيتْ فحيهلا، والاّ فعليك بالإنتقال الى الخطوة الرابعةً، ألا وهي القيام بمحاسبة إسبوعية شديدة ودقيقة، تستوقف فيها نفسك على كُل صَغِيرة وَكَبِيرة، دونَ ان تأخذك بها رأَفة أَو إشفَاق، لأنها لَمْ تشفق عليك، عندما قامت بتلك الاخطاء والْمَعَاصي وعَرَّضتْكَ الى غضب الربّ تعالى وعذاب الدنيا والقيامة! واذا تبيّن لك إبّان الْمحاسبة ان نفسك تستحق الْمعاقبة، فَلاَ عَلَيْكَ ان تتحول مُسرِعاً الى الْمَرْحَلَة الْخَامِسَةَ والأَخِيرَةَ:

الخطوة الْخامسة: الْمعاقبة:

كما أسلفنا اذا تبين لك بعد الْمحاسبة الدقيقة، ان نفسك بحاجة الى العقوبة والعظة، فلا تتردد في الأخذ بخناق نفسك وتوجيه ضربة مناسبة إِليها، لتوقظها من نومة الغَفْلَة والركون إِلى الدعة والكَسَل.

واقطع بسيف الشّرع تلك السَلاسِلِ والأَغلال التي قَيَّد الشَّيطانُ بِها نَفسَك، والْحق ان نوعية وكيفية وحجم تلك العقوبة تحتمل بحثا مَطوّلاً، لَيْسَ هَـذَا محـل تفصيله، ولكن انتهاج الوسطية من شأنه أن يُوَقِّفَ الإنسان لإِصابة الْهدف.

إِذاً: فإذا عَزَمْتَ عَلَى مَعاقبة نفسك على معاصيها وَسَيّئَاتِهَا، ووجهـت اليهـا ضربة موجعة أسميتها عِقَابَاً، فلا تجعلها معاقبة شديدة، بحيث يغلـب شـرها علـى خيرها، وسلبياتها على إِيجابياتها.[1]

فإذا أنت أصخت بسمعك وعملت بالعهد ذي البنود الخمسة، فما من ريـب ان صفة التَّقْوَى ستتجسد فِيكَ إِن شاء الله، وبـذلك سـتقطع الْمرحلـة الرابعـة أَيْضَاً، وبعد ذلك هَيِّـئ نفـسك واشـرئبّ بعنقـك وتطلـع نحـو القمـة الـسامقة للعبادة، أَلا وَهِيَ دَرَجَة الإِحْسَان، واجعل ذلِكَ هاجسك وأُمنيتك العليا.

والآن اسـمحو لي أن أختتم بحث هذه الْمَرْحَلَة بهذِهِ الْمقولـة الْمُشْرِقة لحبـر الأُمَّةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وارضَـاه:

يَقُولُ عَبْدُ اللّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَعَنْ أَبِيـهِ، عَنْ أَثَرِ الْحَـسَنَة وَالـسَيّئَةَ فِي حَياة الإِنْسَان:

((إِنَّ لِلْحَسَـنَةِ ضِيَاءً فِي الْوَجْهِ، وَنُوراً فِي الْقَلْبِ، وَسَعَةً فِـي الـرِّزْق، وَقُـوَّةً فِي الْبَـدَنِ، وَمَحَبَّـةً فِي قُلُـوبِ الْخَلْـقِ، وَإِنَّ لِلـسَّـيِّئَةِ سَـوَادًا فِـي الْوَجْـهِ،

١) ليس بالضرورة ان تكون المعاقبة ضربا وصداما، بل اي شيئ من شأنه ان يكون عظة أَو درساً، كالتجويع والتعطيش والحبس عـن طريـق الإعتكـاف ... الخ وان توثيـق (ابـي لبـابة) نفـسه باحدى سوارى مسجد رَسُول الله عمل مـن هـذا القبيـل، كمـا وردت قـصته في (سـيرة ابـن هشام)، وقد نزلت الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧ ﴾ الأنفال ، بتلـك المناسـبة، أنظـر: (لبـاب النقـول في أسـباب النـزول) للسيوطي: ٤٩٦، ص: (١١٦).

وَظُلْمَةً فِي الْقَلْبِ، وَوَهَناً فِي الْبَدَنِ، وَنَقْصاً فِي الرِّزْقِ، وَبِغْضَةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ)).[١]

هَذِهِ الْمقولة الْمحكمة من (ابْنُ عَبَّاسٍ) التي تلوح فيها أَنوَار بيت النبّوة بجلاء، تحتوي على عشرة قوانين حول تأثير الْحَسَنَةَ والسَّيِّئَةَ في حَياة الإِنْسَان، خَمس مِنْهَا متعلقة بالْحَسَنَة كَالتالي:

١) تلؤلؤ الوجه وتنوره، كما يقول تعالى: ﴿...سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ...﴿٢٩﴾﴾ الفتح.

٢) النور في القَلْب، كَمَا يَقُولُ تَعَالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ...﴿٢٢﴾﴾ الزمر.

٣) القُوَّة فِي البَدَن، كَما يَقُولُ تَعَالى عَلَى لِسَانِ (هُود) عَلَيْهِ السَّلاَم: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ هود.

٤) السعة في الرزق، والله تَعَالى يَقُول: ﴿...وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ...﴿٣﴾﴾ الطلاق.

٥) المحبة في قلوب المسلمين، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ مريم.

---

١) حكاها ابن قيم الجوزية في كتابه (الوابل الصيب من الكلم الطيب) وذكرت في مصادر أخرى غيره.

ويتعلق الباقي منها بالآثار السَّيِّئَة:

١) الإسوداد في الوجه، كَمَا يَقُولُ تَعَالى: ﴿ ...فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ...﴿١٠٦﴾ ﴾ آل عمران.

٢) الحيرة والعمه: كَمَا يَقُولُ تَعَالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ البقرة.

٣) ضعف البَدَن، كَمَا قَالَ تَعَالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ ...﴿٤١﴾ ﴾ الروم.

٤) الضيق في الرزق، والله تَعَالى يَقُولُ: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ...﴿١٢٤﴾ ﴾ طه.

٥) البغض في قلوب الْخَلْق، كَمَا قَالَ تَعَالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ البقرة.

المرحلة الخامسة: الإحسان

أَيُّهَا الْمُسْلِم الْموقّر!

متى ما اجتزت الْمرحلة السابقة بشكل تام، وباتت صفة التَّقْوَى ظاهرة فيكَ، فمعنى ذِلكَ انك غدوت على الْجادة الْمستقيمة، وأنك بِتَّ تسير نحو الغاية، واصبحت قريباً منها أَيْضاً، ولكن لا تقتنع بهذ القدر فرحمة الله ولطفه

وكَرمه كثير وافر زاخر، فلا تكتفي بالقليل والآمال الكَبيرة تصنع الرجال العظام، ولكن الآمْال الكبيرة والْمقاصد العالية، تَتَطلّبان كداً، نضالاً يُناسبهما وَكَمَا قَالَ الْمُتنبيِّ:-

واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأَجْسَام.

وبعد ان وصلت الى مراتب الْمُتّقِين في أَعْقَاب اجْتيازك للمراحل الأَرْبع السابقة، فَلاَ تتوقف عند هذا الحد ان كنت تأنس من نفسك، واستمر في مواصلة الدرب لعل الله ان يبلغك بكرمه ولطفه الى منازل الْمحسنين، وبإمكانك بلوغ مرتبة الإِحْسَان ان شَاءَ الله، عَلَى الطريقة والكيفية ذاتها التي حصلت فيها على التَّقْوَى، لذلك لا أرى حاجة كبيرة لبحث كيفية الوصول الى مقام الإِحْسَان.

ولكنني عَلَى كل حال سَأُقَدِّمُ إيضاحاً لمفهوم الإِحْسَان.

الإِحْسَان في أَصْل اللّغَة مأخوذ من الحُسْن، ولكن في الإصطلاح الشرعي يطلق على مرتبة عالية في معرفة الله، وهي القمة السامية للسير الى الله تعالى.

الإِحْسَان هِيَ تِلْكَ الْحالة الْمقدّسة الْمرموقة التي اذا بلغها العبد يؤدِّي ماعليه من واجبات الإِسْلاَم على أحسن الأوجه وأفضلها، فتكون صلاته في غاية الْحسن سواء من ناحية الْمظهر، كَقِرَاءَةِ القُرْآن والرّكوع والسجود والتحيّات، أَوْ من الناحية النَّفْسية كالْخشوع والْخضوع والتواضع وتَعْظِيم الله تَعالى، والتَأَمّل في جلاله وامتلاء القَلْب حِياءً منه، كَمَا يَكُون جهاد من بلغ مرتبة الإِحْسَان على أمثل الوجوه وأحسنها، فيضعُ مايملك على راحة يده، ثمناً لإعلاء اسم الله وكَلمته، وإعزاز منهجه، دونَ ان يسأل أَحَدَاً أَوْ ينتظر جَزاءً أَوْ شكوراً، إِلاّ مِنَ الله ذِي الْجَلاَلِ وَالإِكرام.

وَكَذلِكَ تكون أَخلاقه وزكاتُه وحَجُّه وذكره وكل شيئ لَهُ، عَلَى أَحْسَن مايمكن أداؤها، إذاً فَالإِحْسَان حاله حال التَّقْوَى، يشمل سَائِر الواجبات والأَوَامِر الإِسلاَمِية وكذلك يشمل النيات والأقوال والأفعال وسائر مناحي الحياة، لكن هناك فوارق دقيقة تلاحَظُ مابين التَّقْوَى والإِحْسَان:

١- التَّقْوَى خصلة تحفظ الإِنْسَان من الْمعاصي وتشجعه للقيام بالْحَسَنَات، ولكن الإِحْسَان خصلة تحفظ الإِنْسَان من أسلوب مرجوح في عبادة الله، وتضعه على أسلوب أَحْسَن منها.

٢- التَّقْوَى تصبح وسيلة لتخليص الإِنسان من النار وإدخاله الْجَنَّة، ولكن الإِحْسَان يكون من أَجل التسابق الى الْمقامات العلا في الْجَنَّة.

٣- والتَّقْوَى اختصاراً هِيَ العِبَادَة، ولكن الإِحْسَان هُوَ إِحْسَان العبادة، فالشخص الْمُتّقِي دوماً يبذل جهده لاختيار الْحَسَنَة، إذاً خُيِّر بَيْنَهَا وَبَيْنَ السَّيِّئَة، أَما الْمحسن فيحاول اختيار الأَحْسن اذا خُيِّر بين الْحسن والأحسن.

فيا عَزِيزي الْمُسْلِم!

الإِحْسَان "كَمَا مَر سَلَفَا" يكون في كل شيء ويشمل ما دقَّ وجَلَّ، ولكننا سنختتم هَذَا البَحْث بإيراد نصَّينِ من القُرْآن والسُّنَّة، احدهما يشمل العقيدة، والآخر متعلق بتعامل الإِنْسَان مَعَ النَّاس:

الأول: يقول مقتدانا محمد صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عن كيفية الإحسان في الإيمان بالله ومعرفته تعالى: {الإِحْسَانُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ}، رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (٣٦٧)، وَالبُخَارِيُّ برقم: (٥٠)، وَمُسْلِمٌ برقم: (١٠٢)، وَابْنُ مَاجَهْ برقم: (٦٤) وَابْنُ خُزَيْمَة برقم: (٢٢٤٤)،

وَغَيْرِهُم عُمَر بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ، وَهَـذِهِ الْحَالَـةَ لَيْسَت ميسورة التحصيل ولاريب، بل يحتاج الى أمدٍ بعيد بغية الوصول إِلَيْهَا، ولكنها على كل حال ليست مستحيلة الْمنال، وكل من يَكِدُّ ويَجِدُّ من أجلها، يوهَبُها بلطفه تَعَالى.

الثاني: يَقُولُ رَبُّنَا الوهاب: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ آل عمران.

كَثير مِنَ النَّاس تراهم ينفقون في أَوْقَات الغِنى والرّخاء، ولكن قِلّةً مِنْهُمْ يتجاهلون ضِيق ذات أَيدِيهِم، ويقتطعون اللقمة من أَفْواهِهِم وأَفواه ذويهم ليطعموها في سَبيلِ اللهِ!

وأَنْتَ رُبَّما ترى من يَتَغلّب على غَضبِه ويَكْبَحُ جِماحَه، وَلَكِنّكَ نَادِراً مَا تَرى إِنْسَانَاً متغلباً عَلَى غضبه كَابحاً لجَمَاحه ممتنعاً عن الثأر، ثُمَّ علاوة على هَذَا يصفح عمن ظلمه ويعانِقُهُ ويدعو الله ان يصفح عنه.(١)

أَما ختاما فقد بقيت ملاحظة مهمه يلزمنا قولها:

---

١) يروى ان رجلا سب احد العارفين، فسكت العارف حتى اكمل الرجل سبابه فقال له: أخي العزيز! ان كنت صادقاً فليغفر الله لي، وان كنت كاذبا غفر الله لك!

وروي ان رجلاً اخر سب عارفاً ايضاً، فقال له يا اخي! ان كنتُ من أهل النار فانا استحق أكثر مما قلت، وان كنت من اهل الجنة فان شتمك لايضرني، اذهب في أمان الله !

ملاحظة / هذه السجية تستعمل مع المسلمين ولاريب، اما مع الأعداء وخصوصاً اثناء الحرب، فيأتي الدور على قانون آخر وهو: ﴿ ... فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ... ﴿١٩٤﴾ ﴾ البقرة، و: ﴿ ... وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ... ﴿١٢٣﴾ ﴾ التوبة.

ان الذي استقطع اللقمة من فيه وافواه عائلته، لِيُنْفِقَها مرةً أو تَمَكَّن من نفسه، وأخفى غَضَبه وحنقه وعفا عمن اساء إليه مرةً، لايعقل ان يبلغ مرتبة الإحْسَان سراعاً هكذا، اذ ان هذه الْمرتبة تحتاج الى تأصيل تلك الخِصال والْمواقف وتثبيتها في أعماق النفس، حتى تتحول الى عادة، وقد جاء في الْمثل:

لاَيأتي الربيع بِتَفَتّح وردة.

فيا أَهْل الإِيْمَان!

ان الإِحْسَان هُوَ القمة السامقة للإسلام، وليست ثمة مرتبة تلي مرتبة الإِحْسَان ليسمو الْمسلم إِلَيْهَا، وغاية ما هنالك ان (التَّقْوَى) و (الإِحْسَان) دَرَجَات ومراتب شَتَى، فكلما سعى الْمُسْلِم لارتقاء درجاتها كلَّما علا قَدرهُ وسما مَنْزِلُهُ.

الـمَرْحَلَـةَ السادسـة : الإسـتقامـة

أَيُّهَا الْمُسْلِم الكَرِيم!

قُلْنَا "في الْمَرْحَلَة الرابعة" ان الإحْسَان هِيَ الغاية الْمثلى والأَخِيرة في السير الى الله تَعَالى، وانه لَيْسَت هناك مَرْحَلَة أُخرى يمكن للسائِرالى اللهِ بلوغها بعد الإحْسَان، ولكننا جعلنا الإستقامة مرحلة بذاتها في السير الى الله، ليقيننا أن أي عمل لايتم تحقيقه إلاّ بِهَا.

نَعَمْ، فالإِنْسَان لايبلغ مُناه ولا تُثْمِرُ جهوده الاّ بالصمود والثبات والصّبر وطول النَّفَسِ.

وَلِذلِكَ أَشاد اللهُ تَعَالى في محكم تنزيله بالصابرين والْمستقيمين، فَقَالَ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ...﴿٣١﴾ ﴾ فصلت.

كَمَا أَمر تعالى في غير موضع من كتابه الْمبارك، نَبيِّهُ عَلَيْهِ السَّلاَم بالإِستقامة، فَعَلَى سَبيلِ الْمِثَال، قَالَ: عَزّ من قائل: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ...﴿١١٢﴾ ﴾ هود.

وَيَقُولُ نَبِيِّنَا صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: {أَحَبُّ الأَعْمَال إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ} رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (١٨٦٦)، عَنْ عَائِشَةَ رَضيَ اللهُ عَنْهَا.

فيا أَيُّهَا الْمُسْلِم الْحَبِيب!

لاتدخرنَّ وسعاً ان تكون صابراً ومستقيماً وخذ العبرة واتعظ من:

١- قطرات الْماء التي لاتعرف السكون ليلاً ونهاراً، تتقاطر حَتَّى تُثْقِبَ الحَجَرالصَّلد في النهاية !

٢- ومن قطرات الْمَطَر الصغيرة التي تتكون مِنْهَا الأَنْهَار العَظِيمة، والفياضانات التي تكتسح القرى والْمدن !

٣- ومن النمل التي تَمْلأُ بفضل جِدها وعملها الدؤوب مخازِنَها بالقمح، وتُدَّخرها لوقت حاجتها!

٤- ومن النحل التي تدب فيها الحركة والنشاط والحيوية، وتصنع بأعضائها بالغة الدقة، الشموع الملأى بالعسل من رحيق مئات الأزهار والنباتات المختلفة، والعرب تقول: مَن جَدّ وجَدَ، ومن صَبَر ظَفَر.

ثلاث ملاحظات مهمة حَوْلَ مَرَاحل السير الى الله:

الأولى: ليست مراحل السير الى الله والتزام طريق الصلاح محصورة فيما أوردناهُ آنفاً، ولكن بها ان العلماء ورجال التربية والتصوف، لم يتفقوا فيما بينهم على عدد معين من المراحل،[1] الواجبة قطعها، كما واختلفوا حول ترتيبها وبعض حيثياتها، ولكنهم اتفقوا من حيث الجوهرو الْمضمون، على مراحل السَّير الى الله تعالى ونَيل الصلاح والتزكية، فقد رأيت استناداً الى تجربتي وبعد التَثَبُّت والتأمُّل، أنَّ تلك الْمراحل كلها يمكن اختصارها في الْمراحل الست التي أوردتها في الفصول السابقة، قصداً للتسهيل وتقريباً للمعاني الى ذهن القاريء، وبتضمينها جُلَّ المواضيع الْمذكورة في كتب العلماء والعارفين، فأن هذه الْمراحل التي مرت معنا، تُغْني عن كل ذلك بإذْنِ الله.

الثانية: تَكْمُن أَهمية المراحل الست والتي تشكل "بحق" الأُسس القويمة لطريق الصلاح والسير الى الله، كما يبدو في هذا الكتاب، في ان الْمُسْلِم والسالك الأريب الى الله، بعد أن يُفيقَ من رقدة الضلال والعصيان بتوفيق من الباري جَلَّ شأنه، تدفعه نفسه وضميره الى مراجعة ذاته والأوبة الى خالقه، ثم يلحظ أسفاً أنه لايكون بإمكانه أن يطأ محراب العبادة والتوجه الى الله، وهو لابس ثوب الخطايا الدَّنس، وهنا يقرر تطهير نفسه بماء الندم والرجوع الصادق الى الله تعالى، وهكذا يتَخَطّى مرحلة إصلاح الذات والسير الى الله، ألا وهي التوبة.

---

١) يقول ابن القيم "رحمه الله" الذي يعد من اوفى تلاميذ العالم العارف الثائر(ابن تيمية) في كتابه: (مدراج السالكين – شرح منازل السائرين) والذي يعتبرفي نظري افضل كتاب في التصوف الحقيقي الملتزم بالقرآن والسنة: (وقد تحدث الناس في صفة المنازل وعددها، فمنهم من جعلها ألفاً، ومنهم من جعلها مائة ومنهم من زاد ونقص، فكل وصفها بحسب سيره وسلوكه)، انظر: المدار،ج المجلد: (١)، ص: (١٢٢).

وبعد ان يتطهر، يشدُّ أحزمة السفر للإنطلاق، لكنه يتبين بأنَّ الطريق وعر وصعبٌ، تتناثر على قارعته الحُفَرُ والعوائق، ويتربص قطاع الطرق بالسائرين عليه، وهنا يدرك بأَن عَلَيْهِ استكمال مَرْحَلَة أخرى قبل الْمسير، وهي (العِلْم والتبيُّن) لكي يكون سيره على بصيرة، وليس مغمض العينين حافي القدمين، والاّ تعثَّر وزَلَّت به قَدَمُه.

ثمَّ بعد أن تتوضَّح أمام ناظريه صورة الطريق، يتوقف مرة الأخرى ويلتفت يمنةً ويُسْرةً وينظر ماحولَهُ، يوجِّه قلبه نحو قبلة (الإخلاص) والتجرّد لله تعالى، ويمرُّ عبر مرحلة تجريد النية والقصد لله، وبعد قطع المراحل الثلاث: التوبة، والعلم والنبيّن، والتجرّد لله، والتي تُمثِّلُ بمجموعها أساس بناء السِّير إلى الله تعالى، لاتبقى سوى مرحلة الشروع ببناء الجدار عَبْرَ مرحلة (التقوى والتحقيق).

وبعد رسوخ قدمه في المرحلة الآنفة الذكر، لايبقى أمام السالك لطريق الله والسير اليه، الاّ ارتقاء سُلّم (الإِحْسَان) الذي يعد اسمى مراتب معرفة الله تبارك وتعالى، وآخر مرحلة للصلاح، ثم التشبُّث بالإستقامة والثبات على درب الإسلام العظيم، حتى يكرمه الله عَزَّوَجَلَّ بمحبوبة الْجَنَّةَ الدائِمَة الأَبَدِية، قيمتها كما قَالَ عزّ من قائل: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ الحجر.

الثالثة: ان الْمغزى من تَخطِّي المراحل التي فصلنا القول فيها، وكلِّ المراحل الأُخرى على طريق السير الى الله، لَيْسَ تخطّيها لذاتها، فنحن عندما نقول مثلاً: قطع السالك مرحلة التوبة، لانَعني بذلك انه ليس بحاجة اليها بعد ذلك، بل غاية ما نرمي اليه ونَودُّ قوله، ان السالك احوج ما يحتاج اليه في

هذه المرحلة، هو: التوبة والإِسْتغفار والندم على مافاته، اما التوبة كحالة نفسية وركيزة أساسية، فتبقى الحاجة اليها أبداً، وهكذا للمراحل الأخرى، وخلافاً لهذا الْمَعنى فَسَيَكُون مؤدَّى كلامنا ان الذي يدخل مرحلة (العِلْم واليَّقين) لايعود بحاجة الى التوبة، والذي يلج مرحلة (الإِخلاص والتجرّد) لم يعد بحاجة الى العلم ....الخ.

وهذا محال، فوق انه يتعارض مع ماينبغي أن يكون عليه الْمُسْلِم، فالْهَدَف هو ما أوضحناه وليس كما يتوهَّمُ من ينظر الى كلا مِنا نظراً سطحياً ولايدقق فيه النظر.

الفصل الثالث

زاد الطـريق
كيف نكتسب الصـلاح، ونسيرُ الى الله
الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ؟!

قرّائي الأَحِبّـــة!

تَبيَّن لنا في الفصل الأَول الْمعاني التي تنطوي عَلَيْهَا تزكيـة الـنَّفس، وسَـردْنا شيئاً من أهميتها ومنزلتها، أما في الفصل الثاني فقد أحَطْنا علماً بالْمَرَاحـل الـتي ينبغي على السالكين عبورها في توجُّههم وسيرهم الى الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد آن الأوان "في هَذَا الفَصْل" أن نسلطِّ الـضوءَ علـى العوامـل والوسـائل التي نتمكن بها من تخطِّي كل الْمَرَاحل لِهَذَا السفر الْمبارك، وان يُصْبِحَ بإمكاننا الحصول على درجة الـصلاح والـسعادة بمرضـاة الله تَعَـالى ولقائـه، وسنـسلط الضوء "بإِذْن الله تَعَالى" على مانريده في هَذَا الفَصْل من خـلال تناولنـا لمواضـيع محددة تمتّ الى هذا الموضوع بِصلة وثيقة، وبوضوح واختصار.

وجدير بالذكر هنا ان جميع تلك العَوَامل والوسائل تَتلخصُ في التَّقْوَى الذي عَدَّه من أحاط بخبايا النّفوس، بخير الزاد وخير اللباس، فَقَالَ عزَّ من قائل: ﴿ ...وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ...﴿١٩٧﴾ ﴾ البَقَرَة، وَقَالَ تعَالى أَيْضَاً: ﴿ ... وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ...﴿٢٦﴾ ﴾ الأَعْرَاف.

فبالزّاد يُؤْمَنُ الجوع والعَطَش واستنزاف القوى، وباللباس يُتَّقى من البرد والحر ومايتضرّر بدنُ الإِنْسَانِ به، ولذلك عدّ ربُّنا الْحَكِيم والْمحيط بكل شيء علماً (التَّقْوَى) خير زاد وخير لِباس للسائر الْمبتغي وجه رَبّه جَلَّ وَعَلا.

وَنَحْن بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى في هَذَا الفصل الذي يعتبر أهم فصل في هذا الكتاب، سنتناول الحديث عن (٥٢) عاملاً مهماً، والتي تشكل زاد السائرين الى الله، وهذه العوامل تجد نفسها بالتالي في دائرة التَّقْوَى الفَسيحة مع ان بَعْضَاً مِنْهَا، رُبَّما كان فيها إعادة او تداخلاً، ولا أَدَّعي "ابتداءاً" الإحَاطة بِسَائِرِ العَوَامِل والوَسَائِل الْمؤدية الى تزكية النَّفْس، ولكنني أَرْجو الله أن أكون مستجمعاً لأهمها وأبرزها .

أولاً: تصحيح العقيدة وتقوية الإِيمان، أَكبَر عامل للتزكية:

نَعَمْ أَيُّهَا القَارِيء الكَرِيم!

إِنَّ أشدَّ العوامل تَأْثِيراً فِي تزكية النَّفْس، بل ان أَساس التزكية وصلاح الإِنْسَان وتقرُّبه من خالقه، يكمن في تصحيح الإِيْمان وتقوية العقيدة وترسيخها، فكما ان الكُفر بكل أشكاله وصوره، معدن الرذائل، فكذلك الإِيْمان عين لا تَنْضَبُ ومصدر الفضائل.

ولهذا نرى ان الله تَعَالى في كَثير من الآيات الْمَكِية والتي تشكل ثُلُثي القُرْآن، يدعو الإِنْسَان الى الإِيْمان ومعرفة ربه وخالقه جَلّ ذكره، ذلك ان الإِيْمان بكل شعبه ومراتبه، هو الْحسنة الأسمى التي تتقدم كل الخصال السامية، فالذي لَمْ يُؤمِن، لا يُعْقَل ولا يستقيم ان يُدعى لأَيِّ شئ آخر، ولا ينبغي أن يُنْتَظر منه خَيرٌ البتة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨ ﴾ الإنفطار.

وَحَتَّى فِي القُرْآن الْمَدَنِي الذي يكثر فيه ذكر التشريعات وإقامة الْمجتمع وتنظيمه، وقبل إصدار أي أمر أَوْ نهي، نرى ان الله تَعَالى يخاطب الْمُسْلِمين بصيغة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ... ﴾، ليثير فيهم هذا الجانب المهم.

ثُمَّ يشرع تَعَالى بعد ذلك في ذكر الحَلال والحَرَام والْحَسَنات والسيّئات:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ...١٨٣ ﴾ البقرة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ ﴾ المائدة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ ﴾ الصف.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ ...٩٥ ﴾ المائدة.

لهذا فمن صميم واجبنا اذا آنسْنا أيَّ تقصير أَوْ نقص في أحدٍ، أن نَتَلَمَّسَ جذوره ونبحث عنه في عقيدة ذَلِكَ الشخص وَإِيْمانه، ونُعْرِض صفحاً عن غير ذلك، لان اعوجاج الْجدار يُعْزَى الى أساسه، وكدرة الْمَاء ناتجة من مصدره!

إِذاً يَا أَخَوَاتي وإِخوَاني!

لِتَكُنْ مراجعتكم لإِيْمانكم وعقيدتكم، وبحثكم وتأملكم للعثور على أي نقص أَوْ قصور يعتريكم، أساساً لتزكية نفوسكم وأَولى وأَهم العوامل التي تعتمـدونها في سفركم الى الله تعالى، والْحصول على أسمى الْمَرَاتب واعلاها، والخلاص مـن جميع الخصال الدنيئة، وَعَبَثاً تحاولون تقويم الجِـدار اذا لَـمْ تتجهـوا الى أساسـه، واني أَرْبأُ بكم أن تُجْهِدُوا أَنْفسَكم في تصفية جدول تَكَدَّر نبعه ومصدره.

ولا يتأتي التقويم والتصفية وتقوية الإِيْمَان والعقيدة، إلاّ عـن طريـق القُـرْآن وَالسُنَّةَ وبفهم علماء السلف وأَئِمَتّهِم، ويجب أن نعيد النظر في مراتب الإِيْمـان وشعبه ومسائله، فنُبادِر دون تلكؤ الى اصلاح وتنمية ما هو بحاجـة لـذلك، وأن نسارع الى سَدِّ أية ثغرة نراها في أَنْفُسنا، ومعلـوم ان العِلْـمَ اذا لَـمْ يتحـول الى عَمَل، والفَهْم اذا لَمْ ينتقل من الرأْس الى القَلْب، لَـمْ يُفِـدْنا ذلِـكَ طَرفـة عـين، والآن لنجعل خاتِمة مانحن بصدده، هَذِهِ الآياتِ الكَرِيْمَةَ من سورة (الإِسراء):

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ
إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا
تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ
ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى
نُفُوسِكُمْۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ
حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ
ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن

رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا
تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ
وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ
نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ
فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ
مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا
﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ
ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ
خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ
كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ
وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ
مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا
مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ الإسراء.

ولنتأمل قَلِيلاً فِي هَذِهِ الآيَات الْمباركة:

لقد وجه الله تعالى للإِنْسَان فِي هَذِهِ الآيَات (٩) أَوامِرَ (١٢) نَهياً، وَهِيَ فِي غالبيتها تشمل جوانب الْحياة فِي شتى صورها للفرد والأُسرة والْمجتمع، سواء من الناحية الْمادية أَوْ الْمَعْنَوِية، ولكنه تعالى بدأها وختمها بالأَمر بالتوحيد، أَي

أَلاّ يَتَّخِذَ غَيْرَ الله مَعْبوداً ولا يُشْرِكَ به شَيْئَاً: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ الإسراء، و ﴿ ... وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ الإسراء.

ويُثيرُ الإنتباه أَنّ الآية الأولى جعلت عاقبة الإشراك الذم والخذلان، اما في الآية الأخيرة الخاتمة لهذه المجموعة، فقد تعينت عاقبة الإشراك بالْهَوَي في جَهَنَّم مَلُومَاً مَدْحُورَاً، ويبدو أن العقاب الأول يخص الْحياة الدّنيا، بَيْنَما اختص العقاب في الآية الأخرة بالآخرة جزاءً وفاقاً.

ونَخْلُص الى أن الإِيْمان والتوحيد هو الأساس الْمتين والعين التي لاتنضب لتزكية النَّفْس، وعلى النقيض من هَذَا فإن الكُفْر والإِشْرَاك باللهِ تَعَالى، هُوَ مصدر الشرور والرذائل جميعاً.[1]

---

١) ملاحظة "ان سلسلة دروس الإيمان والعقيدة الإسلامية" — "في رأيي" والتي تبلغ خمسين درساً وهي مسجلة بصورة مرئية ومسموعة وتعد للطبع، هي أفضل وأوسع مصدر للعقيدة في اللغة الكوردية وأرجو وان يكون فيها خيرٌ كثير لتصحيح العقيدة وتقويتها لدى عموم المسلمين الكورد، وجدير بالذكر انني استندت في تلك السلسلة بعد الكتاب والسنة اللذين هما الأصل والأساس، الى مجموعة من المصادر منها: (شرح أصول أعتقاد أهل السنة والجماعة) لللالكائي و (الأسماء والصفات) البيهقي و(السنة) لابن ابي عاصم و(الشريعة) للآجري و (شرح السنة) للبغوي و(مجموعة الفتاوى) لابن تيمية، وتفاسير: الطبري وابن كثير والشوكاني وفي ظلال القُرآن والصحيحين للبُخَارِي وَمُسْلِم وشرحيهما لابن حجر والنووي، رحمة الله على جميع علمائنا وأجزل ثوابهم.

والآن ٢٢ رمضان ١٤٣٢، أقول: الحدلله الذي بنعمته تتم الصالحات، قد طبع كتاب: (الإيمان والعقيدة الإسلامية في ضوء القُرآن والسنة) في ستة مجلدات، قبل أربع سنوات من الآن.

ثانياً: معرفة أَسماء الله الْحُسْنَى وَصفاتهِ العلى والتفاعل مَعَهَا:

ان التأمُّل في صفات الله تَعَالى حَال العِبَادَة أَوْ عِنْدَ الْحالات الإِعتيادية، لَهَا أَعْظَم الدور في تصفية النّفس وتزكيتها، والتحليق في سماء الفضائل ومكارم الأَخْلاق والتقرّب إلى الله تعَالى، قَالَ الله تَبارَكَ وَتَعَالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ...﴿١٨٠﴾﴾ الأعراف.

وَالنَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ: {إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِسْمًا مِائَةً إِلاَّ وَاحِدَاً، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، إِنَّهُ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ}، رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (٧٤٩٣)، وَالبُخَارِيُّ برقم: (٢٥٨٥)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٦٩٨٦)، وَغَيْرهُم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد حدَّد النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ في حَدِيث آخر رَوَاهُ التِّرمِذِي وَابْن حِبَّان وَابْنُ خُزَيْمَةَ وَالْحَاكِمُ وَالبَيْهَقِي وَابْنُ مَاجَهْ، تِلْكَ الأَسْمَاء الّتي نوردها فِيمَا يلي:

١- الرَّحْمَنُ		الرَّافِعُ
الرَّحِيمُ		الْمُعِزُّ
الْمَلِكُ		الْمُذِلُّ
الْقُدُّوسُ		السَّمِيعُ
السَّلامُ		الْبَصِيرُ

الْمُؤْمِنُ		الْحَكَمُ
الْمُهَيْمِنُ		الْعَدْلُ
الْعَزِيزُ		اللَّطِيفُ
الْجَبَّارُ		الْخَبِيرُ
الْمُتَكَبِّرُ		الْحَلِيمُ
الْخَالِقُ		الْعَظِيمُ
الْبَارِئُ		الْغَفُورُ
الْمُصَوِّرُ		الشَّكُورُ
الْغَفَّارُ		الْعَلِيُّ
الْقَهَّارُ		الْكَبِيرُ
الْوَهَّابُ		الْحَفِيظُ
الرَّزَّاقُ		الْمُقِيتُ
الْفَتَّاحُ		الْحَسِيبُ
الْعَلِيمُ		الْجَلِيلُ
الْقَابِضُ		الْكَرِيمُ
الْبَاسِطُ		الرَّقِيبُ
الْخَافِضُ		الْمُجِيبُ

الْوَاسِعُ		
الْحَكِيمُ		الْمُقْتَدِر
الْوَدُودُ		الْمُقَدِّمُ
الْمَجِيدُ		الْمُؤَخِّرُ
الْبَاعِثُ		الأَوَّلُ
الشَّهِيدُ		الآخِرُ
الْحَقُّ		الظَّاهِرُ
الْوَكِيلُ		الْبَاطِنُ
الْقَوِيُّ		الْوَالِي
الْمَتِينُ		الْمُتَعَالِي
الْوَلِيُّ		الْبَرُّ
الْحَمِيدُ		التَّوَّابُ
الْمُحْصِي		الْمُنْتَقِمُ
الْمُبْدِئُ		الْعَفُوُّ
الْمُعِيدُ		الرَّءُوفُ
الْمُحْيِي		مَالِكُ الْمُلْكِ

الْمُمِيتُ		ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ
الْحَيُّ		الْمُقْسِطُ
الْقَيُّومُ		الْجَامِعُ
الْوَاجِدُ		الْغَنِيُّ
الْمَاجِدُ		الْمُغْنِي
الْوَاحِدُ		الْمَانِعُ
الأَحَد		الضَّارُّ
الصَّمَدُ		النَّافِعُ
القَادِر		النُّورُ
الْهَادِي		الوَارِثُ
الْبَدِيعُ		الرَشِيد
الباقِيّ		الصَّبور

تَنْبِيهَات حول أسـماء وصِفَاتِ اللهِ تَعَالـى:

١– مِما مر معنا آنفا، يظهر ان لفـظ الجَلاَلَـة (الله) لَـم يحسب ضـمن التِـسْعَة والتِسْعِين اسْمَاً، وإلاّ لبلغت الْمِئـة ... وهـذا هـو الـصواب لأن الحـديث استهل بـ(أَنَّ لِلّهِ ...)، اذاً فكـل مـاعطف على لفـظ الجلالـة، انمـا هـي صفات لله عَز وجل، وهي في الوقت ذاته .

٢- مَعْنَى قَوْلِهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: {فمَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ} على قول أَكثر أَهْل العلم، هو حفظها وفهمها وتدبُّرها والعمل بمقتضاها، وتطبيق الْمعاني الْمنطوية تحتها، فيما يمكن للإنسان تجسيدها في نفسه.

٣- ان تأثير أسماء الله الحُسنى وصفاته العُلى في اصلاح الإِنْسَان وتقريبه من اللهِ جل في علاه، نابع من كونه "جل ذكره" يجب ان يمتدح بتلك الأَسْماء والصفات، وكلما استقرت معانيها في قلب الإِنْسَان وفكره وأوغل في التأَمل فيها، كلما زاد تأثيرها على قلبه ونفسه، وأَيْنَعَتْ بسببها براعم الْخِصَال الْحميدة والأخلاق العالية.

اذاً: فمن تاقَتْ نفسه لاكتساب عامل من أَهْم عوامل الصلاح والسير الى الباري جل جلاله، فَلْيَعْمِدَ الى حفظ تلك الأَسْمَاء والصفات بصورة جَيِّدة، وتدبر وعمق في التأمل، وأن يدعو بها ربه أثناء دعائه وتضرعه، والْمُهم هو التفكيرفيها وتحقيق معانيها التي يمكن للإنسان تحقيقها، مثل:

(العَلِيمُ، الْحَكِيمُ، الرؤوف، الرَّحِيم، العَزِيز، الْحَلِيم، العَفو، الغَفُور، الصَّبُور، الشكُور) ذلِكَ ان الإِنْسَان يجوز ان يكونَ عالماً، ذا حكمة، متصفاً بالرّحمة والْحِكْمَةَ، مُصْفِحاً مائِلاً للتغاضي عن الإساءة ...الخ.

ثالثاً: صلاح الدّين والدّنيا والآخِرة والحياة والْمَوت:

وهذه خَمسة عوامل و وسائل بالغة الأهمية في مجال التزكية والصّلاح، يقول مُقْتَدَانَا مُحَمَّد صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ في دعاء له: {اَللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي اَلَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ اَلَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي اَلَّتِي إِلَيْهَا مَعَادِي، وَاجْعَلْ اَلْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلْ اَلْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ}، رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٧٠٧٨)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

نعم أَيُّها الْمُسْلِم الْحَبيب!

هكذا كان دعاؤه صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لِرَبّه، لصلاح:

١– الدّين.

٢– الدّنيا.

٣– الآخِرة.

٤– الحياة.

٥– الْمَوت.

ولايخفى ان الْمقصود بصلاح الدّين، هو صلاح تديُّن الإِنْسَان وحسن التزامه بالإسلام والإجادة والإتباع في تدينه، والْمَقصود من صلاح الدّنيا، أن يعيش الإِنْسَان حراً كَرِيْماً مُسْتَغْنياً متصفاً بالسكينة، اما صلاح الآخرة فلا يتم الاّ بأن يكون الإِنْسَان في حياته الدنيا صالِحاً من دنياه، وعندما يكون الإِنْسَان شَدِيد الإنشغال بعبادة ربّه يَحُثَّ الخُطى في السير إِليه لا يعرف الوهن، حين ذلك سَتَكُون حياته خَيْرَاً وبركة، وعندما يقضي الإنسان حياته هكذا، أي عابداً ذائقاً حلاوة العبادة، أبياً معافىً، فسيصبح الموت راحة له من كل هَمّ وأماناً من كُل توجس، وان أساس تزكية النفس وشرطها يَكْمُنُ في العبادة لله والإنقياد الصادق لدين الله تَعَالى، والإلتزام الذِي لاتَشوبه شائبة، ولايتحقق ذلك الاّ بحياة ملؤها العافية والكَرَامَةَ في هَذِهِ الدنيا، فتحقيق التدين مرتبط بحياة متوافق مع شرع الله تعالى.

وبهذا نخلص الى ان الذين يظنون تزكية النفس غيرمتحققة مع الإنشغال بأمور الحياة التي لاغنى للانسان عنها، والْمُؤطَّرة في إطار الشرع، واهمون ومجافون للصَّواب، وعلى العَكْس تَمَاما فلسعادة الآخرة مرتبطة بالْحياة الْهانئة

ومُسْتَتْبِعَةٌ لها، دَلَّ عَلَى ذلِكَ العَقْلُ وَالشَّرْعُ مَعاً، قَالَ تَعَالى: ﴿ ... رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾ البقرة.

رابعاً: ثالوث: الصَّبر والشكر والتَوَكّل:

وَمِما يعتبر من الدعائم الأَسَاسِية لإصلاح الإِنْسَان وتَقَرُّبه من مولاه جَلّ وَعَلا:

١- الصَّبْر: ﴿ ... إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ الزمر.

٢- الشكر: ﴿ ... لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ... ﴿٧﴾ ﴾ إبراهيم.

٣- التَوَكّل: ﴿ ... وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ... ﴿٣﴾ ﴾ الطلاق.

وسنسلط الضوء على هذه العوامل كلٍّ على حدة:

- الْمَقصود بالصَّبر هو التحمل والثبات حيال الطّاعَات والْمعاصي والْمصائب، فأَمّا الأولى فللقيام بها حَق القيام، وأَمّا الثانية فلتجنّبها والتحرّز مِنْهَا، وَأَمّا الثالثة: فللصمود بوجهها وعدم الإستسلام لَها، أَوْ حصول السآمّة والملل بسببها.

- والْمَقصود بالشكر هو استعمال ماحَباكَ الله به من النِّعم والْمواهب، في مرضاته وَلَيْسَ مجرّد التلفظ بـ(الْحَمْدُ لله) الذي تمثل الثناء على الله تَعَالى، وهو جُزْءٌ من الشكر فَقَط.

❁ والتَوَكّل هو الإعتماد على الله والوثوق التام به وحده، رغم اتخاذ الأَسْبَاب والسعي الْجادّ وأن يعتقد الْمرءُ أن كلّ شيء متوقف على مشيئة الله جَلّ وَعَلا، وجوداً وعدماً كما جاء في دعاء القنوت: (لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ)، وقد اعتبر الصَّبر والشكر والتوكّل، ثالوث الصلاح والسير الى الله لأَنَّهُ:

من منطلق الصّبر في ميدان التديّن نغدو متصفين بالثبات وطُوُلِ النَّفس، والإستعصاء على الإنحراف في ميادين الإصلاح ومجانبة الآثام والتحمل على الشدائد، ولذلك لَمْ أَرَ في القُرآن قط ان الله تعالى وعد غير الصابرين ان يجزيهم بغير حساب: ﴿...إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ الزمر، وبسبب الشكر نستحق استدامة إفضال الله تعالى ونعمه: ﴿...لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ...۝٧﴾ إبراهيم.

وفي ظل التوكل ينجينا الله تعالى من هموم الدنيا والآخرة ويتولّى الله تعالى أمورنا بنفسه: ﴿...وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ...۝٣﴾ الطلاق.

نَعَمْ أَيُّها الْمُسْلِم الكَرِيم!

بالصَّبر تصبح واثق الخطى، وبالشكر تزداد عليك نعم الله تَعَالى، وبالتوكّل عَلَى الله تهنأ بالأمان والنجاة من هموم الدنيا والآخرة.

خامِساً: عَشرٌ من وسائل ومستلزمات السير إِلى اللّهِ تَعَالى:

قارئي العَزِيز!

مما هو معلوم وبادٍ للعيان ان الخالق جل في علاه، يُدَبِّرُ حياتَنا والكون بِرُمَّتِه؟، وفق قانون السبيّة، اذاً لتحقيق أمرٍ ما لابد من إيجاد أَسبابه وعوامله التي تتوقف عَلَيْهِ.

وموضوع الصلاح والسير الى الله تعالى وهو أَعْظَم عملٍ يمكن القيام به أَيضاً بحاجة الى الوسائل الْمتعلقة به، والتي بدونها يستحيل تحقيق ذلك، ونَبيُّنا ومقتدانا الحبيب مُحَمَّد صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يرشدنا ويُبَيِّن لنا في أحد أحاديثه القيمة، عشرة من الوسائل الأساسية والمهمة، والذي يجب علينا سؤالها من الله تَعَالى أَثناء دعائنا وضراعتنا إليه جل وعلا.

وَهَذَا هُوَ الْحَدِيث:

{اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُك الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُك شُكْرَ نِعْمَتِكَ، حُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُك قَلْبًا سَلِيمًا، وَلِسَانًا صَادِقًا، وخُلُقاً مستقيماً، وَأَسْأَلُك مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُك لِمَا تَعْلَمُ}[1]

---

١) رَوَاهُ النَّسَائِي برقم: (١٣٠٤)، وَأَخْرَجَهُ الحَاكِمُ برقم: (١٨٧٢) (وخُلقاً مستقيماً) من روايتِهِ، وَقَالَ: صَحِيح عَلَى شَرْطِ مُسْلِم، أنظر: (تحفة الذاكرين) للإمام الشوكاني، ص٢٨٥، وَضَعَّفَهُ الألباني في (المشكاة) برقم: (٩٥٥) وفي (ضعيف سُنن الترمذي)، ولكن صَحَّحَهُ في (السلسلة الصحيحة) برقم: (٣٢٢٨).

وَهَذَا الْحَدِيث "كما ترى أيها القاريء الحبيب" مكون من أَرْبَعَة مقاطع تبدأُ كلٌّ منها بـ(أَسْأَلُك)، وقد وردت في تلك الْمَقَاطع وسائل عشر للصلاح والسير الى الله تَعَالى:

ورد في الْمَقطع الأول الوسيلتان الأولى والثانية، وهما الثبات في إدارة الأمور، والعزم على اختيار الحق، ولاريب ان الثبات والعزيمة أساسان ضروريان لكل عمل، وخاصة مراجعة النفس والأوْبة الى الله تعالى.

اما في الْمَقطع الثاني فقد وردت الوسيلتان الثالثة والرابعة، وهما عبارة عن شكر الله تَعَالى عَلَى نِعَمِهِ والعِبَادة الْحَسنة، ومعلوم أن هاتين أَيضاً تُشَكِّلان الزاد ومصدر الطاقة للسالك على طريق السيرالى الله تعالى.

وأما في الْمَقطع الثالث فقد وردت الوسائل الخامسة والسادسة والسابعة، ألاّ وهي: سَلامة القلب، وصدق اللسان، واستقامة الخُلق، ولايخفى أن هذه من أَهمِّ عوامل الإستقامة والسير على الطريق المنشود للسالك، فهي بمثابة المركب الذي يحمل له زاد الطريق ومايحتاجه المُسافر في سفره، ولايفوتنا ان نذكر ان القلب كلما كان سليماً ومطمئناً، كان اللسان صادقاً وطاهراً، وبدون القلب السليم، لايمكن الحصول على اللسان الصادق، أَوْ الخُلُق الحسن.

وفي الْمقطع الرابع وهو الختام ذكرت الوسائل الثامنه والتاسعة والعاشرة، وهي: عبارة عن ثلاث وسائل مهمة كالْمُظلة والدرع والْمعطف التي تتقى بها الحر والبرد والسِّباع وقطاع الطريق، وهي:

١- سؤال الله تعالى من خَير مايعلم.

٢- والإِستعانة به من شر ما يعلم.

٣- والإِستغفار من كُل الذنوب التي يحيط الله تعالى بها علماً.

هَذَا وأَدعو الله جل في عليائه أن يَهَبَنا بِلُطفه وكَرَمه هذه الوسائل والأُسس الْمهمة كي نَغُذَّ السير اليه تعالى.

سادساً: عَشرةُ أسس مهمة للسير الى الله تعالى:

ذكرنا آنفا "في ضوء حديث لِلْنَّبِيّ الكَرِيم صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ" عشر وسائل مهمة للصلاح والسير الى الله تعالى، وهنا سَنُلقي الضَّوء على حديث آخر لِلْنَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وسَنُخرِجُ منه عشرة أسس مهمة أخرى.

يقول الرسول صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ في حَدِيث عُدّ سَيّد الإِسْتغفار:

{اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، وَأَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ}(١)

قبل الشروع في استخراج الأُسسس التي ذكرت من بحر هذا الحديث الْمملؤ بالدرر النبوية، أجِدُ من الْمناسب أَن أَعْرِضَ حقيقة ناصعةً للقارئ الكريم، فَأَقُولُ:

كَمَا ان البحار والمحيطات مليئة بالصيد والدرر الثمينة، ويغدوعلى ظهرها الناس ويروحون ولايستفيد من تلك الدرر والأصياد الاّ الغواصون والصيادون المهرة، فكذلك آيات القُرْآن وَسُنّة النَّبِيِّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ تزخر بالحِكَم والعلوم النافعة، وَلَيْسَ بالضرورة ان يحيط علماً بمعانيها ودقائقها كل من حَفِظَ القُرْآن ومعاني كلماتها، بل إضافة الى وجوب الْمَعرفة التامة باللّغة والأدب

١) أَخْرَجَهُ اَلْبُخَارِيُّ برقم: (٥٩٤٧)، وَأَبُو دَاوُدَ برقم: (٥٠٧٠)، وَابْنُ مَاجَهْ برقم: (٣٨٧٢)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (١٠٣٥)، وَالحَاكِمُ برقم ١٨٩٦) عَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ باختلاف يسير.

العربي، لابدَّ من وجود شرط مهم آخر للإحاطة بمعنى القُرْآن، ألاّ وَهِيَ: (التَّقْوَى) وَلِذلِكَ يَقُولُ تَعَالى:

﴿ ... إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ... ﴿٢٩﴾ ﴾ الأنفال، ومادام الأَمر كذلك فلنحاول جاهدين أن نعمق في أنفسنا صفة التَّقْوَى، لتتقوى بصيرتنا ويتنور الدرب أمام أعيننا.

والآن لنعد الى أصل الْموضوع ونعرض الأسس التي وعدنا بذكرها:

١و٢) الإقرار بألوهية الله تعالى وربوبيته: (اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ) ومن الجليِّ ان اعتبار الله تعالى إلهاً عظيماً ورباً مَعْبُودَاً مُنَزَّهاً عن العيب، يعتبر أعظم الحقائق الكونية، وهي بالتالي من أَعظم مراتب السير الى الله تعالى.

٣و٤) الإقرار بخالقية الله تعالى وعبودية العبد (خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ).

وهاتان أيضا حقيقتان أساسيتان، وقاعدتان مهمتان للنصر والوصول الى الغاية الموجودة للسائل.

٥) إعلان الثّبات على العهد والوعد ما استطاع العبد الى ذلك سبيلاً، (وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ).

نعم فتجديد العهد مع الله تعالى شرط وأساس غاية في الأهمية لمن سلك طريق التوبة.

٦) الإستعاذة واللياذ بجناب الله تعالى من شرور النفس: (أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ).

وهذه كما أنها هي وسيلة السير الى الله، فهي ذاتها أساس مهم لذلك السفر الميمون والمحفوف بالمخاطر أَيْضَاً.

٧و٨) الإقرار بنعم الله تعالى، والإعتراف بذنوبك التي اقترفتها: (أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي).

وَقَدْ وَرَدَ فِي أَثَرٍ إلَهِيّ يَقُولُ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ للإنسان: {ابْنَ آدَمَ مَا أَنْصَفْتَنِي، خَيْرِي إِلَيْكَ نَازِلٌ وَشَرّكَ إِلَيَّ صَاعِدٌ}.

٩و١٠) الإستغفار من الله تعالى، وقطع الرجاء عمن سواه: (فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ) ان طلبنا الغُفران من الْمولى جل وعلا، أمر في غاية الأهمية، والأهم من ذلك ان تؤمن ان غيرالله سبحانه لا يمكنه تخليصك من ذنوبك التي تُثْقِلُ كاهِلَك، وهذا يُمَثِّلُ فارقاً أساسياً بين الْموحِّدين والْمُشركين، فالموحدون يعلمون ان ستر الذنوب والعفو، كما هو الحال مع الخلق والرزق، هو من صِفَاتِ الله تَعَالى التي لا يشاركه أحد فيها البَتّة.

أما الْمُشركون من عبدة الأصنام، والنَّصَارَى من عُبّاد الْمَسِيح، أَوْ بعض جهلة الـمُسْلِمين والتائهين من الشيعة والسُنَّة الذين يأملون من شيوخهم وأئمتهم ما يأملونه من الله تعالى من غفران الذنب والخلاص من وضر الآثام، ان هؤلاء وكلَّ من وقع في قليل أَوْ كَثير من تلك التصورات والْمعتقدات، فقد وقع في مستنقع الشرك الآسن، ولا شك أن وصف أحد الـمخلوقات بصفة "أَوْ أَكْثَر" من صِفَات الله تعالى هو شِرْك، بَلْ هُوَ شِرْك أَعْظَم، أي من النوع الذي لايشمله عفو الخَالق جَل وعلا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ... ﴿٤٨﴾ ﴾ النساء، ولكن علينا ان نكون على جانب عظيم من الحذر، وأن نوقن تماماً من تحقق شروط التكفير وانتفاء موانعه، قبل أن نُطْلِقَهُ على أحد، وهذا ما اصطلح العلماء بتسميته بـ: (ثبوت الشروط

وانتفــاء الـموانع)[١]، وعلى هذا فليس كل من كان فيه كفر أصبح كافراً، أَوْ مَن سُمِعَ مِنْهُ أَوْ رؤي فيه شِرك كَانَ مُشركا بالـضرورة، ولـذلك قـال علمائنـا وأئمتنا من امثال الشيخ ابن تيمية رحمه الله: (قَدْ يَكُونُ قَول الرجل وفعله كفـراً أَوْ شركاً، وَلاَ يَكُون هُوَ كَافِراً أَوَ مُشْرِكَاً).

سَابعَاً: عَوَامـل عَامـة وهامـة تعـين علـى الـصلاح والـسير الى الله تعـالى، وَهِيَ خمسة عَشر عاملا وبالترتيب الآتي:

١- الصَّــلاَة:

يَقول تَعَالى عن الصَّلاَة الّتي تعد إقامتها أَعْظَم أنواع العبادة الشخصية، وهـي الحد الفاصل بين الإِيْمان والكفر: ﴿ ...وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ ﴾ طـه، وهي عامل ووسيلة من أَهم وأَعْظَم وسـائل الـصلاح والـسير الى البـاري جـل شأنه، ومادام الأمر كذلك، أَيُّهَا الْمُسْلِم الْحَبيب!

فَلاَ تَدَّخر وسعاً في الحفاظ على الشروط الْمتعلقة بهيئة الـصلاة وأَساسـياتها، ولا تكتفين بالصلوات الْمكتوبة وحسب، بل شَمِّرْ عن ساعد الجِدّ، فـلا تـدعن صلاة من صلوات السنن تفوتـك، اخـص بالـذكر الرواتـب والـوتر والتهجُّـد والضحى، وحاول جَاهِدَاً أن تُـصلِّي الفَـرائض في الْجَمَاعَـة، فَقَـدْ اعتـبر أَكْثَـر العُلَماء صلاة الْجَمَاعَة فرض كفاية، ان لَمْ يعتبروها فرض عيـن.[٢]

---

١) تحدثنا حـول هـذا الموضـوع في كتـاب: (الإيمـان والعقيـدة الإسـلامية...) في المجلـدين الأول والسادس.

٢) في كتابنا: (العبادة الإسلامية) في المجلد الأول منه، أشبعنا الكلام في مسألة الصلاة ومـا يتعلـق بها من مسائل.

٢- الذكـــر:

ذكر الله تعالى بالقلب واللسان، بعد الصلاة، يعد من أكثر العوامل الْمقرِّبة الى الله تَعَالى والْمُطَهِّرة للإِنْسَان، وأَهْل العِرْفَان يقولون: (الذكر مَنْشور الولاية).

وقد أمر الله تعالى في العديد من مواطن القُرْآن الكَرِيم أن نذكره، مَثَلاً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ الأحزاب.

ولا يخفى ان لذكر الله تعالى أصناف متعددة يليق كل منها بموطنه، فذكر: (أَسْتَغْفِرُ اللّٰهَ) يشرع في حالة التوبة والإحساس بالذنب، وذكر (الْحَمْدُ لِلّـهِ) للثناء على الله تعالى، وذكر: (حَسْبُنَا اللّـهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) لأوقات الشدة والخوف و....الخ.

وبطبيعة الحال فأن المعاني الحقيقية للذكر أَوسع من ان تنحصر في مجرد النطق بها ... وقد فصَّلنا القول في هذا غير هذا الموضع[1].

٣- قِـرَاءَة القُـرْآن:

تُعَدُّ قِرَاءة القُرْآن من أَعْظَم أَنْوَاع الذكر، بل هو أَعْظَم حَتى من قول: (لاَ إِلَهَ إلاّ اللّهُ) التي تعد أَعْظَم كَلِمَةَ عَلَى الإِطْلاَق، كَمَا قَالَ رَسُول الله: {أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لاَ إِلَهَ إلاّ اللّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ برقم: (٣٥٨٥)، وَمَالِك برقم: (٥٠٠)، وَصَحَّحَهُ الألباني في (الْمشكاة) برقم: (٢٥٩٨)، وخصوصاً

---

١ - انظر كتابنا: (ذكر الله) الجزء الاول الطبعة الاولى / ١٩٨٧ وانظر أيضاً: (العبادة الإسلامية) المجلد الرابع، حيث فَصَّلنا القول فيه عن أنواع الذكر.

لـمن يعقل معانيه ويتدبر آياته، يقول عز من قائـل: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ...﴿٢٧﴾ ﴾ الكهف.

واعلم انك لا تفهم أوامر الله ولا تعقلها، الاّ بِقَدر معرفتك بـه وقربـك منـه تعالـى.

٤- الصَّـوْم:

يقول جـل جلالـه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ البقرة.

نَعَمْ ان الإِنْسَان ببركـة صـيامه يكـبح جِمـاح نفـسه ويأخـذ بزمـام نزواتهـا وغرائزها الْمنفلته، ليتحكم فيها العقلُ والرُوح.

فيا أَيُّها الـمُسْلِم المتشوق الى التزكيـة والكمـال والـسير الى باريـك! اجعـل الصيام سُلّماً ترتقي به الى ربك جل وعلا، فتكـون أقـرب الى الْمَلاَئِكَـة وأبعـد ماتكون من الشياطين.

صم شهر رَمَضَان، وَهَذَا فَرْض مِنَ الله عَلَيْكَ، وصم بعده يوماً وأَفطـر يومـاً، الذي قَالَ فِيهِ النَّبِـيُّ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَم: {صُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا وَذلِكَ صِيَامُ دَاوُدَ - عَلَيْـهِ الـسَّلاَمُ - وَهُـوَ أَعْـدَلُ الـصِّيَامِ} "وفي روايـة" {هُـوَ أَفْـضَلُ الصِّيَامِ}[1]، فإن لم تستطع، فعليك بصيام الإثنين والخميس مـن كـل اسـبوع، ولكن لا أقل من ان تصوم من كل شهر ثلاثة أيام، والأفضل ان يكـون الثالـث عشر والرابع عشر والخامس عشر، والتي تعرف بالأيام البيض.

١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٢٧٨٦).

ومباحث الصيام بحاجة الى تفصيل وبحث أوسع من هذا.[١]

٥- الحَجّ والعُمْرَة: قَالَ جَلّ شأنه:

﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ...﴿١٩٦﴾ ﴾ البقرة، ولكل من الحَجّ والعمرة أَعْظم الأَثر في تطهير الإِنْسَان وتقريبه الى الله تَعَالى، والحق ان كل من هاتين العبادتين تشتملان على أصناف من العبادات في سائر النواحي الروحية والفكرية والأخلاقية والإجتماعية والإقتصادية والسياسية والعسكرية، وذات تأثير على الإِنْسَان في كثير من الجوانب مثل تعميق ايمانه وتزكية نفسه وتربيته، وتفصيل هذا أَيْضاً يحتاج الى موضع خاص[٢].

٦- الإِعْتِكَاف:

وقد أشار والباري تعالى الى الإِعتكاف في عدد من مواضع القُرْآن الكَرِيم، قَالَ تَعَالى:

﴿ ... وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ...﴿١٨٧﴾ ﴾ البقرة.

وقد عرف الفقهاء الإعتكاف بأنه: البقاء في المسجد بنية العبادة وبشروط خاصة، وللإعتكاف دور بارز ومهم في تطهير نفس الانسان وتكامل ايمانه وسيره الى ربه تعالى[٣].

---

١) في المجلد الرابع من كتابنا (العبادة الإسلامية) ورد الحديث عنه مفصلاً.

٢) في المصدر السابق ورد مبحث الحج والعمرة مفصلا كذلك.

٣) في المصدر السابق مبحث وافٍ عن الإعتكاف.

٧- التفكيـر:

التفكيـروالتأمل في الوجود وظواهره العجيبة، وفي النَّفْس والْجِسم وحالاتهـا الـمثيـرة للدهـشة، وفي التـاريخ والحـوادث الـتي تبعـث العبــر، وفي الْمَـوت والقبـر وأحـداثهما الْمُفْزِعـةُ، وفي أسْـماء الله الحُـسْنَى وَصِـفَاته العلـى وآياتـه العُظْمـى ... الخ، زادٌ وأيُّمـا زادٍ، لِمَـن أَرَادَ أن يَتـزَوَّد بـه في سـفره الى رَبّـه تعالى، وقد قال ربنا الوهاب في هـذا الـصدد: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ...﴿٤٦﴾ ﴾ سبأ.

٨- الدعــاء:

يَقُولُ رَبُّنَا الْمُجيب تَعَـالى شـأنه: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ غافر.

نعم فالدعاء الذي هو أعظم وألطف أنواع الذكر (شـريطة موافقـة الـشروط والآداب الواردة في القـرآن والـسنة)، يعتـبر عـاملاً مهمـاً مـن عوامـل تزكيـة النفس، واعْلَم ان المهـم هـو أنْ يُلْهِمَـك الله تعـالى الـدعاء نفـسه، فالإسـتجابة يسيرة، فالله تقدست أسماؤه اذا علّمك دُعاءً، فكن على يقين انه لَمْ يلـقِ ذلِـكَ الدُّعاء في قلبك جُزافاً، بل يريد ان يـسجيب لَـكَ، وَاعْلَـم "كـذلك" ان نـوع دعائك وضراعتك مناسب ولائق بالمستوى والمرحلة التي تريد قطعهـا الى ربـك جل ذكره.

٩- إعانــة الآخريـن:

إِنَّ مَدَّ يَدِ العون للآخرين سواء باليد أَوْ اللسان، أَوْ الْمَال، أَوْ بأية طريقة أخرى، يلعب أَعْظَم دور في اجتياز الطريق الى الله تعالى، وقد تظافرت على هذا المَعنى نصوص القُرْآن الكَريم، قَال تَعَالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٧٧﴾ الحج.

والرسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام يَقُولُ: {وَاللّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ ...} أَخْرَجَهُ أَحْمَد برقم: (٧٤٢١)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٧٠٢٨)، وَأَبُو دَاوُدَ برقم: (٤٩٤٦)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (٢٩٤٥)، وَابْنُ مَاجَهْ برقم: (٢٢٥)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٥٣٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وجدير بالذكر هنا أن الإِنْفَاق والزَّكَاة نوع من أَعْظم أنواعه يُعدُّ أهمَّ أنواع الإِحْسَان الى الناس وله "بالتالي" دور بالغ الأهمية في تزكية النفس وتطهير المال، يقول الله تَعَالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ ... ۝١٠٣﴾ الحج.

١٠- الإخـلاق الفاضـلة:

والأخلاق الحسنة عاملٌ مهم آخر من عوامل تزكية النفس، وزاد من خيرة أزواد السفر الى المولى عز وجل، وَالنَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ صَاحِب الْخُلق العَظِيم يَقُول: {أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيْمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً}، رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (٧٣٩٦)، وَأَبُو دَاوُدَ برقم: (٤٦٨٢)، وَالدَّارَمِي برقم: (٢٧٩٢)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٤٧٩)، وَالحَاكِمُ برقم: (١) وَقَالَ: حَدِيثٌ صَحِيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ

اللهُ عَنْهُ، وَقَالَ الشيخ الأَلباني: حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَيَقُولُ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَيْضَاً: {إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ}، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ برقم: (٤٧٩٨)، وَصحَّحَهُ الأَلباني في (المشكاة) برقم: (٥٠٨٢) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْها.

ملاحظة: نقل الإمام النووي في كتابه (رياض الصالحين)[١] عن التِّرمِذِيُّ عَنْ عَبْدِالله بن الْمُبَارَك انه قَالَ فِي تعريف (حُسْنِ الخُلُقِ): (هُوَ طَلاَقَةُ الوَجْه، وَبَذْلُ الْمَعْروف، وَكَفُّ الأَذَى).

١١- السلامة من الذنوب ظَاهِرَاً وَبَاطِنَاً ومن لَغو الحديث والأَفعال:

يقول تَعَالى: ﴿وَذَرُواْ ظَـٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓ... ﴿١٢٠﴾﴾ الأنعام، ويقول عَزّ من قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾﴾ الفرقان، ولأهمية هذا الموضوع في مشروع تزكية النفس سنسلط عليه مزيداً من الضوء في الفصل الرابع، بإذن الله تعالى.

١٢- الإقلال من الطعام والنوم والكلام والإختلاط بالناس:

منذ سالف الأزمنة دأب العلماء العارفون من ذوي القلوب الواعية على القول: ان السالك لايُرْتَجى منه خيرٌ اذا لَمْ يُحْكِمْ سيطرته على أَرْبَعَة أمور:

١- الأكل والشرب.

٢- النوم.

٣- الكلام.

١) انظر: (رياض الصالحين)، ص: (٢٢٩).

٤- الإختلاط بالناس.

فهذه الأمور لاريب كما أنها هي مطالب اساسية للحياة، فهي "أيضاً قد تكون" اذا لم تُضبَط بضابط الشرع، مصادر للشرِّ والمعاصي والإستزادة منها تؤدي الى تخطِّي الحدود.

نَعَمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمِ الْحَبِيب!

الجوع ومجافاة النوم والصمت والعزلة،[1] عوامل ووسائل شديدة الأهمية وواجبة لمن لا يرتضي عبادةً ساذجة، كما يفعله عوام الناس، ومن كانت نفسه تتوق الى السعادة بلقيا الله تعالى جل وعلا، وَكَذِلِكَ نفهم من مجمل نصوص القُرْآن السنة ان الإقلال من الطعام والنوم والكلام ومخالطة الناس، أمور حسنة مُرَغّب فيها على انه تَجِبُ مراعاة مجموعة من الشروط في هذا الصدد، ومن ذلك:

١- لا يجوز ان يبلغ الإقلال من الطعام والمنام مبلغاً يؤدِّي الى هزال الانسان ومرضه، الا في حالات نادرة جداً، لتربية النفس وكبح جماحها، وحتى في تلك الحالة أيضاً ينبغي أن يكون هناك إِطارٌ معقولٌ وألاّ يترجَّح ضَرَرُهُ على نفعه.

٢- يجب الاّ يشمل صُمْتُهُ، الصُّمْتَ بوجه الباطل، أو أن يُصبح كالِحاً غير مستساغ عند الناس، بل يجب أن يحصر صمته في منع لسانه من الخوض في الباطل وسَقَطِ الكلام.

---

١) المقصود هنا (مجاهدة النفس) والاّ ففي الحالات الإعتيادية يتم التعامل مع هذه الأمور بصورة اعتيادية، مثل المريض الذي يمارس الحمية ويتناول الدواء حين مرضه وعندما يتماثل للشفاء، يُقْلِعُ عن الحمية وتناول الدواء، ويعود لحياته المعتادة.

٣- يجب ألا يؤدِّي قِلَّةُ اختلاطه بالناس الى حرمانه من أمور الخيرالمندوب الى فعلها، والتي لايمكن القيام بها بالإختلاط، كإزالة الظلم والفساد وما يخالف الشرع، او إقامة دين الله ومنهاجه في الأرض، او إعانة المنكوبين، وعيادة المرضى، ودفن الموتى، والمشاركة في أحزان الناس، وأَفراحهم، ...الخ.

ملاحظـــة: الموضوع الآنف الذكر، له حظوة وأهمية كبرى من حيث التأثير على السالك، فلم يوضع في ختام القائمة لِقلّةِ أهميته، بل غاية ما في الأمر ان السالك لايقوى على ما ذكرناه من قلة الطعام والكلام والمنام والمخالطة، الا عندما يشتد عوده في الصلاة والصوم والذكر وقراءة القرآن والضراعة الله جل شأنه، والتفكير في جلاله، فحينئذ يكون قلبه قد أضاء بنور الله، وروحه اكتسبت قوة، ويكون قد بلغ حالةً يُفَضِّلُ فيها الأمور المعنوية على الأمور المادية.

وبتعبير آخر: رغم ان موضوع الإقلال من الطعام والمنام والكلام والإختلاط بالناس، يعتبرالحجر الأساس لتزكية النفس وتربيتها، ولكن من منطلق أن هذه الحالة تُعَدُّ من نتاجات ما تقدَّمها من امور، فقد ارتأينا وضعه في المؤخَّرة.

وَهَذِهِ أَدِلّة ما قلناه عن الإقلال من الطعام والشراب والنوم والكلام ومخالطة الناس:

يقول تعالى عن الإقلال من الأكل والشراب: ﴿...وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ الأعراف، وَيَقُولُ النَّبِيّ بهَذَا الصدد: {مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاء شَرّاً مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فإنْ كانَ لا مَحالـةَ فثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ}، رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (١٧٢٢٥)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (٢٣٨٠) وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَابْنُ مَاجَهْ

برقم: (٩٣٣٤٩)، وَالحَاكِمُ برقم: (٧٩٤٥) وَقَالَ: صَحِيح الإسناد، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٥٢٣٦) وَصَحَّحَهُ الألباني في (السلسلة الصحيحة) برقم: (٢٢٦٥)، وَقَالَ تَعَالى مُثنياً عَلَى قومٍ قليلوا النّوم: ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ ﴾ الذاريات، وَقَالَ رَسُول الله حول الصمت وقلّة الكلام: {مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ}، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البُخَارِيُّ برقم: (٥٦٧٢)، وَمُسْلِمٌ برقم: (١٨٢).

ويفهم من كثير من الآيات والأحاديث أن كثرة الإختلاط بالناس من دون ضرورة ليس شيئاً مُحبَّذاً، فعلى سبيل المثال يَقُول تَعَالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣ ﴾ المؤمنون، ومن الواضح أن تجنب اللغو لا يتسنّى للمرء مالم يضبط نفسه من ناحية كثرة الإختلاط بالناس، وَمُجالَستهِم التي قلّما تخلو من اللغو!

١٣- مصاحبة الصالحين:

وهذا عامل آخر من العوامل المؤثرة والمساعدة للسالك لطريق التوجه الى الله تَعَالى، وكذلك هو زاد بالغ الأهمية للطريق المنشود، وهو عبارة عن مصاحبة المُتَّقِين والبارين بالله تعالى، ولهذا يقول الرّسُولُ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: {الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ}، أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ برقم: (٤٨٣٣)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (٢٣٧٨) وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَالبَيْهَقِيُّ في (شعب الإِيْمَان) برقم: (٩٤٣٦) وَاللَّفْظُ لَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَحَسَّنَهُ الألباني في (السلسلة الصحيحة) برقم: (٩٢٧)، وكان دُعاء يُوسُف

عَلَيْهِ السَّلَامِ: ﴿... أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ يوسف.

وَقَدْ أَكْثر العلماء من السلف الصالح الكلام على هذه الخصلة الْمُحَبَّذة، ومن ذلك قولهم: تأمّل في القمر فهو كوكب مظلم خامل، ولكن ببركة مصاحبة الشمس أصبح مضيئاً متلألأً، وكذلك قالوا يكفي لإثبات أهمية مصاحبة الصالحين ان كلب أصحاب الكهف والذي لايختلف في الأصل عن أي كلب من كلاب الدنيا، بسبب قربه من هؤلاء الفتية الْمُهْتَدين، أورد الله تعالى ذكره وذكر حراسته لَهُم في أَعْظَم كتاب أَنزله وَهُوَ القُرْآن!

نعم ان مصاحبة الصالحين ومحبتهم من أَعظم الأسباب الْمُعَيْنَة على وضوح الرؤية وعلو الهمة والعزيْمة وطول النَّفس، ولهذا جعل أصحاب القلوب الواعية شعارهم قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ التوبة، والواجب هنا أن لا نُخْطِيءَ مفهوم (الْمُتَّقِين) (والصَّادِقِين) وأن نفهمهما في ضوء القُرْآن الكَرِيم وَالسُنَّة النبوية.

١٤- الْمطالعة والتعرف على حياة الصالحين وأحوالهم:

ومن الأسباب التي تُعين على تقرُّب الإنسان من خالقه، المطالعة والتأمل في الذين ساروا على طريقة معرفة الحق سبحانه وتعالى والتعبُّد له من الرجال والنساء.

ان سيرة الصالحين الذين عاشوا لله تعالى وكرّسوا حياتهم له، كالنجمة المتلألئة التي يهتدي بها الْمُسْلِم فيبصر بها ظلمات دربه الحالك، وتتبيَّنُ ويتنبي معالم الطريق على نور وهدى، فلا تختلط عليه بعد ذلك أَبدَاً.

وعلى سالك الطريق الحيطة والحذر، وعدم الإغترار بالأنوار الكاذبة التي تحاكي نور الشمس وضوء القمر وسرعان ما يصيبها الإضمحلال والخُفوت، أجل عَلَيْهِ الاّ يتَّبِعَ السراب ولا يقع في أَفْخاخ اللئام والصائدين في الْمَاء العكر!

وسأستهشد ببعض الآيات الله اثباتاً لأهمية اقتفاء آثار الصالحين والإقتداء بهم:

أولاً: في سورة الأَنعام وبعد ان يسرد الحق جل وعلا جانباً من قصة سيدنا ابراهيم عليه السلام يذكر أَسْماء سبعة عشر نبياً على جميعهم الصَّلاَةُ السلام وَهُمْ:

(إِسْحاق وَيَعقُوب وَنُوح وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وأَيّوبَ وَيُوسُف وَمُوسَى وَهَارُون وَزَكَريّا وَيَحيى وَعِيسَى وإِلياس وإِسْمَاعِيل وَاليَسع وَيُونس وَلُوطَ)، ثُمَّ قَالَ تَعَالى بَعْدَ ذلِكَ بيسير: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ...(٩٠) ﴾ الأنعام.

ثانياً: وفي سورة هود عليه السلام، بعد أن يذكر الله تعالى قصص كل: من نُوح وهُود وصَالح وإِبْرَاهِيم وَلوط وشُعَيْب ومُوسَى عَلَيْهم الصَّلاةُ وَالسَّلاَم، يَقُولُ بَعْدَ ذلِكَ بِقليل: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ ...(١٢٠) ﴾ هود.

ثالثاً: وكذلك الشأن في آخر سورة يُوسُف، يقول تَعَالى بعد ذكره قصة (يُوسُف) عَلَيْهِ السّلاَم: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ ...(١١١) ﴾ يوسف.

وبنـــاءً عليـــه:

فيا أَخِي الْمُسْلِم وَيا أختِي الْمُسْلِمة! ينبغـي أن نُخـصصَ شـطراً مـن عمرنـا لـمطالعة ودراسة حياة الصالحين وذلك حَسَب التسسل التالي:

١- أنبياء الله تعالى عليهم السلام بصورة عامة.

٢- أُولُو العَزم من الرُّسُل عَلَيْهِ الـسّلَام: (نُـوح، إِبْـرَاهِيم، مُوسـى، عِيـسى، مُحَمَّد) عمُومَاً، وسيرة سَيِّدنا مُحَمَّد صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ خصُوصاً (*).

٣- أصحاب الأنبياء وأتباعهم بوجـه عـام، الـذين ورد ذكـرهم في الكتـاب والـسنة الـصحيحة، كقـصة مـريم عليهـا الـسلام، وأصـحاب الكهـف، وطالوت، ومؤمن آل فرعون، وأصحاب القرية و....الخ.

٤- أَصْحَاب رَسُول صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عمُومَاً، وَأَخصّ مِنْهُم بالذكر سـيرة الخلفاء الأَرْبَعَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

٥- العُلَمَاء والعارفون ومشاهير التأَريخ الإِسلامي منذ زمـن التـابعين إلى يـوم الناس هَذَا، مثل: (الْحَسَن الْبَصْرِيِّ ، وَابْنُ سِيرِين، وَعُمَرَ ابْنَ عَبْـدُالعَزِيز، سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، وَزَيْنُ العَابِدِين، وَإِبْرَاهِيم بن الأَدْهَم، وَجَعْفَر الصّادِق، وأَبُو حَنِيفَة، وَمَالِك، وَالشافِعِي، وأَحْمَد بْن حَنْبَل، والْحَارِث الْمحاسبـي، وَمَعْرُوف الكَرْخِي، وَجُنَيد البَغْدَادِي، وَالغَزَّالِي، وَالْجَيْلاَنـي، وَالعِزّ بْن عَبْدُالسّلام، وَبهاءالدّين نقشبندي، وَجَلال الدّين الرومـي، وَابْـنُ تَيْمِيَة، وَابْنُ قَيّم الْجَوزي، والإِمَام الرّبّاني، ومحمد بن عبدالوهاب وصلاح الـدين الأَيّـوبي، وَوَلِـي الله الـدّهْلَوِي، وَمَوْلانـا خَالـد، وَحَـسَن البَنّـاء، والنُورسي، وَأبو الأعلى الْمَودودي، وَسَيْد قُطب، وَمُحَمَّد اقبال)، رَحِمَهُم الله تَعَالى جَمِيْعَاً وَوَفّقنا لاتباعهم والإنتفاع بهم.

١٥-الإتِّباع المطلق للنَّبِي صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

الحق لَمْ يَكن تأخير هذه الْمَسأَلَة لقلة أهميتها، ذلك ان الإتباع لسُنَّة الْمُصْطَفى عَلَيْهِ السّلام هُوَ أَعْظَم وأَهم، وفي نفس الوقت أثقل عامل من عوامل، التقرب الى الله تعالى وكسب الصلاح وتزكية النفس، وَهُوَ يجمع في طيّاته كل العوامل الأربعة عشر التي ذكرناها في النقاط الأربع عشرة السابقة.

فيا أَيّها الْمُسْلِم الْحَبيب!

كَمَا قَالَ نَبِينا مُحَمَّد صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَهُوَ يَحُضُّ عَلَى اتّباع الشريعة: {عَضّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ}، ذِلكَ انه كل الطرق مسدودةٌ وغير موصلة الى الله حاشا طريق الشرع واتباع مُحَمَّد عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاَةُ وَأَتم التَسْلِيم، وَهَذَا الّذي أقوله لَمْ أستخرجه من جعبتي، وإنّما هو قول من يعلم الخبء في السَّمَوَاتِ وَالأَرْض وَعنَتِ لَهُ الوجوه وذلّتْ له الرقاب: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ آل عمران.

نعم فالذي يتوق للقرب الى الله تعالى والسعادة بلقياه، فعليه ان يلزم نهج الْمُصْطَفى عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسّلام ويثبت عَلَيْهِ، لأَنَّهُ "فَدَتْهُ نفسي" خير دليل يوصل المحتاج الى ربّه وقد ذهب الى ربّه، وعاد من عنده تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ...﴿١﴾ ﴾ الإسراء.

لهذا فهو صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يعرف حق المعرفة الى أين يسير بنا، وهو خير من يبين لنا معالم الطريق، فمن أسلم نفسه اليه وانقاد الى أوامره انقياداً كاملاً، بلغ الغاية وسَلِمَ من المكاره، والله عز وجل يقول: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... ﴿٢١﴾ ﴾ الأحزاب.

فيا أَيّـهَا الْمُسْلِم الكَريـم!

لا تَدَّخِر وسعاً وحاول جاهداً، ان تَقْتفِيَ آثار نبيـكَ مُحَمَّـد صَـلّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَلّمَ في كُـل حركاتـه وسـكناته، في الْمأكـل والْمـشرب، والْمنـام والكـلام، والقيام والقعود والمشي، والقاء السلام، واللباس، والصلاة، والصيام، والجهـاد، والغضب، والعفو...الخ(١).

نعم ان اتباع النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ هو انجع السبل وأكثرهـا جـدوى في تقريـب الإنْـسَان إلى بارئـه، ولـذلك يقـول الحـق تَبَـارَكَ وَتَعَـالى فِـي الحَـدِيث القُدسِـي: {مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّـى أُحِبَّـهُ، فَإِذَا أحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الّـذِي يُبْـصِرُ بِـهِ، ويَـدَهُ الّـتِي يَـبْطِشُ بِهَـا، وَرِجْلَـهُ الّتِـي يَمْـشِي بِهَـا وَإِنْ سَـأَلَنِي أعْطَيْتُـهُ، وَلَـئِن اسْـتَعَاذَنِي لأعِيذَنَّهُ}.(٢)

ونستجلي من هذا الحديث القدسي مايلي:

١- ان الفرائض تُقرّب الإنسان الى ربِّه أكثر من أي شيء آخـر، ويـستوجب ذلك ان نُولِيها من الإهتمام مـايليق بهـا، مـن كـل نـواحي، وألاّ ننـشغل بالسنن قبلها.

٢- الذي يؤدِّي الفـرائض علـى وجههـا، يتقـرب دومـاً الى الله تعـالى نتيجـة التزامـه بالسنن، ويزداد به معرفةً وأُنساً، اذاً: فاقتفاء أَثَر النَّبِـيِّ صَـلّى اللهُ

١) أفضل كتاب استفدت منه في معرفة أحوال المصطفى وعاداته صَلّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ ومـا دق وجلّ من شئوونه، هو كتاب: (الشفاء في التعريف بحقوق المصطفى) للقاضي عيـاض، وهـو في أربعة مجلدات، والذي شرحه كل من: ملاّ علي القاريء، والخفاجي.

٢) رَوَاهُ البُخَارِي برقم: (٦١٣٧).

عَلَيْهِ وَسَلّمَ، هو أنجع وسائل معرفة الله تبارك وتعالى، وأفضل طريق للسير الى الله الوصول اليه.

٣- طالما أَن مُحَمّداً صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ هُوَ أَفْضَلُ العباد وأحَبُّهم الى ربِّه، فالإِنْسَان باتباعه لسُنَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسّلاَم حذو القذة بالقذة، يغدو حبيب ربه أَيْضَاً، ويزداد هذا الحب وَيطّرِد مع شدة التزام الإِنْسَان بالشريعة وانقياده لتلك السنن.

٤- عندما يشتد التزام العبد وانقياده لسنة الْمُصْطَفَى صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، يصبح حبيباً لربه، ويؤدّي به ذلك أن يكون ولياً من أَوْلِياء الله تَعَالى، وعندئذٍ سَتَكون عينه وأذنه ويده ورجله وسائر أعضائه الظاهرة والباطنة، عاملةً في إطار مرضاة الله جل شأنه، وطَوْعَ أمره، واذا استعاذ به أعاذه الله تعالى من كل مكروه، وان دعاه أجابه وان سأَلَه أعطاه سبحانه.

ثامناً: سَبْعَة عَوَامل في ميدان العمل الاسلامي، لها أبلغ الأثر في تزكية النفس:

أَيُّها الْمُسْلِمُون الأَحِبَّة والأَعِزة!

في هذا البند الثامن والأخير من هذا الفصل الثالث (زاد الطريق)، سنتطرق "بعون الله تعالى" الى ذكر سبع عوامل اخرى مهمة وميدانية للعمل والنشاط الاسلامي، والتي لها تأثير بليغ ومباشر في إصلاح الإِنْسَان والسير به قُدُماً الى الله تعالى، وَسَنَمُرُّ عَلَيْهَا مرور الكرام، لأن كلاً من تلك العوامل جديرٌ به ان يُخَصَّص له كتابٌ مُسْتَقِلٌ.

١- الدعــوة:

يقول جل شأنه عن عظم الدور الذي يؤديه الدعاة في دعوة الناس الى الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ فصلت.

والحق ان الدعوة الى الله تعالى هو عمل عظيم ومبارك، وسبب لوقاية الإنسان لنفسه ومراجعته لها، لِئَلاّ يأمر الناس أَو ينهاهم عن شيء وهو يعمل خلافه، فيقع تحت طائلة الوعيد في قوله تعالى: ﴿ ...لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ الصف، فَيُوهَبَ الوزر وَيُحرَمَ الأجر، كما يقول عز من قائل: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ الصف، ولذلك أعقب الله تعالى قوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ... ﴾، بقوله: ﴿ ...وَعَمِلَ صَٰلِحًا ... ﴾

٢- التَعْلِيم:

ولا يخفى ان تَعْلِيم الناس وهدايتهم وتنمية خبراتهم، تنتظم ضمن الواجبات الأساسية الأربعة التي اضطلع بها نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وأرسى دعائمها بين أُمته، كما مَرَّ معنا سابقاً: ﴿ ...يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ...﴿٢﴾ ﴾ الجمعة، وللنَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أحاديث متظافرة تُشِيدُ بدور الدعاة وَمُعَلِّمي الناس الخير، مثل: {مَنْ دَعَا إِلَى هُدىً كَانَ لَهُ مِنَ الأَجرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيئاً}،

رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٢٦٧٤)، وَأَبُو دَاوُدَ برقم: (٤٦٠٩)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (٢٦٧٤) وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَابْنُ مَاجَه برقم: (٢٠٦)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (١١٢)، وَالدَّارَميُّ برقم: (٥١٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَيَقُولُ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَيْضاً: {فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ، إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِي النَّاسِ الخَيْرَ} رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ برقم: (٢٦٨٥) وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَصَحَّحَهُ الألباني، ثُمَّ ان العلم وتعليمه للآخرين وارشادهم وتربيتهم والأخذ بأيديهم صوب الهداية، يُعَدُّ عملاً ذا أثرٍ بالغٍ في تزكية النفس وتقريب الإنسان الى ربه.

اما على النقيض من ذلك، فإن كتمانَ العلم عن الناس، والتسبُّبَ في حيرتهم واضطرابهم، يجعل صاحبه غارقاً في بحر غضب الله تعالى وسخطه، فنسأل الله السلامة، كما يقول ربنا المنتقم جل وعلا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ البقرة.

٣- النَّصِيحَة:

الصدق والصّميمية مع الناس وخاصة مع الْمُسْلِمين، ثم سلامة الصدر من الحسد والحقد والضغينة والخداع معهم، يشكل زاداً آخر من أغذية الصلاح والسّير الى الله تعالى، والحرص على خير الناس خصلة أخرى من الخصال التي جَسَّدها النَّبِيُّ الْمُختار مُحَمَّد صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وهؤلاء أنبياء الله تعالى كل من: (نوح وهود وصالح وشُعيب) عليهم السلام، قَدَّموا أنفسهم لأقوامهم

كناصحين، كما ورد في الآيات: (٦٢ ،٦٨ ،٧٩ ،٩٣) سورة الأعراف، أما خاتم الأنبياء عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَم فَقَدْ حصر الدين برمته في النَّصِيحَةُ، كَمَا قَالَ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: {الدِّينُ النَّصِيحَةُ(*)، قُلْنَا: لِمَنْ ؟ قَالَ: لِلّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ}، رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٢٠٥) عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويجدر بالذكر هنا، ان الإخلاص والصميمية والإحسان والصدق مع الناس، ثمرة مباشرة من ثمار الصدق مع المولى عَزَّوَجَلَّ، كَمَا يَقُولُ من أحاط بالسرائر علماً: ﴿ ...فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ ...(١) ﴾ الأنفال.

والشيخ عبد القادر الجيلاني كان يرى حصر الدين في هاتين العبارتين: (صِدقٌ مع الحق وخُلقٌ مع الخَلق).

٤- الْمُوالاَة والْمعاداة فِي الله:

هذه خصلة اخرى ضرورية من الخصال التي من شأنها إعانة المسافر الى ربه، وإصلاح حال الانسان والسير به نحو توحيد الله تعالى وإعلان العبودية والخضوع التام له سبحانه، والحق ان الموالاة والمعاداة في الله تُعَدُّ المحكّ للتدين الصحيح، وبدونها لا تستقيم تزكية النفس ومجاهدتها ولا تنمو شجرتها، فلا يصح في الإذهان أَبَدَاً، أن يحب الإِنْسَان رَبَّه ونبيَّه صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، أكثر من غيرهما صادقاً، ثم لا يوالي أَحِبّاءهما ولا يُوَقِّرهم ولايدافع عنهم، ولا يُعادي أعداءهما ولا يقف في وجوههم.

(*) فهِمَ البعضُ كلمة (النصح) أو (النَّصِيحة) كمرادفة لكلمة (الوعظ) أو (الموعظة)، ولكن هذا ليس صحيحاً، يقول راغب الأصفهاني عن معنى كلمة (النصح): النُّصْحُ تَحرِّي فعلٍ أو قولٍ فيه صلاحُ صاحبه.. نَصَحْتُ لَهُ الودَّ أي: أَخْلَصْتُهُ، وناصِحُ العَسَلِ: خالِصُهُ..) مفردات ألفاظ القرآن، (٨٠٨).

وَفِي هَذَا يَقُول الله جلّت قدرته: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ المائدة.

وَيَقُولُ تَعَالَى أَيْضاً: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ..﴿٤﴾ ﴾الممتحنة.

وَالنَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ: {أَوْثَقُ عُرَى الإِسْلامِ: الْحُبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ}، رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (١٨٥٤٧)، وَالبَيْهَقِي فِي (شعب الإِيْمان) برقم: (١٣) وغيرهم عَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ حَسَنٌ بِمَجمُوع طُرُقِهِ[١]، وَحَسَّنَهُ الألباني في (صحيح الجامع) برقم: (٢٠٠٩).

وَقَالَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ أَيْضاً: {الْرَّجلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ}، أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ برقم: (٤٨٣٣)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (٢٣٧٨) وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَالبَيْهَقِيُّ في (شعب الإِيْمَان) برقم: (٩٤٣٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

١) انظر: (كتاب الشريعة للآجري)، ح: (٥)، ص: (٢٥٤١).

٥- الأمر بالْمَعْرُوف والنَّهِي عَنِ الْمُنْكَر:

وهذه علامة فارقة للأمة الإسلامية، وهو شعار طالما ذكر بالقُرْآن الكَرِيم، فهو عامل من عوامل تزكية النفس وتكميل وبناء المجتمع القوي، وتصفية طبقاته وشرائحه وتقوية أواصره.

يَقُولُ الحق تَبَارَكَ وَتَعَالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ آل عمران.

وَمُقتَدَانَا النَّبِيّ مُحَمَّد صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ: {كَلاّ، وَاللهِ لَتَأمُرُنَّ بالمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، وَلَتَأخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظّالِمِ، وَلَتَأطِرُنَّهُ عَلَى الحَقِّ أطْراً}، ضَعِيف، أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ برقم: (٤٣٣٦)، وَابْنُ مَاجَهْ برقم: (٤٠٠٦)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (٣٠٤٧) وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيب عَلَى أنَّ سَند الحَدِيث مُنْقَطِعٌ، هَذَا لَفْظ أَبِي دَاوُد، وَضَعَّفَهُ الألباني في (السلسلة الضعيفة) برقم: (١١٠٥).

ومعلوم أنَّ استقصاء مباحث الامر بالمعروف والنهي عن المنكر يستعصي على الحصر في هذه العجالة وهي بحاجة الى كتاب خاص[1].

٦- الْهجـــــرَة:

ترك الأهل والديار في سبيل الله تعالى، والبعد عن الوطن وعن ذوي القربى والمعارف، من الأسس المتينة لمنهج الأنبياء عَلَيْهِم السلام، شريطة ان توافق

---

١) وقد تحدثنا عن الموضوع في كتاب: (شرح الأصول الشرعية والخطوط العامة للجماعة الإسلامية).

تفاصيل الشرع الحنيف، وهو "في الوقت نفسه" درس بليغ للتدين وعامل مثمر لتطْهير النفس من أدرانها والتقرب الى الله تعالى، ويقول عز من قائل بهذا الصدد: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ النساء.

ولكن هنا مسألة في غاية الأهمية لاينبغي إغفالها بهذا الصدد، وهي:

أ- ينبغي ان لاتكون الهجرة مبرراً وغطاء للهروب والإفلات، فليس كل ترك للديار والأوطان هجرة بالضرورة، تَأَمَّل كيف ان المولى الذي يعلم الجهر وما يخفى، اعتبر خروج البعض من ديارهم وَأَموالهم جُبناً هرباً من الموف، قَالَ تَعَالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ...﴿٢٤٣﴾﴾ البقرة.

ب- قلما يفرق الله تعالى بين الهجرة والجهاد، بل الغالب ذكرهما معاً، اذاً فالواجب ان يأتي الجهاد في أثر الْهجرة، وهذا دليل على ان ترك المال والديار، ليس تهرّباً ولا نجاة بالنفس من المكروه.

يَقُولُ تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ البقرة.

وَيَقُولُ تَعَالى أَيْضاً: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ النحل.

٧- الْجِهَـــــــاد:

وهذه هي الْمَرْحَلَةَ الأخيرة لعمل الجماعة الْمسلمة ونشاطها وهو ذروة سنام الإسلام،[١] وبالتالي فالجهاد عامل مؤثر وفعال لتزكية النفس وتصفية الجماعة الإِسلامية والمجتمع الْمُسْلم.

نعم فالجهاد في سبيل الله بوتقة تنصهر فيها مايتعلق بالقلب من أدران وأوضار، ومن عِظَم الإرتجاج الذي يحدثه في الصفوفٌ، فأنه لايُبْقي مكاناً لمرضى القلوب وضعاف الإيمان وذوي الدخن، لأن نوره الآخذ بالأبصار، يكشفهم ويُمِيطُ اللِّثامَ عما تُكِنُّه صدورُهم من غِلٍّ أو خور.

ولهذا كان أحد أسماء سورة التوبة التي تتناول أحداث معركة تبوك: هي الفاضحة التي تفضح المنافقين.

ثم أن أَهل التزكية والعرفان متفقون ومجمعون على ان السالك لطريق السير الى الله، لا يمكنه القيام بأي شيء، ولا الحصول على أية نتيجة "فيما يخص تزكية النّفس" الاّ بعد ان يُؤْثِرَ الآخرة على الأولى، وأن ينظر الى الدنيا النظرة التي تليق بها .. ولذلك أَعلنها الله تعالى صريحة ان المتقاعسين عن الجهاد في سبيل الله، انما أُتُوا من قِبَلِ حُبِّهم للحياة الدنيا وإيثارها على الآخرة، وترجيح الحياة الفانية الزائلة على الحياة الكاملة، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ ﴾ التوبة.

---

١) المقصود هنا العوامل التي تتحقق عن طريق الجماعة المسلمة، لأن العلماء يقولون ان أهم عبادة شخصية هي الصلاة، أما الجهاد فهو أهم عبادةٍ تؤديها الجماعة المسلمة.

إذاً: فليحذر أصحاب الطرق الصوفية واهل العرفان ولا تأخذهم الأوهام، أن القتال وحمل السلاح والموت في سبيل الله، وقتل أعدائه، أمر يخالف تزكية النفس والصلاح والسير الى الله تعالى، ان كان هذا ظنهم فقد أبعدوا في الخطأ واستغرقوا فيه، وتصورهم مخالف للحق تماماً، لأن القتال[1] والجهاد في سبيل الله، يُطَهِّر الإِنْسَان ويمحصه كَمَا قَالَ تَعَالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ... ﴿١٤١﴾﴾ آل عمران، وَلَيْسَ بإمكان احد ان يقاتل في سبيل الله، فيَقتل ويُقتل، الاّ الذين تجردوا لله تعالى، وتخلّصوا من حظ الشيطان في أَنْفُسِهِم، كَمَا قَالَ تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ ...﴿١١١﴾﴾ التوبة.

سبعة إِيضاحات ضرورية في مجال تزكية النفس

أَيُّهَا القَارِيء العَزِيز!

هكذا وبحمد الله تعالى، انتهينا من ذكر سائر العوامل والوسائل التي تقود الإِنْسَان إلى الصلاح والسير إلى الله تعالى، والبالغة اثنان وخمسون سبباً، وضعتها في البنود الثمانية السالفة الذكر، وبذلك نختتم هذا الفصل الذي يعد أهم فصول الكتاب.

ولكنـي أَجِدُ من واجبي "في ختام هذا الفصل" أن أتعرَّض الى ذكر بعض الإيضاحات الضرورية، وهي ملخّصة ومقتضبة ولها علاقة من نوع ما، بصميم الموضوع الذي نحن بصدد الحديث عنه:

---

١) في مكانه وزمانه ولأهله وبشروطه الشرعية!

أَولاً: المتخصصون من العلماء في تزكية النفس "وخصوصاً الإمام الغزّالي رحمه الله يقولون:

هناك أربع كلمات في القُرْآن، وهي أَسْماء لحقيقة واحدة ويعنون بها الجوهر المَعْنَوي غير المَحْسوس الذي تُخْتَصَرُ في وحقيقة الإِنسان، والجسم بالمقارنة مع ذلك الجوهر، كأنه غطاء أَوْ (ديكور) لَيْسَ إِلاّ، ولكن كل من تلك الأَسْمَاء يصف جانباً من الحقيقة، وَهِيَ:

١- الرُّوح، ٢- القَلْب، ٣- النَّفْس، ٤- العَقْل والفُؤَاد.

فالرُّوح اسم خاص، وهي علم على الحقيقة الْمَعْنُوِية، ولذلك وصفت بالسر الذي لايحيط بها احد علماً: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ الإسراء.

أما لفظة القَلْب فَتُعَبِّر عن الناحية العاطفية والحُبُّ والبُغْض التابعة للرُّوح، والقَلْب الْمَعْنَوي له علاقة "من قريب أَوْ بعيد" بالقلب الذي في الصدر، ولكننا لانعلم ماهية تلك العلاقة.

وأما لفظة (النَّفس)، فهي وصف للرّوح من حيث علاقتها بالجسم والغرائز المتعلقة به.

وأَما العَقْل والفُؤَاد، فهو تعبير عن حالة التفكير والخيال ومَكْنونات الروح، وجدير بالذكر ان الرّوح يجوز ان توجد بلا جسد، وأَما النّفس والقلب والفؤاد، فوجودها متوقف على الرّوح، أي ان الرّوح لها وجود مستقل بخلاف ماعداها.

ثانياً: القَلْب السليم: هو رأَس الْمَال الوحيد الذي يُغيث الإِنْسَان يوم القيامة، ويُخَلِّصه من النار ويدخله نعيم الْجنان، قَالَ تَعَالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ الشعراء.

ولسلامة القلب علامات كثيرة، وينبغي ان نتحرى سلامة قلوبنا، وقد آن لنا ان نعرض بعض العلامات الدالة على تلك السلامة ولو باقتضاب:

١) إستقرار التوحيد في القلب، أي الإقرار لله بالوحدانية والتنزيه، بالقلب واللسان والأفعال في ربوبيته وألوهيته وأَسْمائه وصفاته، والبراءة من كل أنواع الشرك والكفر والنفاق.

٢) الإلتذاذ بالصَّلاة والصيام والذكر وقراءة القُرْآن والدعاء.

٣) الإحساس بمرارة السيّئة والذنب مهما كان صغيراً.

٤) ومن علامات سلامة القلب ان تكون الخلوة أحبَّ الى الإِنْسَان من الخلطة، الا فيما هو متوقف على الإختلاط بالناس، كالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد.

٥) طهارة القلب من الضغينة والحسد واحتقار المسلمين.

٦) الحرص والشفقة على الذين يسيئون اليه ويؤذونه، والدعاء لهم وطلب الشفاء والسلامة لهم من الله تعالى.

٧) محبة المؤمنين وموالاتهم، وكره الكافرين ومعاداتهم، والتي سمّاها النَّبِيُّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بـ(أَوْثَقُ عُرَى الإِيْمَان).

هَذِهِ كَانَت سَبْع علامات أَساسية وواضحة لسلامة القلب، نرجو الله تعالى ان يحققها في قلوبنا ولا يَحْرِمنَا من فيضه وكرمه.

ثـالثـاً: ان الإِنْسَان اذا أراد انتهاج طريق معرفة الله والسير اليه، والفرحة بلقائه تعالى، يجب ان لا يكون لـه بغيـة سـوى معرفـة ربـه وفهـم صـفاته العليـا، والتقرب اليه وما يستتبع ذلك "بالضرورة" مثل ابتغـاء الْجَنَّـة والنّجـاة مـن النّار، بل لا ينبغي ان يجعل مقصوده حتى ظهـور الإسـلام وانتـشاره[1] لأن النَّفْس في ظل هذه الْمَقَاصـد الـشريفة الـسامية، تـضع بيـوض أنـواع مـن الأمراض الفتاكة .

رَابِعَــاً: يشتـرط لقبول أي عمل في الخيـر شروطٌ ثلاثـــة:

١) كُونُهُ خَالِصَاً وَبَعِيدَاً مِنَ الرِّيَاء.
٢) كُونُهُ مُبـرَّءاً مِنَ العُجب.
٣) الإِبتعَاد عن البِدعة فِي مجال العَقِيدَةَ والعِبَادَة.

نعم الإِخلاص، وعدم الإعجاب بـالنَّفس، وإسـناد كـل شـيء الى توفيـق الله تعالى واتِّباع الشرع، شروط لامناص من تحققها، اذا أُريـد لأي عمـل القبـول، وافتقاده لأي من هذه الشروط، يؤدِّي الى ذهاب العمل هباءً منشوراً.

وبتعبيـر آخر: الرياء والعجب والإبتداع، ثلاثة أصـناف مـن الـدود النـاخر والجراثيم الخبيثة، اذا أصاب أحدها عملاً "بلـه ان تُـصيبه كلّهـا" أفـسده وراح أدراج الرياح، وأوقع صاحِبَه في الخسران الـمبين.

---

١) ليس المقصود "كما لايخفى" ألاّ يحمل المسلم هموم دينه ومنهج ربه، من حيث تحقيقه في حيـاة المجتمع، بل المقصود ألاّ تصبح تلك المسألة دافعاً لعبودية الانسان لربه، ذلك ان العبودية أعلى مرتبة يمكن الوصول اليها، ولا يجوز ان تصبح وسيلة لغيـرها.

خَامِسَــاً: إذا أردت ان تعرف مقامك عند ربك، فتأمــل ســاعة وتفكــر في مقــام ربك في نفسك، فكيف كان عندك فأنت كذلك عنده:

١) بقدر توقيــر الله في نفسك، تكون مُوَقّراً عنده.
٢) وانظر الــى مقدار محبة الله تعــالى في قلبــك، فمحبتـــك عنــده تعــالى بــذلك الــمقدار.
٣) كلما كنت حريصاً على إرضائه، كان تعالى حريصاً على إرضائك.
٤) كلما أسرعت في تلبية أوامره، كلما كان تعالى لطيفاً بك سامعاً لدعائك.
٥) أنظر الى مدى ذكرك لله تعالى، فأنت كذلك عنــده ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ... ﴿١٥٢﴾ ﴾ البقرة.
٦) كلما غـضبت في ســبيل الله ونــصرته، كلمــا نــصرك الله وأيــدك: ﴿ ...إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ ... ﴿٧﴾ ﴾ محمد.
٧) اذا خالفت طباعك وعاداتك مــن أجــل الله تعــالى، خَــرَق الله لــك العــادة، وتأمل رحمة الله كيف انه ســبحانه ســلب النــار عــادة الإحــراق، مــن أجــل إبراهيم عَلَيهِ السلام.
٨) كلما كنت صادقاً في التوكل عليه والإعتضاد به، كلما أغاثك ونجّــاك عنــد النوائب والكرب.
٩) يحسن الله اليك ويزيدك إحساناً، طالــما كنــت مــؤملاً ذلــك منــه ســبحانه، وكل هــذا يفهــم مــن قولــه تعــالى في الحــديث القُدسـي الــذي رَوَاهُ الإِمَــام البُخَــارِيّ: {أَنَــا عِنْــدَ ظَــنِّ عَبْــدِي بِــي..}، مُتَّفَــقٌ عَلَيْــهِ: البُخَــارِيُّ بــرقم:

(٦٩٧٠)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٢٦٧٥)، ولكن حذار من إغفال أمرين مهمين أَو نسيانهما:

أ- كلما توغلت في معرفة الحق تَبَارَكَ وَتَعَالى، ازددت مِنْهُ خَشِيَة وله حباً، واحسنت به الظن، وبموازاة ذلك تزداد عبوديتك له، كَمَا قَالَ مرشدُنا مُحَمَّدٌ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: {لَوْ أَحْسَنُوا الظّن لأَحْسَنُوا العَمَل} رَوَاهُ مُسْلِم.

ب- ما منك يكون على قدرتك، وما منهُ سبحانه يكون على قَدَره، فلايذهبنَّ بك الوهم بسبب المقارنة بينهما، أنهما متساويان أو متشابهان لذا يقول تعالى في الحديث القُدسي: {وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ...}، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البُخَارِيُّ برقم: (٦٩٧٠)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٧١٢٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سادساً: طريق السير الى الله تعالى، طريق لا انتهاء له، لأن الله تعالى لا تحده حدود، وعلى هذا فبحر معرفته لاساحل له و(كمال) الانسان مسألة نسبية، والاّ فأن الإنسان لايصبح كاملاً في الدنيا أَبَداً، لأَنَّهُ اذا تكامل فان حركته وسيره الى بارئه سينتهي ويتوقف.

سابعاً: رُبَّمَا يسأل سائل وَيَقُولُ: الطريق ذات المراحل الست التي ذكرتها وسميتها (طريق الصلاح والسير الى الله) هل تتبع طريقة معينة؟ واذا كان مختلفاً مع الطرق الصوفية المعروفة فما إسْمها اذاً؟! نقول في الإجابة: نحن نكنُّ كلَّ الإحترام والتقدير للطرق الصحيحة والسليمة للتصوف، تلك الطرق التي تسببت في رجوع الكثيرين عن غيِّهم وضلالهم وانتهاجهم فهماً صائباً للإسلام، اما الذي اصطلحنا على تسميته هنا بما ذكرناه آنفاً، فليس

اسْماً خاصاً ولا بدعاً من الأَسْماء، فهو مستقىً بصورة مباشرة من الكتاب والسُنَّة وتجارب العارفين بالله، وان كان ولابد من تسميته فهو طريقة القُرْآن وَالسُنَّة، وان شئت عزوه الى حد فَهُوَ: (طَرِيق مُحَمَّد صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ).[1]

١ - نعم، نحن نكن التقدير للطرق الصوفية المستقيمة والموافقة للشرع، ولكن يالأسف، التصوف الحقيقي "إلاّ مارَحِمَ رَبّي" ضاع وعز وجوده في هذا الزمان، ولقد جاء الى الوجود باسم التصوف، سبل مليئة بالبدع وما تحتار فيه العقول تحت ذريعة التصوف، وبدل ان تكون تلك الطرق مفعمة بالتقوى والصفاء والتدين... فهي تتقاطر اوضاراً وادراناً وغلاً وتعلقاً مقيتاً بالدنيا.

الفصل الرابع

عوائق الطريق

ياأيُّهَا القَارِئ الحبيب!

لاَرَيْبَ ان طريق الصلاح والسير الى الله تعالى وتزكية النّفس "اذا مانظرنا اليه من جانب واحد" لَيْسَ طريقاً سَهْلاً فحسب، وإنما يبعث على اللذة والإستغراق الجميل معه، فهو يبعث السكينة والطمأنينة في النفس والخاطر: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ الرعد.

وهو الطريق الذي يوافق طبيعة الإِنْسَان وفطرته: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ...﴿٣٠﴾ ﴾ الروم.

لكن الأمر يختلف اذا نظرنا الى الموضوع من جانبه الآخر، فحياة الإنْسَان على وجه الأَرْض امتحان ليست الاّ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ الكهف.

فمن هذا المنظار يكون الإنْسَان دوماً تحت المراقبة والإمتحان العسير، وهو مُعَرَّضٌ أبداً، الى مئات العوائق والعراقيل والْمَشَاكل وقطاع الطرق الذين يتربصون به قاصدين النيل منه.

إذاً: فطريق الصلاح والسير الى الله تعالى، طريق صعب ومحفوف بالْمَكَاره والْمَخَاطر أَيْضاً، وقد يكون قول النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: {الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ}، رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٧٦٠٦)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (٢٣٢٤) وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَابْنُ مَاجَهْ برقم: (٤١١٣)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٦٨٧) وَغَيْرهُم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، نابعاً من هذا الجانب ...

وَكَذلِكَ قَوْله صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: {حُفّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ}، رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (٨٩٣١)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٧٣٠٨)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٧١٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ونحن في هذا فصل الرابع "بعون الله تعالى" سنحصي في عجالة العوائق الرئيسة ونسلط الضوء عليها، حتى لاتكون غريبة لدى سالكي هذا الطريق فيقعوا في مكائدها وفخاخها على حين غفلة، ولا يؤدي ذلك الى إخفاقهم في إمتحان الدنيا، فَيُحْرَموا من درجات الجَنَّة العُليا، ويقعوا في لظى الجحيم، أَعاذَنا الله من ذلك المآل:

أولاً: الفَهْم الخاطيء للإسلام:

ان الفَهم الخاطيء للإسلام "في نظري" يعتبر أَكبر العوائق وأَكثرها إضراراً، بجانب التزكية والصلاح في الإنْسَان.

فمما هو معلوم وغني عن الإستدلال، انه لايمكنك السير الى الله إلاّعن طريق الله تعالى، والطريق الوحيد الذي أرشد الله سبحانه عباده سلوكهُ لعبادتهم إياه، وتقربهم اليه وتوجُّههم اليه، هو الإسلام، والذي يُسْتقى حصراً مما بين دفتي الكتاب والسُنّة.

طريق واحد لاثاني له، الطاعة المطلقة لأوامر القُرْآن وَالسُنَّة: ﴿...أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ...﴿٥٩﴾﴾ النساء، هكذا يكون الطريق أمام الإنسان معبداً وممهداً للمشي عليه ثابت الخطى.

ولكن على قدر أهمية الإِيْمَان بالإِسلام واتّباعه، فأن كيفية ذلك الإيمان والإتباع مهم أَيْضاً، وهذا هو الْمَقصُود بـ(أحسن عملاً) كما لايخفى، كما قال الفضيل بن عياض(*): لايقبل الله تعالى عملاً حتى يكون خالصاً وصواباً، ومعلوم ان الإخلاص لله تعالى ثمرة من ثمار التوحيد، وقول لاَ إلَهَ إلاّ الله، واتباع الشرع أَيْضاً نابع من من إقتفاء أثر النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وهذان أي الإخلاص والإتباع، المتجسّدين في: (لاَ إِلَهَ الاّ اللهَ مُحَمَّد رَسُول الله) هما مفتاح باب الإسلام، وجناحاه الذين يُطارُ بهما الى الله جل شأنه، والآن دعونا نبحث في نقاط محددة في هذه الْمَسْأَلَة كونها عائقاً تُعيق سيرَنا الى الله تعالى:

الأولى: مظاهر الفهم الخاطيء للاسلام :

كل تعبير وتصرُّف أَوْ إحداث زيادة أو نقصان، في دين الله ومنهجه القويم المتكامل الْمنزَّه الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، حتى وان كان في المجال النظري وضمن دائرة العقل والفكر والتصور، يعتبر كل ذلك فهماً خاطئاً للإسلام، فمثلاً:

١) الذي يتوهم ان الإسلام علاقة روحية بين الانسان وربه، وغايتها ألاّ تتعدَّى دائرة الأحوال الشخصية، وان تلك العلاقة لاتسموالى تناول قضايا المجتمع والحكم والسياسة.[١]

٢) والذي يتصور ان الإسلام منهاج شامل للحياة، ولكن اللّجوء الى السلاح والقوة ليس من ضمنه بحال من الإحوال، أو أن الـمُسْلِمين يجب عليهم ان يكونوا مسالمين أبداً لايحركون ساكناً، حتى ولو طالهم الظلم والإعتداء[٢].

٣) والذي يتصور ان الإسلام متعلق أصلاً بالناحية الْمَعْنَوِيَة والأخلاقية، وأن الإنسان يمكنه فقط عن طريق الأوراد وتزكية النفس أن يبلغ الذروة مما هو مطلوب منه[٣].

(٤) والذي يتصور بأن الأولين لم يُبْقوا للآخرين شيئاً، من حيث استنباط الأحكام واستخراج العلوم والمعارف من القُرآن وَالسُّنَّة، وانه لايَسَعُنا

---

١)كما هي الحال مع العلمانيين وكثير من عوام الناس.

(*) انظر: (المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير) ص(٦٢٩)

٢) أصحاب هذا التصور هم الذين مسحوا كلمة الجهاد من قاموسهم.

٣) المقصود هنا غالبية المتصوفة.

الإجتهاد ولا الخروجُ عمّا ورثناه منهم من تراث وآراء، وبالتالي فعلينا امتثال ماتوصّلوا اليه دون قيد ولا شرط(١).

٥) وكذلك الذين يتصورون ان ما كتبه العلماء، وتوصلوا اليه في السياسة الشرعية إبّان وجود الحكم الإسلامي، يجب علينا العمل به دون الإلتفات الى الظروف والمتغيرات الحاصلة في العالم(٢).

٦) الذين يتصورون ان المُسْلِمين لايحق لهم تكوين الجماعات والأحزاب المتعددة لتحقيق الأهداف والمقاصد الشرعية، التي لايمكن تحقيقها الاّ عن طريق العمل الجماعي:
كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتطبيق الأحكام، وتثبيت العدل وإزالة الظلم، ومحاربة أعداء الإسلام، ومحتلّي أرضه وأوطانه، وتأخذهم الظنون بأن نشاطات من ذلك القبيل عمل مبتدع مخالف للشريعة(٣).

٧) والذين يتصورون أَنَّنا يجب علينا التخلِّي عن بعض كلماتنا ومصطلحاتنا وأن نأخذ من الغربيين في المقابل بعض كلماتهم ومصطلحاتهم، لكي نُبَرِّيء ساحتنا من التُّهم اللاصقة بنا والنقد الموجه الينا، وبذلك يعتقد الغربيون أنّنا نحن المُسْلِمين لسنا مُتخَلّفين أو متأخِّرين عن الركب، بل سوف يحترموننا ولا يكيدون لنا المكائد ولا يتهموننا بالعداء للديمقراطية وحقوق الانسان والحضارة، ولن يصموننا بوصم التطرف والإغتيال والإرهاب!!

---

١) نعني بهؤلاء المقلدة بكلا صنفيهم من المذهبيين والسلفيين.

٢) نعني بهم جمّدوا عقولهم وأعرضوا عن معرفة الواقع صفحاً.

٣) المقصود بهؤلاء الذين لايؤمنون بالعمل الجماعي المنظم، دون التفطن الى أن بديل ذلك هو الفوضى والتشرذم، ناهيك عن عشرات النصوص من القرآن والسنة التي تستشف منها وجوب العمل الجماعي، اضافة الى نصوص كثيرة اخرى تأمر بالاجتماع وتنظيم المسلمين وحرمة التفرق والفوضى.

٨) والذي يتصور أننا رغم أن مجتمعنا وان كان يعاني من كثير من الإنحرافات الفكرية والعقدية والسلوكية والإجتماعية والسياسية، وفيه أفراد من أهل النفاق والزندقة والإلحاد، ولكن مازال "من حيث مجموعه" مجتمعاً مسلماً، والأغلبية فيه متمسِّكٌ بالإسلام خاصة في جانب الشعائر التي تُمَيِّزُ الْمُسْلِمَ مِن غَيرِهِ، فهو يتصور رغم ما ذكرناه، بأنه لايجوز إلقاء السلام على أفراد ذلك المجتمع والتعامل معهم والمدارة معهم، لأنه يعتبر ذلك مساومة وتنازلاً في اطار الإيمان والإسلام، يُخْرِجُ صاحِبَهُ من الملة!![1]

٩) والذي يزعُمُ التصور بأن الْمُسلمين اذا كانوا يريدون عدم التخلُّف عن ركب الحضارة والتمدن الحاصل في هذا العصر، فعليهم الإسراع الى انتشال أنفسهم والإستجابة للضغوط الثقافية والفكرية والمتغيرات الحثيثة وتأويل بعض نصوص دينهم بذريعة، أنها لا تتوافق مع تلك المتغيرات، تأويلاً بعيداً ومُتكلَّفاً!![2]

١٠) والذين يتصورن أننا بغية الاستمرار في العمل الإسلامي والتأثيرفي مختلف شرائح المجتمع، يستوجب علينا ان نسكت إزاء ما اعتاده الناس من ممارسات منافية للشريعة، ولوكانت بدعاً او معاصي وموروثات جاهلية، مراعاةً لَهُم وحرصاً على تأليف قلوبهم.[3]

---

١) نعني الذين لايفكرون بطريقة واقعية، ويعجزون ان يخطو خطوات عملية في واقعهم، وهم دوماً منهمكون في انتقاد الآخرين وإصدار الأحكام العاطفية على الناس.

٢) اصحاب هذا التصور هم السائرون على منهج الشيخ (محمد عبده) وتلاميذه من الذين أخذت ابصارهم وهج الحضارة الغربية وزعزعت ثقتهم بدينهم.

٣) المعنيون هنا هم غالبية العوام وبعض الشيوخ.

١١) والذي يتصور "خلافا للسلف" أنَّ علينا إعلان أشد الإنكار على كل من خالف ولو مسألة جزئية ضمن ما تحتمله الإختلافات الفقهية، دون مراعاة المصلحة والمفسدة، أَوْ المهم والأهم أَوْ الترتيب والأولوية في ذلك الإنكار![1]

نَعَم أَيّها القَاريء الحبيب!

هذا وأمثال هذا ماكنت أعنيه بالفهم الخاطيء للإسلام، اما الآن فقد حان الوقت ان نسلط بعض الضوء على العوامل التي أدت الى بروز ظاهرة الخطأ الحاصل في الفهم للإسلام.

الثانية: عوامل ظهور مرض الفهم الخاطيء للإسلام:

وهي كثيرة لكننا سنكتفي بإيراد ما يلي:

١- مجافاة الكِتَاب السُنّة والعلوم الْمتعلقة بهما:

لقد وعد الْمُصْطَفَى عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسّلاَمُ ألاّ يَضِلَّ مَن يتمسَّك بكتاب ربّه وسُنة نبيه، بقَوْله صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

{تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا كِتَابَ اللّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ}، رَوَاهُ مَالك في (الْموطأ) برقم: (١٣٩٥)، وَصَحَّح اسنادهُ الألباني فِي (السلسلة الصحيحة)[2].

---

١) المقصود بهولاء كثير من الشباب حديثي الإلتزام بالاسلام.

٢) انظر: (سلسلة الاحاديث الصحيحة) رقم الحديث: (١٧٦١)، وانظر ايضاً: السنة لابن أبي عاصم ج: (٣)، ص: (١٠٢٧) ولكن وردت كلمة اهل بيتي بدل (السنة).

٢- الجهل بِسَير الأئمة والعلماء والورثة الحقيقيين للأنبياء عَلَيْهِمُ السّلام.

وقد قيل قديماً: أنصاف الأطباء يُودُون بحياة الإنسان، أما أنصاف العلماء فَيُودون بدينه، فالمتعالمون والمتمشيخون الذين لا يختلفون عن سائر الناس الاّ بزِيِّهم، ويعرّفون أَنْفسهم على أنهم هداة الناس ومرشدوهم، أولئك يتولون كبر إضلال الناس وتتييههم.

٣- الإقتصار على مطالعة وتبنّي تأليفات عالم واحد، أو مجموعة محددة منهم:

فقد يحدث في أحيان كثيرة، أن يصنف عالم من علماء الإسلام كتاباً لتقويم بعض الأخطاء أو الهفوات، أو ان يسلط الضوء على قضايا بعينها تستدعي الحاجات الآنية ذلك، مثال ذلك:

كتاب (إحياء علوم الدين) للغَزّالي، (وكتاب التوحيد) لمحمد بن عبدالوهاب، و(كليات رسائل النور) للنورسي، رحمهم الله جميعاً، فهذه الكتب خصوصاً، وكتب العلماء عموماً، لايصح الإعتماد عليها وحدها لفهم الإسلام جملة وتفصيلاً، فكل عالم من هؤلاء يتحدث عن الإسلام من جانب واحد، أَو مجموعة من الجوانب ولا يمكنه استغراق سائر الجوانب المتعلقة بالإسلام، والمصدران الّذان ينبغي للمسلم ان يعتمد عليها هما الكتاب والسنة فقط.

٤- ضيق الأفق والتَعَصُّب لِمَذهب عالم معين أَوْ رأيه:

فعلينا ان نوقن جميعاً، وتطمئن نفوسنا، انه ما من معصوم غير النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، كَمَا يَقُولُ الإمَام مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى: (مَا مِنْ أَحَدٍ إلاّ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ وَمَرْدُودٌ عَلَيْهِ إلاّ صَاحِبَ هَذَا الْقَبْرِ) وَيَعْنِي بِهِ النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلّمَ، ولا يخفى ان التسليم الْمطلق لكلام أَوْ وجهة أَوْ كِتاب عالم أو إمام، يعني إسنادك العصمة اليه.

٥- الوقوع تحت تأثير الـمثَبِّطات الدنيوية والإنحراف مع السبل والنظريات الشرقية والغربية:

ولهذا تأثيره الكبير على بعض ضعاف الإيمان وأنصاف المتعلمين، اما الذين يتمتَّعون بفهم صائب، وإيمان راسخ، فهم بمأمن من هذه الأخطار الداهمة.

إذ الإنسان الْمُسْلِم يعتبر كل علم نافع مُلْكاً لَهُ، كَمَا قَالَ رَسُول اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: {الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا}، أَخْرَجَهُ التِّرمِذِيّ برقم: (٢٦٨٧) وَقَالَ هَذَا حَدِيثٌ غَرِيب، وَقَالَ الشيخ الألباني ضَعِيف جداً، ولكنه حذر في الوقت نفسه ولا ينبهر بثقافة وتراث أي شعب أَوْ مجتمع، وهو بعد لا تهون عنده نفسه، ولا يعاني من الهزيمة الداخلية وإنعدام الثقة بالنفس والدين والتأريخ والثقافة!

٦- تأثير الآباء والأمهات والأصدقاء والبيئة:

وهذا العامل من شأنه أيضاً أن يُبْعِدَ الإنسانَ عن الفهم الـمستقيم لدينه، وأن يساهم في إحداث مزيد من الإنحراف عن جادة الصواب، كما يشير الى ذلك رَسُول الله صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بقوله: {مَا مِنْ مَوْلُودٍ إلاّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تَجِدُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ}، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ برقم: (١٢٩٢)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٦٩٣١)، وَأَبُو دَاوُد برقم: (٤٧١٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٧- زَيْغ القَلْب والجنوح الى الإنحراف والسّيّئات:

للبعض رغبة في الإنحراف والخروج عن جادة الصواب، يرى الطريق الصائب الأبلج فلا يسلكه، بل يسلك طريقاً صعباً وعراً! يقول ربنا تبارك وتعالى في هذا الشأن: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ...﴿٧﴾ ﴾ آل عمران.

نعم أَيّها القَارِيء الحبيب!

مامر معنا آنفا كانت هي "حسبما أرى" العوامل الرئيسية التي تؤدي الى الفهم الخاطيء للإسلام.

ثالثة: النتائج الوخيمة التي تترتب على الفهم الخاطيء للإسلام:

الفهم الخاطيء ينجم عنه مترتبات خطيرة وكثيرة، ولكن بإمكاننا حصرها في بندين اثنين:

١- عدم القيام بأعباء الدين ومسؤولياته على اكمل وجه وبما يرضي الله تعالى.

٢- الخيبة والخسران وذهاب الأعمال هباءً منثوراً يوم القيامة.

ولذلك فالذي يُخْطيء فهم الإسلام، لايمكنه القيام بواجبات الدين بصورتها الصحيحة تماماً، كما ان صنع أية آلة أو جهاز، يستدعي إرفاقه بالدليل الذي يعين على سلامة استعماله، فإذا لَم تراعى التعليمات التي أوصى بها

الصانع، ليس فقط ربما لايعمل أَوْ لا ينتج، بـل لا يـستبعد تعطلـه وتوقفـه عـن العمل نهائيـاً.

وهكذا الإسلام لا ينتظر منه تحقيق الْمَقَاصد الدنيويـة والأخرويـة الا عنـدما نتعامل معه وبه وفق ما أنزله الله تعالى عى رسوله مُحَمَّد صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ.

وأما خيبة صاحب الفهم الخاطيء للإسلام وخـسرانه، فأوضـح مـن نـارعلى علم، فالله سبحانه وتعالى لم يأمرنا بعبادته فحسبُ، بـل أمرنـا كـذلك أن نعبـده كما ارشدنا هو سبحانه في كتابه وبيّن نَبِيِّهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي سُنته.

ولـمعرفة الأضرار الناجمة عن الفهم الخاطيء للإسـلام، يكفـي أن نَمُـرَّ علـى الأضرار التي ذكرناها في بداية هذا الْمَبْحَث، مرور الكرام:

فمثلاً: فيما يخص الضرر الاول من تلـك الاضـرار وهـو تـوهم ان الاسـلام علاقة روحية بين الله والإِنْسَان فقط، وما يترتب على ذلك من فصل الدين عـن الحياة أو الحكم، والسوق عن المَسْجد، والإِيْمَان عن الدولة، والعلم والأخـلاق والقانون عن الضمير، والعدالة عن السلطة، والدنيا عن الآخـرة، والـروح عـن البدن، والعقل عن الوحي .... الخ.

إن الآفاق التي تترتب على هذا الفهم المعوج للإسـلام، تستعـصي عـن العـد والحصر.

فما ذكرناه آنفا وكثير مما يشبه تلك القضايا، هي امـور متطابقـة ومـستلزمة لبعضها، ولا يـمكن فصلها عن بعضها، واذا حدث ذلك، فسيختل نظامها ولا ريب، وان أي محاولة لحـصر الإسـلام في أمـور محـددة وتقـصيره علـى العلاقـة الروحية بين الله والإنسان، يُعَرّضُ جميعَ الأمور المتطابقة التي ذكرناهـا، كالـدين والدنيا والعقل والوحي، لَيْسَ للإختلال وحسب، وانما من شأنه أن يُـشْعِلَ نـارَ

النـزاع وأُوار الفتنـة، ومـا الحـرب المحتدمـة بـين العلـم والأخـلاق، والـضمير والْمَصْلَحَة، والتي تجري على قدم وساق في اوربا وكذلك شرق العـالم وغربـه، الا دليلاً ناصعاً وشاهداً على إثبات هذه الحقيقة، وَإِنَّهَـا لــمن أنـتن مـا تنتجهـا تلك الـمصانع.

وبغية تسليط مزيد من الضوء على مقصودنا هنا، سأروي هذه الحادثـة الـتي حدثت لي:

في سنة (١٩٨٦) وبعد وقت يسير من خروجي من قرية (سرسيان) هرباً من دائـرتي أمن (رانيـة) و (دوكان)[1]، كنت قد وصلت حديثاً الـى قرية (گلوى ماخوبزنان)* واستقرت بي الحال اماما المسجدها.

وفي أحد الأيام زارني بعض الشيوخ (الـملالي)، وبعـد ان جلـسوا وأخـذوا قسطاً من الراحة، بَدأْنا بالحديث، فتوجَّهتُ اليهم قائلاً: أيها الأساتذة حقيقة ان شعبنا يكاد يتيه ويَرِدُ الـمهالك، ونحن مسؤلون عن ذلك قبل غيرنا، ويستوجب ذلك منا التحرك وعدم الوقوف مكتوفـي الأيدي، أمام مجتمعنا الكـردي الـذي رُبِّي و نـما عَلَى أَيدِي صَحَابة رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ، وَنَحْـنُ نَـرَى الذئاب وقطاع الطرق التابعين للنظام الطـاغوتي والطـرق الـشيطانية الأُخْـرَى، ينهشونه ويخرجونه من تحت أيدينا بهذه السهولة!

وقبل أن أُكمل حديثي انبـرى أحدٌ هؤلاء السادة قائلاً: يافلان أنت لا تـزال شَـاباً يافعاً، ولـمّا تخبـــر الـدنيا والنـاس، أُقـسم لـك بكتـاب الله الـذي اتعبـد بتـلاوته، انه قد رَانَ عَلى قلوب النـاس وامـتلات بـالزيغ والـسواد، وأصـبحنا

---

١) (رانية) و(دوكان) قضاءان من الأقضـية التابعة لـمحافظة السليمانية.

*) (سرسيات) و (گلوى ما خوبزنان) و (تووه سودران) هذه أســماء ثلاثـة قـرى، مـن القـرى التابعة.

عبثاً نتحدث اليهم فنحن، لا مال في أيدينا ولا سلطة ولا أحد يستمع الينا، فقلت له:

يا شيخ! الناس لا يملكون جيوباً وأمعاءً فقط، حتى نعجز على التأثير فيهم، من غير امتلاك الثروة والسلطة واذا كان النظام الدكتاتوري والجماعات الضالة الأخرى تستميلهم بهذين العاملين اليها [1]، فقد بقيت لنا منهم عقولهم وقلوبهم وبامكاننا الولوج إِلَيْهِم من هذين البابين، فرد علي قائلا:

يا أَخِي الْمـلاّ! قد أسلفت ان قلوب الناس اسودت ولم تَعُد النصائح تُجْدي معهم نفعاً! ولأضرب لك مثالاً واحداً وأحسب أني سَأفحِمك به!!

قلت تفضل:

فقال أنت تعلم بأنني إمام في مجمع (توه سوران)، ذات جاء أُناسٌ الي يُهْرَعون، وَقَالوا: يَا شيخ أدرك الناس، هناك عرس في بيت فلان، وقد اجتمع الرجال والنِّسَاء يرقصون معاً، فذهبت مع مجموعة من كبار السن المواظبين على الصلاة خلفي، ومعظمهم ممن حج بيت الله الحرام، ولما وصلت ذلك المكان نهرتهم قائلاً: هذا الإختلاط حرام، وعليكم ان تتفرقوا ! وَلَم أَلْبَثْ طويلاً حتى ثار العريس بوجهي وانبرى غاضباً "ويبدو أنه كان مسؤلاً ضمن رجال النظام" وقال لي: ما هذا يا (ملا) ألم يبق شيء عندك الاّ ان تُنَغصِّ علينا العرس؟ ثم أقدم على المسك بتلابيبي وهزّني! اما الرجال الذين جاؤوا معي والذين كانوا يتخاصمون على أماكن صلاتهم خلفي في الْمَسجد، فلم يَنْبِسْ احدهم ببنت شَفة، نعم انسحبوا جميعاً وهم يتأففون وَيَقُولُونَ: الان سَيُشْبِعُ الشيخ

١) في ذلك الوقت، كان الكثيرون قد شرعوا في حمل السلاح والتجسس وكتابة التقارير للنظام البعثي، وفئات أخرى كانت التجأت الى الجبال.

ضرباً ! ولـما تيقنت من وحدتي، وانه مسلحٌ، وأنا أعـزل لا أَقـوى علـى فعـل شيء حياله، بدأت أُلَيِّنُ له في الكلام، بل بدأت أتوسَّـلُ بـه حتـى نجـوت منـه، وعدت أدراجي سالـماً.

فيا أخي هؤلاء هم الذين تريد الدفاع عنهم!

قُلْتُ يا شيخ! وهل تظن ان ما رويته دليل على ماتـذهبون اليـه مـن رأي، أَم هو يعضد رأي؟

قَالَ: وَلِمَاذَا تسأل؟ انـما أحدثك بهذه الحادثة مستدلاً على صحة قولي.

قلت: فلتسمح لي اذاً أحدثك: اذا كانت لديك قطعـة أرض وزرعـت فيهـا العدس فقط، ولَم تنبت الأَرْض الحمص، فهل العلة في الأرض؟

قَـالَ: كَلا.

قُـلْتُ: فيا أستاذي العزيز! أَنْتَ لَم تُعَلِّـمْ هـؤلاء الرجـال وكبـار الـسن، الا الـمواظبة على الصلاة خلفـك، وأن يـسيروا وراءك اذا دعيـت الى وليمـة، أَوْ عرس، أو مجلس عزاء، وما عَلّمتهم تفضلت بـأنهم فعلـوه علـى أَكْمَـل وجـه، ولكن لَمْ تُعَلِّمْهُم يوماً، ان يدافعوا عنـك اذا تعرَّضـت لاعتـداء أَوْ تهديـد مـن إِنْسَان دنيء، فَيُشْبِعوا البليد ضرباً، فيا أيها الشيخ المحترم ! فمـا دامـوا حفظـوا الدروس والنصـائح التي وجهتـهم بها، لَمْ يكن يجـدر بـك ان تؤنبِّـهم علـى عدم اتقان دروس أَنت لم تُلْقِـها عليهم أَصْـلاً، والاّ أصـبحت كـالفلاح الـذي يجـد في نفسه موجـدة عَلَى الأَرْض، عِنْـدَمَا لَمْ تنبـت الحمـص وهـو لم يزرعـه فيها أَصْلاً !!

طبعاً لاذ الأستاذ بالصمت، فلا أدري هل كان صمته اقتناعاً، أم انقطاعاً عـن الحجة والدليل.

فيا أَيُّها القَارِيء الكَرِيم!

ان ضرر الفَهم الخاطيء للإسلام على تزكية النفس يكمن في ان الإِنسان لا يصل الى مرتبة الصلاح، الا بتطبيق سائر أحكام الإسلام "بقدر وسعه"، وحينذاك تصفو نفسه ويكون صالحا، وهنا يصبح الفهم الخاطيء سببا في عدم العمل ببعض أحكام الإسلام (كما حدث للرجال الْمسنين مع امام الْمسجد)، وبقدر ما يُغْفَلُ من الأحكام والأوامر، تصاب عملية التزكية بالشروخ.

الرابعة: العلاج الشافي لظاهرة الفهم الخاطيء للإسلام:

معلوم ان كل شيء يعالج بما يضاده ويعاكسه كقاعدة عامة، وهذه القاعدة تنطبق على موضوعنا الذي نحن بصدده، وكل العوامل التي ذكرناها في البند الثاني "وقد أحصينا سبعة عوامل رئيسية" ونقائضها وأضدادها هي عوامل مؤثرة للفهم الصحيح للإسلام.

ودواء لداء الفهم الخاطيء للإِسلام، نسرد العوامل السبعة التالية:

١- <u>القرب من الكتاب والسنة والعلوم التي تُيَسِّر فهماً أفضل وايسر للقُرْآن وسنة النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:</u>

نَعَمْ، ان أعظم طريقة وأقومها وأوثقها الى فهم صحيح للإسلام، والتي هي في الوقت نفسه تقضي على ظاهرة الفهم الخاطيء للإسلام، هي التقرب الى كتاب الله وسنة نَبِيّه صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ واستكناه معارفهما وعلومهما، ولهذا كان أُولى مهام النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وأهَمّها، هي قِراءة آيات الله تَعَالى عَلَى النّاس: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ...﴿٢﴾ ﴾ الجمعة.

ومما لا يحتاج الى دليل، ان أمة مُحَمَّد صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَفِي أَي عصر وزمان، يقاس قربهم من الإسلام بقربهم من الكتاب وسنة النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلاَة وَالسّلام، الذِي قَالَ فيهما: {إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا}، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البُخَارِيُّ برقم: (٦٨٤٩)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٢٠٤٢)، عَنْ عَبْدِالله بْنِ مَسْعُودٍ[١].

القرب من العلماء والأئمة وورثة النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فليس في مقدور كل مسلم ان يكون قريباً مِن الكِتَاب وَالسُنَّة، واذا قدر له ذلك فليس بالضرورة أن يُحْسِن فهمهما، ولذلك يقول عز من قائل:

﴿...فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ النحل.

وَيَقُولُ النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: {الْعُلَمَاءُ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ، فَقَدْ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ}، رَوَاهُ وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (٢٦٨٢)، وابن ماجه برقم: (٢٣٩)، وَابْنُ حِبَّانَ وَصَحَّحَهُ الألباني في (صحيح ابْنُ ماجهْ) برقم: (٢٢٣).

٢- احترام جميع العلماء والأئمة والإستفادة من كتبهم وتراثهم:

وَهَذَا أَيْضاً من العوامل الْمهمة التي تُعين عَلَى الفهم الصائب للإِسلام، وَلَمْ يوجد هنالك عالم واحد استطاع ان يجمع في نفسه كل علوم الإسلام وأسراره، ولا أحدٌ تمكن من اختيار الأصوب بين الآراء دوماً، فَلْنَغتَرِفْ من بحر علمهم جميعاً، ولننتفع بتراثهم الذي تركوه لنا، ونستعمل في كل ذلك عقولنا وأفهامنا غربالاً لتصفية ذاك التراث وتقييمها واختيار

---

١) ورد في رواية اخرى رواها (مسلم) عن (جابر بن عبدالله رضي الله عنهما) كلمة (خير) بدلاً من (أحسن).

الأنسب والأحسن من بينه، وكذلك نستعمل عقولنا للإضافة والإستنباط الخاص بنا، وإذا استطعنا القيام بذلك، فحينذاك نعرف جيداً أن ثَمَّة فَرْقاً واضحاً بين (الإِجتهاد) و(الإِشتهاءِ)!

٣- البراءة من التَعَصُّب لرأي أي عالم واجتهاده، وعدم التقيد المطلق بشخص أَوْ مذهب أَوْ إتجاه:

وهذا ضمان مهم آخر من الضمانات التي تتكفل باستقامة الفهم لهذا الدين وعدم جنوحه الى الإعوجاج، فالتعصّب والتقليد هما إسم على مسمّى، اذ يصبحان سبباً في ليّ الرقاب واغلاق العقول وتعطل القدرة والطاقة ، وخسران الذات وزوال الثقة بالنفس[١].

٤- عدم الإستسلام امام الحضارة الأوربية والنظريات الوهمية الضالة:

اذا كان التقليد وفقدان الثقة بالذات والاستسلام للسلف مذموماً ومُشيناً، وقد كانوا على الحق، فهو مشين ومنهيٌّ عنه أَضعاف ذلك للكفار والمنحرفين، لأنهم أهل تيه وضلالة، ولا يخفى ان الإِنتفاع منهم في المجالات غير المتعلقة بمنهاج الحياة والخير والشر والحلال الحرام، الْمرتبطة بالمسائل المادية وإدارة المجتمع والدولة، جائِزٌ بل مُحبَّذ وقد تكون واجباً، ويختلف هذا مع ما أشرنا اليه آنفا.

---

١) للاسف ان داء التقليد الأعمى والتعصب المذهبي، اصيب به كثير من العلماء والشيوخ، وكذلك الشباب الذين يعترضون على اسلوب هؤلاء في عرض الدين، وكل من هذين الصنفين يمارسان التعصب بطريقةٍ خاصة، الشيوخ يتعصبون للمذاهب وطرق العلماء الأَسبقين، اما الشباب فيتعصبون لبعض الكتب والرسائل والشخصيات الذين يُثيرون إِعجابهم، وكثيراً ما يخطئون فهمهم! والتقليد والتعصب مذموم ومخالفة شرعية، كائناً من كان الذي صدر عنه ولايعالج الخطأ بالخطأ.

٥- الحذر من أصدقاء السوء والبطانة الفاسدة والحرص على صحبة الصالحين:

يَقُولُ رَسُول الله صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ في ذلك: {الْرَّجـلُ عَلَـى دِيـنِ خَلِيلِـهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِـلُ}، أَخْرَجَـهُ أَبُـو دَاوُدَ بـرقم: (٤٨٣٣)، وَالتِّرمِـذِيُّ برقم: (٢٣٧٨) وَقَالَ: حَـسَنٌ غَرِيـبٌ، وَالبَيْهَقِـيُّ في (شـعب الإِيْمَـان) بـرقم: (٩٤٣٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَيَقُولُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالـسَّلاَم: {إِنَّمَـا مَثلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَجَلِيسِ السُّوءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ، وَنَافِخِ الْكِـيرِ...}، مُتَّفَـقٌ عَلَيْهِ: البُخَارِيُّ برقم: (١٩٩٥)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٥٢١٤)، وَابْنُ حِبَّـانَ بـرقم: (٥٦١)، وَالبَيْهَـقِيُّ فـي (شـعب الإِيْمَـان) بـرقم: (٩٤٣٥) عَـنْ أَبِـي مُوسـى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٦- وقاية النّفس من التصدأ، والقلب من لوثات الذنوب:

وأفضل الطرق لنيل هذه الغاية، هو الحفاظ على طهارة الفكر والقلب مـن أن تُلَوِّثها النظريات والأفكار الرديئة المنحرفة، والنأي بالنفس وعدم الإختلاط مـع أَهل الكفر وأَصحاب البدع، الا أن نكـون راداً علـيهم، أو داعيـاً لهـم، وهـذا "طبعاً" لمن يجد في نفسة الأهلية، يقول الله تعالى في هذا الـصدد: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ﴾ النجم: هذا فيما يخص أهل الكفر والشرك، اما أهل البدع، فيقول الإمام البَغَوِي فِي كِتَابِهِ: (شَرْح السُنّة)، وذلك بعد أن أورد بعض نصوص القُرْآن والسنة في باب (مجانبة أهل الاهواء)[1] (قَدْ أَخبَر النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عن افتراق هَـذِهِ الأُمّـة، وظهـور الأهـواء والبدع منهم، وحَكَمَ بالنجاة لـمن اتبع سنته وسنة أصـحابه رَضِـيَ اللهُ عَـنْهُم،

---

١) انظر : (شرح السنة)ج: (١)، ص: (٢١٩- ٢٣٠).

فعلى المرء المسلم اذا رأى رجلا يتعاطى شيئاً من الأهواء والبدع معتقداً، أَو يتهاون بشيء من السنن، أن يهجره ويتبرأ منه ويتركه حياً وميتاً، فلا يُسَلِّم عَلَيْهِ اذا لقيه، ولا يجيبه اذا ابتدأ، الى ان يترك بدعته ويراجع الحق)[1].

والآن وقد سلطنا الضوء الكافي على هذه الْمَسألة، وهي تشكل اولى العوائق وأسوئها التي تقف حجر عثرة أمام تزكية النفس وصلاح الإنْسَان وتوجهه الى ربه، سنتطرق الى بعض العوائق الأخرى ونتناولها ببحث يسير.

ثانياً: الآثام الظاهرة والباطنة:

الإِثم والذنب والمعصية والسيئة، عوائق أخرى تصد عن الطريق الموصل الى الله تعالى، كما ان الطاعة والإحسان زاد الطريق الذي نحن بصدد ذكره، وقد تعرضنا لتفصيله في اثنين وخمسين بنداً في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

ومعلوم أن الآثام من حيث ظهورُها وخفائُها تنقسم الى قسمين:

أ- الآثام الظاهرة.

ب- الآثام الباطنة.

يقول تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓ..(١٢٠)﴾ الأنعام

---

١ - هناك "كما لا يخفى" امور ـ دقيقة ينبغي مراعاتها لدى تعاملنا مع اهل البدع، وليست كل البدع سواء، كما ان حكمها يختلف من زمن الى آخر، ويتباين الموقف من شخص لآخر، وكذلك فان للمصالح والمفاسد تأثيراً كثيراً على الحكم وكيفية التصدي لتلك البدع...الخ، وانما صرحت بهذه الحقيقة لانني على علم بأخطاء كثيرة ترتَكب بهذه الذريعة، وخصوصاً ممّن يدَّعون السَّير على سيرة السَّلف الصالح، ولكن كثيرٌ منهم لم يَحْظَ من سيرة السَّلف الصالح وهدَيهم، إلاّ بعنوان الإنتساب إليهم!.

ولا يخفى ان الـمقصود بالآثام الظاهرة، هي المعلنة والتي تبـدو علـى أعـضاء الجسم وتُمَارَسُ من خلاله، مثل : (اليد، الرجل، اللسان، الـمعدة، الأذن، العين ...الخ)، أما الآثام الباطنة فهي المتعلقة بعقل الإِنسان وقلبه، وهي ليـست ذنوبـاً محسوسة، وإِنـما تعرف باثـآر تدل عليها.

والآثام من حيث الكِبَرِ والصِّـغَر أَيْضَاً تنقسم الى قسمين:

أ- الكَبَائِر

ب- الصَّغَائِر

١١- وَهُنَاكَ أدلة متظافرة على هذا التقسيم للذنوب:

فمـثلاً يقـول عـز مـن قائـل: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ النساء، وَالنَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ: {الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُمَا إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ}، رَوَاهُ مُسْلِمٌ بـرقم: (٥٧٤)، واللَّفْظُ لَـهُ، وَالتِّرمِـذِيُّ بـرقم: (٢١٤) وَالبَيْهَقِـيُّ في (شـعب الإِيْمَـان) بـرقم: (٣٦١٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

وقد اختلف العُلَمَاء في تعريف الكَبيرة والصَغيرة علـى آراء متعـددة، ولكـن التعريف الراجح والذي دلت الأدلة عَلَيْهِ ـ هُوَ: (الكَبيرَة: هِيَ كُل معصية نـص على كونها كبيرة مـن كتـاب أَوْ سُـنة، أَوْ انعقـد الإِجمـاع عليهـا أَو ورد حَـدٌّ وتهديد وتوعد عليها بالنار، أَوْ أَلحِقَ مرتكبها الوصف باللعن والفسق).

١) انظر: (التوبة في ضوء القران الكريم)، ص: (٩٨)، د.امال صالح نصيـر.

وجدير بالذكر ان هذا التعريف استخرجه الحافظ ابن حَجَر العَسقَلاني، من تفسير (القُرطُبِي) واعتبره أفضل تعريف،[١] واذا كانت الكبائر بالهيئة التي ذكرنا تعريفها، فأن أيَّ ذنب لا يدرج تحت هذا التعريف، وتكون هناك قرينه شرعية تدل على كونه ذنباً، فإنه يكون صغيرة من الصغائر، مثال ذلك النظر الحرام.

وَقَد فَسَّر كثير من العلماء لفظة (اللمم)[٢] بالذنوب الصغيرة، فِي قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ.... ﴿٣٢﴾ ﴾ النجم، وَقَالَ القُرطُبِي في تفسير (اللمم)[٣]: (اللمم: صغائر الذنوب التي لا يسلم من الوقوع فيها الا من عصمه الله تعالى وحفظه).

والآن، لابأس بأن نقوم بإحصاء سريع لبعض الكبائر، الظاهرة والخفية:

١- الكَبَائِر الْخَفية : ١/ الكُفْر. ٢/ الشّرك . ٣/ الزندقة والإِلْحَاد. ٤/ النّفَاق. ٥/ الكِبْر. ٦/ الْحَسَد. ٧/ العُجب. ٨/ البُغْض. ٩/ الْحقد. ١٠/ سُوء الظّن. ١١/ احتقار الناس. ١٢/ البُخل

---

١) انظر: (فتح الباري)، ج: (١٢) ص: (١٨٢).

٢) قال صاحب (لسان العرب) عند كلمة (اللمم): (واللمم، مقاربة الذنب، وقيل اللمم مادون الكبائر من الذنوب، وأَلَمَّ الرجلُ، من اللمم وهو صغار الذنوب، ويقال هو مقاربة المعصية من غير مواقعة (لسان العرب)، ج: (١٢)، ص: (٥٤٩).

٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ج: (١٧)، ص: (١١٦).

والشّح. ١٣/ إيثار الحياة الدنيا على الآخرة. ١٤/ عدم الرّضا بقضاء الله وقدره ١٥/ عدم الولاء للمؤمنين. ١٦/ عدم البراءة من الكافرين. ١٧/ اليأس من رحمة الله. ١٨/ إساءة الظن بالله تعالى.

٢- الكبائر الظاهرة : ١/ كُل قول أَو فعل يؤدّي الى الكُفر. ٢/ السِّحر. ٣/ القَتْلُ العَمد. ٤/ أكل الرّبا. ٥/ أكل مال اليتيم. ٦/ الزنا. ٧/ اللواط. ٨/ التولّي يوم الزحف. ٩/ البُهتان ١٠/ السرقة وقطع الطريق. ١٢/ الكذب. ١٣/ شرب الخمر. ١٤/ اليمين الغموس. ١٥/ شهادة الزور. ١٦/ عقوق الوالدين. ١٧/ خلاف الوعد. ١٨/ خيانة الأمانة. ١٩/ الْميسر. ٢٠/ السخرية بالناس. ٢١/ تزكية النفس. ٢٢/ الفخر. ٢٣/ التكبر. ٢٤/ الغيبة وذم الناس. ٢٥/ التنابز بالألقاب. ٢٦/ تعيير الناس. ٢٧/ الغش. ٢٩/ المن على الناس. ٣٠/ النميمة. ٣١/ السباب. ٣٢/ عدم مساعدة المحتاج. ٣٣/ خذلان المسلم. ٣٤/ الظلم.

ولابد من لفت الإِنتباه الى ان الذنوب الباطنة والنفسية هي منبع الذنوب الأخرى، وكل ذنب -إلا مَانَدَرَ- لابد ان يكون له في القلب والنفس اصل متجذّر، ومن ثُمَّ ينبثق العزم وينعقد، ولئن كانت الذنوب الظاهرة تنقسم الى كبائر وصغائر، فأن الغالبية العظمى من الذنوب الخفيَّة المستورة، هي كبائر لا صغائر فيها، وقد تظافرت الآيات القرآنية على التأثير السلبيِّ للذنوب والمعاصي على الإِنسان ومشروعه في تزكية النفس والسير الى المولى عَزَّ وَجَلَّ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ

عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ
أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ
ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ
﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ﴾ المطففين.

وكما اتضح من الآيات الكريمة فأن الله عَزَّ وَجَلَّ يُصَرِّح بأن عاقبة الذنوب والمعاصي هي توريث القلب سواداً وضلالاً، وأنها تزيد من عُمي العين وعَمَهِ القلب، وتنتظره – فوق كل هذا يوم القيامة – عاقبة أخزى وأشد نكالاً.

يقول النَّبِيّ صاحب الخُلق العَظِيم صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ : {إِنَّ الْعَبْدَ إذا أخْطَأَ خطيئَة، نُكِتَتْ فِي قَلْبِه نُكْتَةٌ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ، صُقِلَ قَلْبُه وإنْ عادَ، زِيدَ فيها، حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ} ، أَخْرَجَهُ التِّرمِذِيُّ برقم: (٣٣٣٤) وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيح، وَالنَّسَائِيُّ فِي (الكُبرى) برقم: (١٠٢٥١)، وَابْنُ مَاجَهْ برقم: (٤٢٤٤)،و الحاكم برقم: (٦) وَقَالَ: صَحِيح، وَحَسَّنَهُ الألباني، يبين مُقتَدَانا مُحَمَّد صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ في هذا الْحَدِيث الشريف، بوضوح وجلاء، التأثيرات السيئة التي تتركها الآثام على قلب الإِنْسَان، وأما التوبة وإشهار الندم عما مضى من الذنوب، فقد عرضت في حلة قشيبة، ومنظر مُلْفِتٍ للأَنتباه!

نعم، فالذنوب والْمعاصي والْمخالفات الشرعية، سواء الظاهرة منها والباطنة، كل ذلك يشكل عائقاً يعيق طريق السير الى الله عَزَّ وَجَلَّ، فالإِنسان يبعد عن ربه مقدار ما بين السماء والأرض بذنب يصيبه، كما يقول النَّبِيّ

صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: {إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ، مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا، يَنْزِلُ بِهَا إلى النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} ، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البُخَارِيُّ برقم: (٦١١٢)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٧٦٧٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولكن الله سبحانه وتعالى جعل لكل داء دواء، ودواء المعاصي هو التوبة والندم الى الله تعالى، ولهذا يقول أهل التزكية والعِرفان: أحياناً يدفع الشيطانُ الإنسانَ الى ارتكاب معصية ما، وَلَكِن هَذَا العَاصِي يُظْهِرُ الندم الى الحد الذي يندم الشيطان علىٍ ما تَسبَّبَ في ارتكاب هذا العبد للمعصية، لأنه يعلم ان تَوبَتَهُ ونَدَمَهُ على ما اقترف يجعله خيراً مما كان قبل اقترافه لها.

وقد قال (عطاء الله السكندري) في حكمة وكلمة مضيئة: (ومعصية أورثت ذلاً واحتقاراً، خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً).

ثالثاً: الإهتمام الخارج عن حده بالحياة الدنيا:

الحياة الدنيا وان كانت في نفسها نعمة من أفضل نعم الله تعالى على الإنسان، لكننا عندما نوليها اهتماماً زائداً عن حدها، وعندما تصبح الدنيا غاية تراد لذاتها، حينئذاك تغدو عائقاً وأشواكاً تتوزع على طريق الصلاح والسير الى الله تعالى عَزَّ وَجَلَّ، ولذلك فقد عدَّ الله تبارك وتعالى إيثار الحياة الدنيا والتعلّق بها سبباً لورود الجحيم، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ النازعات.

﴿ ...وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ ....﴿٣﴾ ﴾ إبراهيم، وكذلك جعل ذلك من سمات الكفار

والملحدين: ﴿...وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ ...﴿٣﴾﴾ إبراهيم، أما الأدلة على كون شدة التعلق بالدنيا عائِقاً على الطريق المذكور فكثيرة ومتظافرة، ولكن المقام لايتسع للتفصيل، فَنَكْتَفِي بإيراد دليل واحد فقط: فِي معركة أُحد، بعد أن عصى الرماة الذين كانوا على الجبل، أمْرَ النَّبِيِّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بملازمة أماكنهم، وكذلك خالفوا أمر أميرهم، انقلب عليهم النصر الذي كان حليفهم في بداية الْمعركة الى هزيمة، واستشهد مِنْهُم سَبْعُون صَحَابياً، فَقَالَ تَعَالى فِي ذلِكَ: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ... ﴿١٥٢﴾﴾ آل عمران، في الآية الكريمة، يشير المولى تبارك وتعالى الى عدد من الأسباب التي أدت الى ما حدَثَ في تلك المعركة، ولكنه تعالى يعزو جميع الأَسباب آخر الآمر الى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾.

وبهذه الصيغة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾، ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾، ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾!!

نَعَمْ، فبسبب التعلق الخارج عن حدِّه بالدّنيا، فإن رماة السهام آثروا اللِّهاثَ وراء الغنائم على تنفيذ أوامر النَّبِيِّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فاستلزم جمع الغنائم عصيانَ الأوامر النبوية، والعصيان أدى الى التنازع واختلاف ذات البين، ثم أصابهم الفشل!

رابعـاً: النفـس وشـهواتهـا:

قد سبق أن أوضحنا أن لفظة النفس مرادفة للـروح، مـن جهــة امتــزاجها مـع الجسد وسعيها لتحقيق رغاباتهـا.

والله سبحانه وتعالـى مـن منطلـق انـه خلـق الإنـسان ليبتلــيه، ووضـع فيـه اسـتعداد القيام بالحسنات والسيئات، ليكون بإِمكانه الإرتقاء بـسبب العبوديـة والإِحسان، وكذلك يكون بـمقدوره الإِنحطاط بسبب رغبات النفس واقـتراف السيئات، يقول تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ الشمس.

نعم اخواني واخواتي الْمُسْلمين الأَحِبَّة!

ان النفس وسيلة يتمكن الإِنْسَان من خلالها بلوغَ درجـات الجنّـة العُليـا، اذا استطاع أن يُلْجِمَها ويكبح جِماحَها بالتَّقْوَى وصنوف الطاعات والتزكية.

كما ويتمكن من خلالها أَيْضَاً التوجّه الى دركات الجحيم السفلى، كَمَـا قَـالَ تَعَــالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١ ﴾ النــازعات.

ان التمرد وانتهاك الحدود + إِيثـار الحياة الدنيـا = دخول النّـار.

والخشية من الحق تبـارك وتعالـى + ردع الـنَّفْس عـن مراماتهـا الـمخالفــة للشــرع = دخول الجنّـة.

ثم ان النفس الإنسانية باجماع العلماء والمختصين في مجال التزكية والتصوق، تكون لها حالات ثلاث:

١- النَّفْس الأمَّارَةُ بالسُّوء: كَمَا قَالَ تَعَالى حكاية عن يُوسُف عَلَيْهِ السّلاَم: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ ﴾ يوسف، ويبدو ان هذه الحالة السلبية للنفس هي الحالة الأصلية والأولية لها، قبل أن يبدأ صاحبها بأية خطوات في تزكيتها أو كبح جماحها، والأدلة كثيرة على جنوح النفس أَساساً الى السيئات والْمَعَاصِي، ومنها الآية السالفة الذكر وآية أخرى، هي قوله تعالى: ﴿ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ ﴾ الشمس، وهذا نص في ان نفس الإِنْسَان فِي أصل تكوينها تميل نحو الأهواء، ومغروزة فيها حب الشهوات والسيئات.

٢- النَّفْس اللَّوَّامَة: كَمَا يَقُولُ عالِمِ السر والعلن: ﴿ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢ ﴾ القيامة.

هذه هي الحالة الثانية للنفس، وصاحبها ـ بعد ان يكون قد زكاها ـ مستعد وخفيف النفس للبدء في السفر الى ربّه من الطغيان والْمعاصي، والنفس تستجيب لذلك تارة فتنقاد للشرع، وتارة تعود الى طورها السابق من العناد والمشاكسة، وتلوم صاحبها في منعها من الشهوات الْمُحَرَّمة، أَوْ تلوم نفسها وَتَقْرعُهَا على جنوحها أحياناً للإنحراف والسوء.

٣- النَّفْس الـمُطْمَئِنَّةُ، كَمَا يَقُولُ رَبّنا الوهاب الحكيم: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾ الفجر.

وهذه هي الحالة الثالثة والأخيرة لمجاهدة النفس، والإِنسان في هذه المرحلة، يكون قد بلغ الكمال، لان الله عَزَّوعلا خاطب هذه النفس بلطف وتقدير كبير، وهو تعالى – إضافة الى وصفها بالسكينة والإطمئنَان – بشَّرها بدخول الجنّة، والسعادة بلقاء عباد الله الْمُخلِصين الأخيار، وبرضاه سبحانه وتعالى عنها، ولا ريب ان كل هذا اللّطف والتقدير والرحمة والبشارة والعطاء الهادر، لا يستحقها الاّ الإِنسان الكامل.

ولابد من القول هنا: رغم ان انقياد الإِنسان لشهواته وأهوائه، عائق ثقيل الظل يُعِيقُ السير في طريق الصلاح والسير الى الله تعالى، ولكن يجب الحذر أَيْضاً من أنَّ الإِسلام لا يقبل بحال من الأحوال، القضاء على الشهوات ورغائب النفس جملةً وتفصيلاً، إذْ لا يمكن الإستمرار في ذلك ولا يمكن للحياة أن تستمر دون تلبية الحاجات الطبيعية وإشباعها بما يوافق الشرع، وَلذلك قَالَ نَبيّنا مُحَمَّد صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عندما جاء النفر الذين سألوا أزواجه عن عبادته عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَم ثُمَّ قَالوا: أَيْنَ نَحْنُ مِن رَسُول صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَقدْ غفَرَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأخَّرَ، فَقَالَ أَحَدُهُم: أَنا أَقوم اللّيل وَلاَ أَنَامُ، وَقَالَ الآخر: أن أَصُوم فَلاَ أُفطِر، وَقَالَ الآخر: وأَنا لاَ أُعاشِر النِّسَاءَ وَلاَ أَتَزَوّج أَبَداً، وَعِنْدَمَا علم النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بذلك، قَالَ جَوابَاً عَلَى مَوقِفهم العَاطِفي الخَاطِيء: {أَمَا واللهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أصُومُ وَأُفْطِرُ، وأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّساءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي

فَلَيْسَ مِنِّي}، مُتَّفَقٌ عَلَيهِ: البُخَارِيُّ برقم: (٤٧٧٦)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٣٤٦٩)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٣١٧) عَنْ أَنس بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إذاً ففي حدودما أمر به الشرع وسمح به، تكون تلبية رغبات الغزيرة الواقعة ضمن دائرة الشرع نوعاً من الطاعة، ولا يجوز إسكات تلك الحاجات، وَلاَ يستلزم التدين والعبادة ذلك، بل عَلَى العكس فأنّها في حدود الشرع تكون حَسَنَةً وَصَدَقَةً، كَمَا قَالَ النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عن جماع الإنْسَان مَعَ زَوجته: {وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةً}، رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (٢١٥١١)، مُسْلِمٌ برقم: (١٤٠١)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٤١٦٧) عَنْ أَبِي ذَرّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

خامساً: المتابعة والتقليد الأعمى للأقدمين:

للتقليد والمتابعة غير المتبصرة على نهج الاقدمين، والمحيط الذي تكثر فيه الأخطاء والإنحرافات، دور خطير في تثبيط عزم السائرين على طريق الله سبحانه وتعالى، وتلك حقيقة تاريخية وواقعية لا تَخفَى.

وقد أشار اليها المولى عز وجل في مواطن كثيرة من كتابة العزيز، وكذلك النَّبِيُّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ في عدد من الأَحاديث الشريفة، يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ الزخرف.

وقال تعالى أيضا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ البقرة.

وَيَقُولُ النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: {مَا مِنْ مَوْلُودٍ إلاّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تَجِدُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ}، أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ برقم: (١٢٩٢)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٦٩٢٦)، وَأَبُو دَاوُدَ برقم: (٤٧١٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ.

نَعَمْ ، هنالك دور كبير يلعبه الأسلاف والمحيط الذي يعيش فيه الإنْسَان، سَواء من الناحية الإيجابية ان كانوا صالحين، أَوْ مِن الناحية السلبية ان كانوا طالحين، ولهذا فالإسلام يُولِي اهتماماً عظيماً باصلاح المجتمع من سائر النواحي الفكرية والأخلاقية والإجتماعية والإقتصادية والسياسية، إذْ كما أن العقل السليم في الجسم السليم، كذلك الإِنْسَان السليم يكون في المجتمع السليم!

سادساً: عدم وجود الشيخ المرشد:

لا تخفى أهمية وضرورة المرشد والمعلم في مجالات حياة الإنسان، فهذه مسألة واضحة لا تحتمل نقاشاً، وهي في حالة السير الى الله تعالى أوضح وأشد ضرورة، ذلك ان الطريق الآنف الذكر بالغ الأهمية، وعلى الإِنْسَان ان يأخذ جانب الحذر ما استطاع الى ذلك سبيلاً.

وان لَمْ يَكن في سيره يقظاً منتبهاً، فستعترضه عَقَباتٌ ومهاوٍ لا يُستَهان بها، ولست أعني ان أَقول: يصعب على الإنسان من دون مرشدٍ أن يُصْلِح نَفْسَهُ ويعبد ربه، لأنَّ الإنسان بطبعه يعرف ربه ويعبده كما اتضح ذلك مِن حَدِيث النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ الذي سبق ذكره، الإنْسَان مفطور بطبيعته على الصلاح والطهر ومعرفة الله جل شأنه، بل غاية ما أعنيه هنا أن الذي يريد

التعمُّقَ في إصلاح نفسه، ومعرفة ربه، وَلَمْ يَكْتَفِ بما يفعله سائر العوام، بل كانت همته ترمق مدىً بعيداً، حينها عليه اليقظة والحذر، ولا بد لهذه الغاية النبيلة من معلم ومرشد، إلاّ لما شَذّ وَنَدَرَ من الناس! وانما أدعو لكل تلك الحيطة والإنتباه لأنه يبغي مرتقىً صعبٍ، ممثلاً في قمة التعبد لله الأحد الصَّمَد تبارك وتعالى، وكلما علا الإنسانُ، زادت الْمخاطر التي تحف به، ولذلك يقول أهل العرفان والتصوف الحقيقي، بأن آية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩ ﴾ التوبة، هي شعار للسالكين على طريق السير الى الله عَزَّ وَجَلَّ فلا يستقيم أمرك بمجرد التَّقْوَى، بَلْ عَلَيْكَ ان تَصْطَفَّ في صفوف الصالحين أَيْضَاً، تَماماً كَمَا ان الطالب الذي يريد تعلم الطب، لايكفيه قراءة كتب ومؤلفات الْمختصين في الطب، بَلْ يجب ان يفهم الصنعة ويُتْقِنَها من خبرائه ومختصيه.

وجدير بالذكر ان كلمة الشيخ استعملت في حينه بمعناها الشمولي، فالشيخ كان يُفَقِّهُ الناس، ويربِّيهم ويَسِيرُ بهم نحو رَبِّهم، وبلسان الحال والمقال وعلى أساس راسخ من الكتاب والسُنَّة، لكن هذه اللفظة - أسوة بألفاظ كَثيرة أخرى - لَحِقَها الإِنحراف والتشويه، بعد أن ساد الإِنحرافُ وَعُمَّت به البلوى.

سابعاً: الغفلة:

النسيان والغفلة عائق آخر من عوائق الطريق، وكما ان قطاع الطرق ينتهزون فرصة نوم صاحب المَال وغفلته وَيَنْقَضّوُن عليه تحت جَنْحِ الظّلام، وكما ان الذئب ينتهز فرصة غفلة الراعي، فالشيطان اللعين أيضا يستغلُّ غفلة الإِنْسَان فيضرب ضربته، هذا من جانب.

ومن جانب آخر فلو فرضنا جدلاً أن الشيطان لا يُوقِعُ بالغافل والساهي، فأن الغفلة في حد ذاتها مضيعة للعمر والوقت، والعمر هو رَأس المال الوحيد له، فإذا خسره فكأنما خَسِرَ نفسه!

وهناك آيات وأَحاديث كَثيرة تُبيِّن أضرار الغفلة ومخاطرها وسنعرض بعضها، قَالَ تَعَالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ طه، ويَقُولُ تعَالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ الحشر، وَيَقُولُ النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: {الشَّيْطَانُ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا سَهَا وَغَفَلَ وَسْوَسَ، وَإِذَا ذَكَرَ اللّهَ خَنَسَ}، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ تَعْلِيقَاً فِي التفسير.

إذاً يا أَيُّهَا القَارِيء العَزيز! حاول جاهداً ان تكون صاحياً يقظ القلب، كالراعي الْمتنبه الذي يهتم بقطيعه، ويسهر على الحفاظ عليه، فكن لساعات عمرك الغالية راعياً ومحافظاً عليها ان تَذْهَب سدىً، وأَضِيءْ بيتَ قلبك دوماً بذكر الله تعالى، حَتَّى لاَ يكون مأوىً للخفافيش ووساوس النَّفْس والشيطان!

ثامناً: الشَّيْطَان:

الْحَقيقة ان الشيطان لعنه الله يعتبر عائقاً من أَشَدِّ العوائق التي تعترض طريق السالك في سيره الى رَبّه عَلَى طريق الصلاح، وقد أشار الى ذلك رَبّنا تَبَارَكَ وَتَعَالى فِي الكثير من الآيات القُرْآنية، مثال ذلِكَ قَوْلِهِ تَعَالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ... ﴿٦﴾ ﴾ فاطر، وانّما أخّرنا ذكر هذا العائق الى آخر بحثنا، لأن الشيطان لعنه الله يتخذ مما مر معنا من العوائق طرقاً للإغواء والإيقاع بالإنسان.

نَعَم ان الشيطان الدنيء لعنه الله، يُغرِّر بالإِنْسَان ويُزَيِّن لَهُ الْمَعَاصِي، عن طريق الفهم الخاطيء للإسلام، والآثام الظاهرة والمستورة، وطغيان حُبِّ الدّنيا وشهوات النفس، والتقليد الأعمى للسابقين والمحيط الذي يعيش فيه الانسان، وكذلك بانعدام المرشد الناجح، وبالغفلة ونسيان الله تعالى، وبذلك يحقق غايته الدنيئة والتي هي عبارة عن إِبعاد الإِنسان عن ربه. اذاً أَيُّهَا الْمُسْلِم الحبيب!

كانت إن هذه العوائق الثمانية من اشد العوائق التي تعترض طريق السالكين، طريق الصلاح والسير الى رَبّهم، فاحفظ نفسك من الوقوع في احدها ولا تخشين منها، ولكن دَقِّق النظر فيها وتعرَّف إِلَيْهَا، فلا شيء يتمكن من النيل من عباد الله، والذي ينعم برائحة الورود، لابد ان يصبر على أَذى أشواكها أَيْضاً، وما أجمل مَا قَالَ الشاعر:

بقدرِ الكدِّ تكتسبُ المعالي
ومن طلب العلا سهر اللّيالي

وأنا آمل منك أَيّها العَزيز! ان تتحدى تلك العقبات والعوارض بايمان رَاسخ وعزم لايلين، وقلب منعمٍ بالإِيْمان، والاّ يستوقفك شَيء مِنْهَا، حَتَّى تصل الى غايتك ومرادك بإذنِ الله العَزِيز الرَّحِيم.

الفصل الخامس

إِيضاح بَعض الحقائق، وتصحيح جملة من الأخطاء في مجال تزكيـة النَّفس

إِخـوتي الأعـزاء![1]

بعد ان سلطنا الضوء في الفصول السابقة – الى حدما – على تعريف تزكية النفس ومراحل الرحلة الى الله تعالى، وأسباب الصلاح والتقرب الى الله تعالى، والحواجز التي تعترض طريق السالكين، سنتعرض في هذا الفصل بإذن الله تعالى – فِي اثني عشر بنداً ملخَّصَاً – الى ذكر مجموعة من الحقائق، ثُمَّ نُعَرِّجَ إلى بَعْض الأَخْطاء فَنُصَحِّحُها، وهي أخطاء وقع فيها أَتْباع ومريدوا الطرق الصوفية ومعارضوهم، وأصيبوا فيها بداء الإِفراط و التفريط، نسأل الله تعالى ان يجعلنا ممن يدعو بهذا الدعاء ويستجاب لهم : (اللّهم ارنا الحق حقاً وارزقنا اتّباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه).

أَولاً: ان تزكية النّفس هي قاسم مُشترك بين جميع الْمُسْلِمين وَخصوصاً العُلَمَاء والأَئِمَة، وَلَكِن بَعْضهم متخصص فِيها:

نَعَمْ أَيُّها القَارِيء الحبيب! إِنَّ تزكية النّفس التي جعل الله تعالى عاقبتها الفلاح المطلق: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ الأعلى، بخلاف ما يتصور الكثيرون، ليست حِكْرَاً على جماعة معينة، ولكن كما ان الجوانب الأخرى لها متخصصون، مثل: الدعوة والجهاد والتعليم والتربية ...الخ، فكذلك تزكية النفس لها متخصصون.

وعلينا ألاّ ننسى حقيقة مفادها: كما أَنَّ الذي يتسمَّى بـ (السلفي) ليس بالضرورة ان يكون متقيداً بمنهج السلف الصالح وآدابهم، أو مُستمِدّاً من بركتهم، فليس بالضرورة أَيضاً ان يكون كل من اشتهر بالصوفي يكون حاوياً لجوهر التزكية والعرفان، فكم من سلفي ليس له منها الاّ الإِسم، وكم من صوفي لَمْ يَنَلْ منها إِلاّ الشهرة، وهناك من لَمْ يتلقب بأية القاب أَوْ مصطلحات، ولكنه -كفحوى وجوهر- استفاد كثيراً من اتّباع آثار القرون الثلاثة التي أشار إِلَيْهَا رَسُول اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ،[1] واعتبر هم خير

---

١) ١/ كلمة (إخوة) يشمل مفهومُها الجنسين كما قال تعالى: ﴿...وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً... ﴿١٧٦﴾﴾ النساء

٢/ يَقولُ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ : {خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ} رَوَاهُ الْبُخَاري برقم: (٢٥٠٨).

٣/ وَيَقُولُ عَلَيْهِ الصّلاة وَالسلام أَيْضَاً: {خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم}، وقال صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَيْضَاً: (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ} ، رَوَاهُ الْبُخَاري برقم: (٦٦٣٥)، ومُسْلِمٌ برقم: (٦٦٣٥)، انظر (السنة) لابن ابي عاصم ج٢ ص٩٧٥-٩٨٢ و(السلسلة الصحيحة) ج٢ رقم: ٦٩١، ٧٠٠.

القرون وهم الذين عرفوا بالسلف الصالح، وهناك أَيْضَاً من لَمْ يعرف بالصوفي، ولكنه أُوتي حَظاً عظيماً من التزكية والتصوف والعرفان.

اذاً الحذر الحذر، وعلينا النظر الى حقيقة الناس وجوهرهم، وليس في هيئاتهم وأشكالهم لكي لا نقع في تقييمنا لهم في الاخطاء والتصورات العجيبة.

ثانياً: لاتتحقّق تزكية النّفس بالشكل المطلوب إلاّ في ميدان العمل والتطبيق:

ان كثيراً مِن الصوفية – وبذريعة انشغالهم بتزكية أَنفسهم – يعتزلون الناس ويتركون ميدان العمل والتكسب وساحات القتال والجهاد والإهتمام بأمور الْمُسلمين، وهم يتوهمون انهم بعملهم هذا يُمَهِّدون لتزكية أنفسهم، والحقيقة ان هذا التفكير تفكير خاطيء، وذلك لجملة من الأسباب:

١- يفهم من نصوص القُرآن وَالسُنَّة، أن تزكية النفس إنّما تَتِمُّ في مَعْمَعَة الإنشغال بالعَمَل والتكسب والنشاطات الجارية في المجتمع، مثلاً يقول تعالى:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾ النور.

نَعَمْ ان الشجاعة ان تبقى ذاكراً لله تَعَالى مراعياً لفروضه، وأنت في خضم العمل والتكسب والتجارة والتعامل مع الناس.

وَيَقُولُ النَّبِيُّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: {إِنَّ الْمُؤْمِنَ الّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الْمُؤْمِنِ الّذِي لاَ يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلاَ

يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ}، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ في (الأدب المفرد) برقم: (٣٨٨)، وَابْنُ مَاجَهْ برقم: (٤٠٣٢) وَصَحَّحَهُ الألباني في (السلسلة الصحيحة) برقم: (٩٣٩).

٢- الإنسان من خلال مواجهة مشاكل الحياة ومتاعب الأيام، يتمكن من فهم نفسه وتقييمها، فيتبيِّنُ له مدى صبره وإشجاعته وإِيثاره الحياة الآخرة واحتقاره للحياة الدنيا، وكما قال الغزالي ما معناه: (ان عيوب الانسان ونواقصه والتي تعرف بالرذائل، مثل الدمامل التي تظهر على الجسد، لا يشعر صاحبها بالألم حتى يُصيبُها شَيءٌ)!

٣- ان الذين كانوا يحيطون بالنَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بمن فيهم الأَصْحَاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، انما تَزَكّتْ أَنفسهم وتَمَحَّصت وتَميَّز الصالحون من غيرهم، فِي خِضَمِّ الصِّعاب والْمواجهات والْمعارك، وبين الْمعاناة والمحن الْمادية والْمعنوية الْمتنوعة، ولذلك يَقُولُ الله متحدثاً عن معركة أُحُدٍ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ...﴿١٧٩﴾﴾ آل عمران، وَكَمَا قَالَ الْحُكَمَاء: (عِنْدَ الإِمْتِحَانِ يُكْرَمُ الْمَرْءُ أَوْ يُهان)، وَكَذلِكَ قَالُوا: (الشّدَائِدُ صَيْقَلُ الرّجَال).

ثالثاً: الفارق بين النفس الزكية وغير الزكية، هو مدى الإلتزام بالشرع:

ونحن قلنا في أحاديثنا السابقة بأن نتائج تزكية النفس تظهر في تعميق الجانب الإيماني في الْمُسْلِم والوصول به الى مرتبة الإِحْسَان.

فلا يتوهَّمنَّ أَحَدٌ ان يبلغ الذروة للتزكية بالإدعاءات المجردة، والتسمّي بالأسماء بمعزل عن الفحوى، ولكن من يكن أَعلمَ بالحق الذي بعثه الله إلى نَبيه

صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وأَكثر التزاماً به وأخضع له، فذلك علامة تزكية، وعلى العكس من يكن جاهلاً بذلك الحق، مبتعداً عنه، فهو يشهد على نفسه بعدم التزكية، والله تعالى يقول: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ النازعات.

وكما ترى فإن الله سبحانه وتعالى جعل دخولَ النار، عقاباً لمن قادته نفسه الأَمّارة بالسُّوء تجبُّراً وعصياناً، الى مستنقع عبادة الدنيا، وكذلك جعل الإستقرار في الجنة، جزاءاً لمن قاده ايمانُهُ وخشيته من ربه، الى تذليل نفسه وضبطها وتخْليصها من المحارم والمنهيات، إذاً فاحتضان الدنيا واللهاث وراء شهوات النفس وارتكاب المحارم، وتخطّي الحدود الشرعية، شعار وعلامة للعصاة ومن لا يخشون الله تعالى، وعلى العكس فإلجام النفس وإيثار الآخرة والزُهد في الدنيا، علامة ودليل على الخشية لله تعالى والتجرُّد له.

رابعاً: الْمَصدر الوحيد للتديُّن – وبضمنه تزكية النفس – هو شرع الله تعالى فقط:

نَعَم أَيّها القاريء العزيز!

كما ان الله تعالى وتقدَّست أسماؤه، لاشريك له في ألوهيّتة، فكذلك شريعته لا يدانيها منهج أَو شريعة أخرى، والْمقصود بالشريعة – كما هو معلوم – الكتاب والسنة.

إذاً: فما اعتاد أهلُ التصوف ترديدَه: بأن لهم قضايا ثلاث: الشريعة والطريقة والحقيقة!! لا يمت للشرع بصلة، الاّ بالتأويل والترقيع! وهو كلام باطل، بل

هو إن لَم يؤوّلْ ويُوَجَّهُ توجيهاً صَحِيحَاً، قَدْ يؤدِّي إلى نوعٍ من أَنواع الكفر والشرك، وَكيف يستقيم ذلك والله تعالى يقول: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ الجاثية، وعلى هذا فكل شيء خارج عن الشريعة، أيًّا كانت تسميته وعنوانه، فهو واقع في دائرة: (أهواء الذين لا يعلمون)، ولا تَخفى حرمة اتباع أهواء الجاهلين، وقد دَلّتْ على ذلك آياتُ القُرْآنِ الكَرِيم وسُنَّة النَّبيّ الخَاتَم صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ، أما محاولة التأويل أَوْ الترقيع لذلك التقسيم المبتدع فَتَتَمَثَّلُ في القول:

١) الشريعة هي الدين والمنهج الذي أَرسله الله تعالى الى خاتَم أَنبيائه مُحَمَّد صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ولايرضى الله تعالى بغيرها بديلاً: ﴿ ... وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ...﴿٣﴾ ﴾ المائدة.

٢) والطريقة عبارة عن منهج وكيفية خاصة للعمل والتنفيذ لذلك المنهج وتلك الشريعة، والمنهج هو منهج النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، ويجدر بي أن أذكر أنَّ أياً من الأَئِمَة ورجال العرفان والتصوف ذو الباع الطويل، لَمْ يرشدوا أحداً من مؤيِّديهم الى غير منهج النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، مَعَ ان طرقهم عرفت بأسمائهم، وانما تولّى كِبْرالقيام بذلك بعض الجهلة وضَيِّقي الأُفُق من أتباعهم، الذين تصوروا: (الطريقة القادرية) أَوْ (الطريقة النقشبندية) أَوْ (الطريقة الرفاعية) أَوْ (الطريقة الكوبروية) أَوْ (الطريقة النبهانية) ..الخ، بأنها عبارة عن الآداب والْمراسيم الخاصة بالتدين والتي وضعها كل من: (عبدالقادر الگيلاني) و(بهاء الدين نقشبندي) و(سيد أحمد الرفاعي)...الخ !! وهذا التصور اضافة الى كونه خطأً فظيعاً، هو تهمة كبرى تُسْنَدُ الى هؤلاء العارفين بالله – عَفَا اللهُ عَنْهُمْ –

الذين حاولوا جهدهم أَلاّ يحيدوا عن شريعة[١] النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قيد شعرة[٢].

٣) أما الحقيقة فيعنون بها الأشياء التي يتوصل اليها المُسْلِم، ببركة تطبيقه للشرع بطريقة خاصة، مثل: حقيقة الإِيْمَان، وحقيقة التقوى، وحقيقة الزهد... الخ، إذاً: فالطريقة والحقيقة كلتاهما تكونان فِي دائرة الشريعة وَلَيْسَ خارجها، والحقيقة ان هؤلاء الجهلة الذين يميزون الحقيقة والطريقة عن الشريعة، يحكمون على أنفسهم وشيوخهم وكذلك طريقتهم بالضلال، ان كانوا يفهمون مؤدَّى كلامهم!!

وخلاصة القول: انه لا يَجوز ذكر كلمة اخرى مع (الشريعة) من قبيل الطريقة والحقيقة، إلاّ بالمعنى الذي ذكرناه، من ان الطريقة تكون نهجاً وكيفية لتطبيق الشريعة، وان الحقيقة تكون ثمرها، وأنَّ كَلتيهما تنبثقان عنها.

خامساً: لايجوز حرمان أنفسنا ــ بسبب الحساسية من كلمة التصوف، والأخطاء الموجودة في مصادره – من الخير والإيجابيات الموجودة فيه:

نحن سبق ون عَرَّفْنَا كَلِمَة التَصَوّف ولسنا في حاجة لإعادته هنا، والتصوف كما هي الحال مع كثير من الكلمات والمصطلحات الأخرى[٣]، لَمْ يرد هكذا

---

١) الزم الحذر ولا يختلطن الأمر عليك، فَتتوَّهم أننا ميَّزنا منهج النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عن الشريعة، لأن السُنَّة هي المكون الثاني للشريعة، وهي ايضاً منهج في كيفية السير عليها.

٢) لا أن يأتوا بشيء مستجد ومبتدع مباين للدين، وبالنتيجة يَصْدُق عليهم وصف المبتدع، وبدل أن يرشدوا الناس يضِلّونهم عن الصراط المستقيم.

٣) مثلا مصطلحات: العقيدة، علم التوحيد، علم الكلام، الفقه الأكبر، التي استعملت للإيمان، ومصطلحي: (الفقه، وأصول الفقه) للقواعد الشرعية وكيفية استنباطها، ومصطلحات: (التفسير، علوم القران، التجويد) أو مصطلحات: (السنة، علم الحديث، علم الجرح والتعديل)...الخ.

في القُرْآن وَالسُنَّة، بل هو مِما استحدث لاحقاً، وهـذا لَـمْ يَكُـن اشـكالاً عِنْـدَ العُلَمَاء، فَهم كانوا يقولون: (لامشاحة في الإِصطلاح)، ثم ان تراث التـصوف، وأي تراث آخر، يكون من نتاج عقل الانسان وتجربتـه، لابـد ان يحتـوي علـى أخطاء وتقصير، ولا يُسْتَثْنَى مـن هـذا حتـى تفاسـير القـرآن وشـروح الـسنة، وهكذا الحال بالنسبة لـمصادر الفقه وأصوله، وعلم الكـلام، والعلـوم العقليـة والتجريبـية الـمجـردة، فلا شك ان كـل ذلـك يحتـوي أخطـاءً جِـساماً، إذاً: فليعلم الذين يَحْرِمون أنفسهم من الإستفادة من مصادر التـصوف ويـمتنــعون عن مطالعتِـها مطلقــاً، بـسبب حـساسيتهم المفرطـة حيـال لفظـة (التـصوف)، ليعلموا ان موقفهم خاطيء شرعاً وعقلاً، أما من الناحية الـشرعية، فـالله تعـالى يقول: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨ ﴾ الزمر.

وأما من الناحية العقلية، فممّا يتنافى مع المنطـق والعقـل، أن يَحْـرِمَ الإنـسانُ نَفْسَهُ فاكهةَ وثمارَ بستانٍ كبيرٍ، بسبب فساد بعضها، أوعدم صلاحها للأكل، أو لأن الدود نخرفي بعض الأشجار من ذلك البستان الكبير، فهـل يعقـل ان يَحْـرِم أحدٌ نَفْسَهُ من كل العلوم والمعاني الدقيقة والمنسقة التي وردت في كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام الغزالي حول تزكية النفس، بذريعة خطأ بعـض التـصورات لُمصَنِّفه وتسرُّب بعض الأفكـار اليونانيـة والبوذيـة والنـصرانية إليـه، أو لكـون الكتاب احتوى على بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة[1]، واذا تعامـل أحـدٌ

---

١) ولاينكر أَن ايراد الحديث الضعيف والموضوع والإستدلال بهما، تقصير مـن الإمـام الغزالـي، ولكن الامام الغزالي عالم له هذا الإشكال والإحياء ليس كتاباً في الحديث لكـي نبحـث هنـاك عن الأحاديث اذاً: فلنتعامل وفق قاعدة: (خُذْ ما صَفا دع ما كدر) والعصمة مرفوعة عن غـير القرآن والسنة الصحيحة.

هكذا هل بإمكانه أن يقول بأنه تعامل وفق الآية القرآنية: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ ... ﴿١٨﴾ ﴾ الزمر؟!

سادساً: التزكية والتصوف، والدروشة والإنخراط في طريقة ما، ليست أموراً متلازمة:

يظن كثير من أهل الطرق الصوفية أن الشخص لا يمكنه الوصول الى تزكية النفس حتى يلج الجمل في سم الخياط، ان لم يكن منخرطاً في احدى الطرق الصوفية، بل ان بعضهم يقول لابد له من الإنخراط في طريقة بعينها، لكي يصل الى الأحوال والمقامات التي يمر بها السالك، والحقيقة ان هذا تصور خاطيء وباطل، وذلك لأنه:

١/ لايوجد عليه دليل شرعي واحد، وانما هو ادِّعاء مجرد.

٢/ العقل والواقع يكذبان ذلك، وخير دليل على هذا هم أصحاب النَّبِيِّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ والمعروفون من أهل بيته والأئمة من أمثال: (الحسن البصري ومحمد بن سيرين وسعيد بن المسيّب وعمر بن عبد العزيز وأبو حنيفة ومالك وسُفيان الثوري والشافعي وأحمد وداود الظاهري والطبري ... الخ)، والذين لا يرتاب أحد في كمال إيمانهم وتزكيتهم وصلاحهم، فلم يكن أحد من هؤلاء منتمياً الى إحدى الطرق الصوفية، ولم يكونوا متعلقين بغير منهج النَّبِيِّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، ومن جانب آخر ليس بالضرورة ان يكون كل من تسمى بالصوفي والدرويش والمريد وما الى ذلك من الألقاب، وكان تابعاً لاحدى الطرق الصوفية، ان تكون نفسه مزكاة، بل بعضهم لم يَحُزْ من شرف التزكية، الا اسمه، بل علاوة على ذلك موغلون في الدناءة والسفالة، وعاجزون ومتخلِّفون!

سـابعاً: مَنْ هُوَ الوَلِـي وَمَا هِيَ الكَــرَامَةَ ؟!

١/ بـحث حول الولـي:

لفظة (ولي) تأتي بمعنى المحب والناصر والقريب والمحبوب*، أما تعريف الـولي فقد عرَّف الله الولي فلا نحتاج الى تعريف غيره، يقـول سُـبْحَانه معرِّفـاً أحبابـه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ يـونس[1]، وكمـا تـرون فقــد عــرَّف الله تعالــى عبـاده الــمهتدين وأَحِبَّـاءَهُ الْمُقـرَّبين، بهـذه الصِّفات الخمس:

١) عدم الخوف (والْمَقصود عدم الخوف مِما يخاف منه عوام الناس).

٢) عدم الحزن (والْمَقصود عدم الحزن والتضايق بسبب الدنيا).

٣) الإِيْمان.

---

*) انظــر: (مفردات ألفاظ القرآن) ص: (٨٨٥)

١) تحدث (ابن تيمية) في كتابه: (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) عن كيفية نشؤ كلمة (الصوفية) وَقَالَ: كَانَ سابقاً تـستعمل كلمـة (القـراء) لمـن كـان عنـدهم زيـادة مـن العبـادة والتقوى، ثُمَّ قال: (وقـد تنـازع النـاس: أَيُّهُمـا أفـضل: مـسمى الـصوفي او مـسمى الفقـير؟ ويتنازعون أيضاً: أَيُّهُما أفضل: الغني الشاكر ام الفقير الصابر؟ والصواب في كل ذلك مـا قـال تبارك وتعالى: ﴿... إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ... ﴿١٣﴾﴾ الحجرات، (تفسير القاســمي) ٩٤، ص: (٥٦-٥٧)، إذاً: لنتعلم نحن كذلك من هذا العالم الجليـل الحكمـة والفقـه، ونَنـأى بأنفسنا عن التفوّه بالكلام السطحي الفارغ، والغير مستند الى الدليل الشرعي.

٤) التَّـقْـوَى .

٥) البُشْرى فِي الدنيا والآخرة.

وأولياء الله وان كانوا عُرِّفوا بهـذه الـصفات، لكـن الإِيْمـان والتقـوى همـا الصفتان الأساسيّتان اللّتان يعرفون بهما، اذاً: فميزان أولياء الله تعالى عبارة عـن مقدار استحصالهم للإيْمان والتقوى، والإيمان والتقـوى عنـدما يجـري الحـديث عنهما على حدة وينفردان فِي سياق، فإِنهما يشملان الدين بأسره، ومنهـاج الله تعالى بسرِّه وجهره، وأمـا اذا جـرى الحـديث عنهمـا معـاً واقترنـا في الـسياق، فالإِيْمان هو المعرفة والإذعـان والقبـول النفـسي، وأمـا التقـوى فهـو الإلتـزام والتطبيق والخضوع الظاهري.

وعلى هذا، فمن لَم تجتمع فيه صفتي الإِيْمـان والتقـوى، لَـمْ يـصح تـسميته ولياً، اذاً: يُوغِلُ في الخطأ من يظن أن الولي يمكن ان يكون طفلاً، أَوْ مجنونـاً، أَوْ عَاصياً، فهناك بعض العوام – وأهل الطرق أيضاً – يستجيزون ان يكون الولي مجنوناً أَوْ بليداً لا يملك حتى عقـلاً سـليماً، أَوْ مَـنْ لـيس لـه أي علـم بـالحلال والحرام، والحسن والسيء، أَوْ مَنْ يتهاون بالـصلاة والـصيام وغيرهمـا، أَوْ مَـنْ يرتكب المعاصي وهو مستمر عليها، أَوْ مَنْ يكون ضمن جماعـة أَوْ طـرف كـافرٍ يعلن العداء للإسلام ... الخ، ولكن من الجليِّ أنه لايوجَدُ هنـاك مَـنْ هـو وهـل هناك أعلم من الله تعالى باوليائه والله سبحانه وتعالى هكذا عرَّف أوليائَهُ كما مرّ معنا، ولايحق لِأحَدٍ يحتـرم شرع الله وَعَقْلَهُ، أن يحيد عن ذلك المقيـاس في معرفـة الأولياء.

وجدير بالذكر ان الإِيْمَان والتقوى درجات ومراتب، وعليه فـأن أَوليـاء الله تعالى، لَهُم درجات ومراتب والولاية مسألة نسبية، والأَنْبياء وحدهم هم أَوليـاء الله بأطلاق، والناس بعدهم درجات في الولاية.

ولمزيد من الإيضاح، يجمل بنا إيراد بعض النصوص من السنة النبوية وأقوال العُلَمَاء والأَئِمَة حول تعريف أَولياء الله تعالى[1]:

يَقُولُ النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: {إنَّ اللهَ تَعَالى يَقُولُ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ...}، رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٦١٣٧)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٣٤٧)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَالَ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ جواباً لِمَنْ سَأَلَه: {يَا رَسُولَ اللهِ مَن أَولِياءَ الله ؟! قَالَ: (الّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللّهُ) رَوَاهُ البَزَّار برقم: (٥٠٣٤)، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وَيَقُولُ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَيْضاً: {إنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ عِبَادًا يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ قِيلَ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهَ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ؟ قَالَ: قَوْمٌ تَحَابُّوا فِي اللهِ مِنْ غَيْرِ أَمْوَالٍ، وَلاَ أَنْسَابٍ، وُجُوهُهُمْ مِنْ نُور، عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ لاَ يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلاَ يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾}، رَوَاهُ ابْنُ جَرِير، وَأَبُو دَاوُدَ برقم: (٣٥٢٧)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٥٧٣)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَصَحَّحَهُ الألباني.

---

١) آية ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ...﴿٦٤﴾﴾ يونس، لها تفسيران:
١- ورد في حديث النبي صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ رواه الترمذي واحمد عن أبي الدرداء: (هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ، أَوْ تُرَى لَهُ) حَسَّنَهُ الألباني.
٢) قال الزهري وعطاء وقتادة: (هي البشارة التي تبشر الملائكةُ المؤمِنَ في الدنيا عند الموت)، أنظر: (الجامع لأحكام القران) للقرطبي، ج: (٤)، ص: (٢١٥).

وَيَقُـولُ أَبُو عُثمان النيسابوري بهذا الصدد[١]:

(مَنْ أَمَّرَ السنة على نفسه قولاً وفعلاً، نطق بالْحِكْمَةَ، وَمَنْ أَمَّرَ الْهَـوَى عَلَـى نَفْسِهِ قَوْلاً وَفِعْلاً، نطـق بِالبِدعـة، لِقَوْلـهِ تَعَـالى: ﴿ ... وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ... ﴿٥٤﴾ ﴾ النـور.

وَيَقُولُ (ابْنُ تَيْمِية): فيما يخص هذا الموضوع كلاماً غاية في الحسن، في كتابه: (الفُرقَان بَيْنَ أَوْلِياء الرّحمن وَأَوْلِياء الشَّيْطَان):

{وَأَوْلِيَاءُ اللّهِ عَلَى طَبَقَتَـيْنِ سَـابِقُونَ مُقَرَّبُـونَ وَأَصْـحَابُ يَمِـين مُقْتَـصِدُونَ، ذَكَرَهُمْ اللّهُ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيـز، فَـالأَبْرَارُ أَصْـحَابُ الْـيَمِين هُـمْ الْمُتَقَرِّبُونَ إلَيْهِ بِالْفَرَائِضِ، يَفْعَلُونَ مَا أَوْجَبَ اللّهُ عَلَيْهِمْ، وَيَتْرُكُونَ مَا حَـرَّمَ اللّـهُ عَلَيْهِمْ، وَلاَ يُكَلِّفُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْمَنْدُوبَات، وَلاَ الْكَـفَّ عَـنْ فُـضُول الْمُبَاحَـاتِ، وَأَمَّا السَّابِقُونَ الْمُقَرَّبُونَ فَتَقَرَّبُوا إلَيْهِ بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ الْفَـرَائِضِ، فَفَعَلُـوا الْوَاجِبَـاتِ وَالْمُستحبات وَتَرَكُوا الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ ....

* وَلَيْسَ لِأَوْلِيَاءِ اللّهِ شَـيْءٌ يَتَمَيَّـزُونَ بِـهِ عَـنْ النَّـاسِ فِـي الظَّـاهِرِ مِـنْ الْـأُمُور الْمُبَاحَاتِ، فَلَا يَتَمَيَّزُونَ بِلِبَاس دُونَ لِبَاس إذَا كَانَ كِلَاهُمَا مُبَاحًا، وَلاَ بِحَلْـق شَعْرٍ أَوْ تَقْصِيرِهِ أَوْ ظَفْرِهِ إذَا كَانَ مُبَاحًا، كَمَا قِيلَ: كَمْ مِنْ صِدِّيقٍ فِي قَبَـاءٍ، وَكَمْ مِنْ زِنْدِيقٍ فِي عَبَاءٍ" بَلْ يُوجَدُونَ فِي جَمِيع أَصْنَافِ أُمَّـةِ مُحَمَّـدٍ صَـلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إذَا لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ الظَّاهِرَةِ وَالْفُجُـورِ، فَيُوجَـدُونَ فِي أَهْلِ الْقُرْآن وَأَهْلِ الْعِلْمِ، وَيُوجَدُونَ فِي أَهْلِ الْجِهَادِ وَالسَّيْفِ وَيُوجَـدُونَ فِي التُّجَّارِ وَالصُّنَّاعِ وَالزُّرَّاعِ، وَقَدْ ذَكَرَ اللّهُ أَصْنَافَ أُمَّةِ مُحَمَّـدٍ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وَكَانَ السَّلَفُ يُسَمُّونَ أَهْلَ الدِّينِ وَالْعِلْمِ (الْقُرَّاءَ) فَيَدْخُلُ فِـيهِمْ الْعُلَمَاءُ وَالنُّسَّاكُ، ثُمَّ حَدَثَ بَعْدَ ذلِكَ اسْمُ (الصُّوفِيَّةِ وَالْفُقَرَاءِ).

---

١) انظر: (تفسيـر القاسـمي)، ج: (٩)، ص: (٥٩).

* وَلَيْسَ مَنْ شَرْطِ وَلِيِّ اللّٰهِ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا لَا يَغْلَطُ وَلَا يُخْطِئُ، بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَخْفَى عَلَيْهِ بَعْضُ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَشْتَبِهَ عَلَيْهِ بَعْضُ أُمُورِ الدِّينِ حَتَّى يَحْسَبَ بَعْضُ الأُمُورِ مِمَّا أَمَرَ اللّٰهُ بِهِ وَمِمَّا نَهَى اللّٰهُ عَنْهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَظُنَّ فِي بَعْضِ الْخَوَارِقِ أَنَّهَا مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللّٰهِ تَعَالَى، وَتَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ لَبَّسَهَا عَلَيْهِ لِنَقْصِ دَرَجَتِهِ، وَلَا يَعْرِفُ أَنَّهَا مِنَ الشَّيْطَانِ وَإِنْ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ وِلاَيَةِ اللّٰهِ تَعَالَى، فَإِنَّ اللّٰهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَجَاوَزَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَنْ الْخَطَأِ وَالنِّسْيَانِ وَمَا اُسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ.
* اذاً: فَأَوْلِيَاءُ اللّٰهِ يُعْرَفون بِصِفَاتِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَيُعْرَفُونَ بِنُورِ الإِيْمَانِ وَالْقُرْآنِ وَبِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ الْبَاطِنَةِ وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ.
* فَإِذَا كَانَ الشَّخْصُ مُبَاشِرًا لِلنَّجَاسَاتِ وَالْخَبَائِثِ الّتِي يُحِبُّهَا الشَّيْطَانُ، أَوْ يَأْوِي إِلَى الْحَمَّامَاتِ وَالْحُشُوشِ الّتِي تَحْضُرُهَا الشَّيَاطِينُ، أَوْ يَأْكُلُ الْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبَ وَالزَّنَابِيرَ، وَآذَانَ الْكِلَابِ الّتِي هِيَ خَبَائِثُ وَفَوَاسِقُ، أَوْ يَشْرَبُ الْبَوْلَ وَنَحْوَهُ مِنَ النَّجَاسَاتِ الّتِي يُحِبُّهَا الشَّيْطَانُ، أَوْ يَدْعُو غَيْرَ اللّٰهِ فَيَسْتَغِيثَ بِالْمَخْلُوقَاتِ وَيَتَوَجَّهَ إِلَيْهَا، أَوْ يَسْجُدُ إِلَى نَاحِيَةِ شَيْخِهِ، وَلاَ يُخْلِصُ الدِّينَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، أَوْ يُلاَبِسُ الْكِلاَبَ أَوْ النِّيرَانَ، أَوْ يَأْوِي إِلَى الْمَزَابِلِ وَالْمَوَاضِعِ النَّجِسَةِ، أَوْ يَأْوِي إِلَى الْمَقَابِرِ، وَلاَ سِيَّمَا إِلَى مَقَابِرِ الْكُفَّارِ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَوْ الْمُشْرِكِينَ، أَوْ يَكْرَهُ سَمَاعَ الْقُرْآنِ وَيَنْفِرُ عَنْهُ وَيُقَدِّمُ عَلَيْهِ سَمَاعَ الأَغَانِي وَالأَشْعَارِ، وَيُؤْثِرُ سَمَاعَ مَزَامِيرِ الشَّيْطَانِ عَلَى سَمَاعِ كَلَامِ الرَّحْمَنِ، فَهَذِهِ عَلاَمَاتُ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ لاَ عَلَامَاتُ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ[١]. }

---

١) انظر: (مجموع الفتاوى)، ج: (١١)، ص: (٩٠-١٦٩).

٢/ بـحث عن الكرامــة:

أما مسألة الكرامة فنقول باختصار:

لايخفى أنه اذا أحب إنسانٌ أنساناً احترمه واحْتَفى به، والله المتعالي عن النظير والند، لا شك أنه يُقَدِّر أحباء وأولياءه، ولفظة الكرامة التي تستعمل لأولياء الله وضعت على هذا الأساس، وهي كألفاظ كثيرة أخرى حُرِّفَتْ عن معناها الأصلي واختلط بها أشياء أخرى، حتى بات الناس اذا سمعوا بالكرامة تبادر الى أذهانهم، خرق العادات كالطيران وَالْمَشِي عَلَى الْمَاء، ومعرفة ما تراودُ الإنسانَ من الهواجس، أَو القيام بالأشياء الغريبة، ويغلب على ظن الناس ان الذي يصدر منه مثل هذه الحالات، يعتبر من أَهل الكرامة وأنه صاحب مكانة عند الله تعالى، وَلَو لَمْ يَكن ملتزماً بالشرع!

والذي لا يُعْزى اليه الحالات التي ذكرناها، فلا شيء له وهو في مستوى عوام الناس، وليس عنده مايستحق الذكر، ولو كان قد بلغ الغاية من الصلاح التقوى والتدين والإِحْسَان.

ولاشك بأن هذا التصور تصور خاطئ لايستند الى دليل شرعي، كما يقول الأَئِمَة مِن أَهل العرفان: (الإِستقامة عَلَى الشريعَة أَعْظم كَرَامَةَ) أي: إِنَّ أَفْضَل مَا يُكْرِمُ اللهُ به عِبادَهُ وأَحِبّاءَه هُوَ: أن يُعِينهم على الإِستقامة على الشريعة، وعدم الحياد عنها، فهذا مَالاَ يَستطيع القيام به، الا أَولياء الله، أما العجائب والغرائب – كما سنتطرق إليها في الفصل السادس – فهذا يستطيع الناس العاديون القيام به، بل حتى الملحدون والكفار أَيْضاً يستطيعون القيام بذلك، ويمكننا تعضيد قولنا بأدلة، منها:

١- يقول الخالق جل في علاه: ﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ... ﴿١٣﴾﴾ الحجرات، اذاً: فَالتَّقْوَى الذي عبارة عن الإلتزام الظاهري والباطني بِمَا دقَّ وجَلَّ في الإسلام، هو المحكّ فِي التّقرُّب مِنَ اللهِ تَعَالى والإختصاص بالْمَكَانة السامية لديه، وَلَيْسَ شيء آخر، فإذا كَانَ الأَمْر كَذَلِك، فبُغْية معرفة مكانَة شخص ما عند ربه، أَوْ كَمَا تَقول العامة: هَلْ لَهُ كَرَامَات أَم لاَ ؟ لابُدَّ من النظر الى جانب التقوى منه، لا أن نبحث فيه عن خوارق، لأن الآية صرَّحَتْ بأنَّ التقوى هو علامة الإكرام من الله تعالى للعَبْد!

٢- لاريب ان من كان وَلِياً لله تمَتَّع بالْمَكَانة السامية والحظوة لديه، أي : ان كُل وَلِي صَاحِب كَرَامَة، والله سبحانه وتعالى أعلن أنَّ الْمُتَّقِي وَلِيٌّ له، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿... وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ الأنفال، وَلَوْعرضنا الْمَسأَلَة في صورة معادلة، لأَصحبت بالصورة التالية:

كُل مُتق وَلِي لله تعالى، وَكُل وَلِي صَاحِب كَرَامَة، اذاً: فكل الْمُتقين أَصْحَاب كرامات.

ثُمَّ لاَشَكّ فِي أن جَميع الْمُتَّقِين لَمْ يُعْلَمْ أنَّ العادة خُرِقَتْ لهم، اذاً: فَلابُد ان يكون التَّقْوَى وأن تكون الإستقامة على الشريعة، هِي نفسها كَرَامة يهبها الله لأوليائه الصالحين.

٣- وهذا الحديث يعطي المعنى نفسه: {عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ عَن النَّبِيَّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنَّهُ سُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ ؟ قَالَ: أَتْقَاهُمْ} مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البُخَارِيُّ برقم: (٤٤١٢)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٦٣١١)، وَالدَّارَمِيُّ برقم: (٢٢٣)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٦٤٨).

تَنْبِيــه: لا يخطئن أَحَدٌ فهم حديثي، فيتوهَّم بـأنني أَقُـول: إِنَّ أَوليـاء الله ليـسوا أَصْحَاب كرامات بالْمَفهوم العرفِي السائد لدى الناس، كلاّ لَمْ أَقْصِدْ ذلك، لأن كون أولياء لله أصحاب كرامات حقيقة لاينكرها أحـد، وَدَلّـتْ عليهـا العديد من آيات القُرْآن وَأَحَادِيث النَّبِيّ صَـلّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ والتجـارب غير القابلة للنقاش، والتي حـدثت مـع أوليـاء الله تعـالى، ولكـنني أردت ان أقول: ان كَرَامَة أولياء الله التِي تعني إِكرامَ اللهِ إِياهم بـالمفهوم الـذي ورد في القُرْآن وَالسُنَّة، هِي عِبَارَة عن التَّقْوَى والتدين والإسـتقامة علـى شـريعة الله تعالى، قبل ان يكون لها أي مدلول آخر، وبغير ذلك لايستقر معنى الولايـة، اذ ان ذلك هي الكرامة التِي يشترك فيها جميـع أوليـاءِ الله كـل بحـسبه، وَلاَ يمكن لأَحدٍ أن يعتبر ولياً الاّ بتلك الكرامة، وهي هي الكرامة الحقيقيـة، أمـا غرائب الأشياء التي تُسمَّى بخوارق العادة، فتلك كلها أمور جزئيـة ولاتعتـبر مـن لـوازم الكرامـة بالـضرورة، ولـيس بالـضرورة أَيْـضَاً أَنْ تظهـر لجميـع الأولياء، والذين تظهر على أيديهم تلك الخوارق، لايعني أَنّهـم أرفـع مكانـة عند الله من الذين لا تُرَى عليهم تلك الخوارق، وأَختتم هذا البحـث بـإِيراد كلام قيِّمٍ جِـدَّاً لأحـد أئمـة العرفـان وتزكيـة الـنفس، أَلا وهـو: (أبـوعلي الجرجاني) فيقول: (كُنْ طَالِبَاً لِلإِستِقَامَةَ لاَ طَالِبَاً لِلْكَرَامَـةَ، فَـسَبِيل الـصَّادِق مطالبة النَّفْس بالإِستِقَامَةَ، فَهِيَ كُلّ الكَرَامَةَ، ثُمَّ إِذا وَقَـعَ فِـي طَرِيقـه شـيء خَارِق، كَانَ كأَنْ لَمْ يقع، ولايبالي ولايَنْقُص بذلك، وَإِنَّمَا يَـنْقُص بـالإِخلال بواجب حق الإِستقامة)، مِن كلام هذا الإمام العـارف نـستنتج ان مـا سـاد اعتقاده بين الناس وسمي كرامة، لَمْ يَكن عِنْدَ أَولياء شَيْئَاً لَـهُ أهميـة، بَـلْ ان صاحبه اذا شغل به نفسه أورده مورد الخسران[1].

---

١) انظر: (مجموع الفتاوى)، ج: (١١)، ص: (٣٢٠-٣٢١).

ثـامنـاً: الإِلْهَام وَالرُؤيَـا وَتقييمهما:

هناك مسألة أخرى أصبحت مثـار جدل وَتَعَثُّر فيها كـثير مـن النـاس، وهـي مسألة الإلْهَام والرؤيا والمعلومات التي يمكن استحصالها منهما، ونحـن بعـون الله تعالى سنبحثهما في محاور ثـلاثـة:

١) تعريـف:

أ- الْمَقصود بكَلِمَة (الإلْهَام) من حيث اللّغَة: هُوَ التلقين، (أَلْهَمَه الله الْخَـير، أَي: لَقَّنه إِياه)،[١] أما فـي مـصطلح أَهـل التـصوف، فـيعني: (النَفْـثُ في الرَّوْع والإيقاع في القلب من العِلم غير القائم على الإستدلال والنظر)[٢] وهناك مصطلحات أخرى بالمعنى نفسه، أو مقارب لـه، مثـل: (الكَـشْف، الْحَدْسُ، الذَّوْق، البَصِيرَة، العِلْم اللّدنُيّ ...)[٣].

ب- أما الْمَقصود بكَلِمَة (الرؤيا) فهو مايراه الإِنْـسَان أثنـاء نومـهِ والجميـع يعرفون ذلك، وسَنَسُلِّطُ على ذلك مزيداً من الضوء لاحقاً.

٢) دليل صحة المعلومات المكتسبة من الإِلهام والرؤى:

لقد أجمع العلمـاء علـى إِمكانيـة كـسب المعلومـات عَـن طريـق الإلهـام والرؤيا، والـمعارف و يستدلون بـمايلي:

---

١) الحديث عن هذا الموضوع اسـتقيته ملخـصاً مـن احـد دروسـنا في كتـاب (الايمـان والعقيـدة الاسلامية) المجلد الثاني (توحيد الله في خالقيّته وربوبية).

٢) انظر: القاموس المحيط.

٣) انظر: معجم مصطلحات الصوفية ص٢٣

١- الإلـهام:

أ/ قَالَ اللهُ تعَـالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ... ﴿٢٩﴾ ﴾ الأنفال.

ب/ وَقال رَسُول الله صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ {لَقَدْ كَانَ يَكُونُ فِي الأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطّابِ مِنْهُمْ}، أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ برقم: (٦٣٥٧)، وَاللَّفْظُ لَهُ، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (٣٦٩٣) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ج/ وَقال {اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾الحجر} ضعيف، أَخْرَجَهُ السيوطي فِي (الدر الْمنثور) والبُخَارِي فى التاريخ الكبير، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (٣١٢٧)، وَقَالَ: حَدِيث غريب، وَرَوَاهُ الطَّبَرَي وَغَيْرَهُم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعَّفَهُ الألباني فِي (السلسلة الضعيفة) برقم: (١٨٢١).

د/ {عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: مَا سَمِعْتُ عُمَرَ لِشَيْءٍ قَطُّ، يَقُولُ: إِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذَا إِلاّ كَانَ كَمَا يَظُنُّ}، رَوَاهُ الْبُخَارِي برقم: (٣٦٥٣)[١].

هـ/ إخبار أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بأَن زَوْجَتهُ تحمل بأُنثى[٢].

و/ نِدَاء عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنَ الْمَدِينَة لـ (سَارِيَة بن زينم الدئلي) الذي كَانَ قَائِدًا لِجَيْش الْمُسْلِمين فِي بلاد (فَارْس) وان سَارِيَة سمع قَول عُمَر:

---

١ – رواهُ البُخاري، انظر: شرح أصول إعتقاد أهل السنة للالكائي ج٩ص١٢٦ (كرامات الاولياء).

٢ – انظر: (مجموع الفتاوى) ج١١ ص٣١٨.

(يَا سارية الجَبَلَ)، ونجابجيشه. وَصَحَّحَهُ الألباني في (السلسلة الصحيحة) برقم: (١١١٠).

ز/ انتقاد عُثْمَان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِرَجل عَلَى نَظره الى إمْرَأَة أجنبية، فقَالَ الرّجُل: أَوحِيٌ بَعْدَ رَسُولِ الله ؟ قَالَ: (لاَ وَلَكِن فراسة صَادِقَة)[1].

٢- الرؤيا:

أ/ يَقُولُ النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: {الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ، جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ}، أَخْرَجَهُ مَالِك برقم: (١٧١٣)، وَأَحْمَد برقم: (١٢٢٩٤)، وَالبُخَارِي برقم: (٦٥٨٢)، وَابْنُ مَاجَهْ برقم: (٣٨٩٣)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٦٠٤٣)

ب/ وَقَالَ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَيْضاً: {الرُّؤْيَا ثَلاثٌ: فَالرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ بُشْرَى مِنْ اللّهِ، وَالرُّؤْيَا تَحْزِينٌ مِنْ الشَّيْطَانِ، وَالرُّؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ بِهِ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ}، أَخرَجَهُ الحَاكِمُ برقم: (٨١٧٤)، وَالدَّارَمِيُّ برقم: (٢١٤٣) وغيرهُ، واللّفظُ لَهُ، وَصَحَّحَهُ حسين سليم أسد.

ج/ قَالَ ابْنُ عَبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَعَنْ أَبيهِ: {رُؤْيَا الأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ}، أَخْرَجَهُ الحَاكِم فِي (مستدركه) برقم: (٨١٩٧)[2].

د/ وَيَقُولُ ابْنُ قيم الجوزية: (وَرُؤيَا الأَنْبيَاء، وَحِيٌ فإِنَّها مَعْصومَةَ مِن الشيطان باتفاق الأُمَّة)[*].

---

١) انظر: (احياء علوم الدين)، ج: (٣)، ص: (٢٥).
٢) انظر: الجامع الاحكام القرآن للقرطبي، ج: (٨)، ص: (١٠٢).
*) انظر: (مدارج السالكين شرح منازل السائرين) ج: (١)، ص: (٥١).

هـ/ وَكَذلِكَ فإن رؤيا كُل من ملك مصر وصاحبي يوسُف عَلَيْهِ السَّلام فِي السجن، التي ورد ذكرها في سورة يوسُف عبّر لهم يوسف عَلَيْهِ السلام، فإن ذلك دليل قوي على إمكانية أخذ العلم الصحيح من الرؤيا، ولوكانت من شخص كافر لادين له.

٣- التقـيـيم:

نعرض تقييمنا لكيفية التعامل مع المعلومات المكتسبة من الإِلهام والرؤى، فيما يلي:

١) لايعد الإِلْهَام والرؤى قضايا عامة كالوحي والعقل والحواس الخمس، بل هما خاصان باشخاص وحالات محددة، وتبدو هذه الحقيقة واضحة من خلال تأمل النصوص الواردة بهذا الصدد فِي القُرْآن وَالسُنَّة، مَثَلاً:

يَقُولُ الله جلت حكمته: ﴿ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴿٦٥﴾ ﴾ الكهف.

وكما ترى فقد دلت هذه الآية على ما قلناه في مجملها وفي لفظة (من) التي تكون للتبعيض.

وَكَذلِكَ يَقُولُ النَّبِي صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: (الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ)، وَكَمَا هُوَ واضح فَقَدْ قيدت الرؤيا بكونها حسنة، والرجل بكونه صالحاً، اذاً: فالأمر لَيْسَ على إطلاقه.

٢) لايجوز لأحد ان يعتبر مايأتي من الرؤية أو الإِلْهَام شرعاً، أَوْ ينظر إليه بمعزلٍ عن الشرع، بل عليه ان ينظر الى مايأتي من جهتهما في ضوء الشرع، يقول (أَبُو سليمان الداراني): (قد تقع في قلبي نكتةٌ من نكت

القوم، فلا أقبلها إلاّ بشاهدي عدل : الكتاب والسنة)، والسبب فِي هَذَا أن الإلْهَام والرؤى تنقسم إلى ثلاثة أقسام، ولايستوثق الإِنْسان ولاتطمئن نفسه اذا حدث له شئ من ذلك من أي أنواعها يكون؟ وقد استشهدنا قبل بالحديث الذي يتناول أقسام الرؤيا، والعلماء فيما يخص الإلهام على الرأي نفسه، يقول ابن حجر العَسْقَلاَني: (... وبأن الخاطر قد يكون من الله وقد يكون من الشيطان وقد يكون من النفس)،[١] ثم ان موضوع الإِلْهَام والرؤى، ينحصر في حالات ثلاث: فاما تكون مخالفة للشرع، وتُرَدُّ في هذه الحالة ولا تُقْبَلُ، أَو تكون موافقة للشرع، وفي هذه الحالة تُقْبَلُ، أو لاتكون من هذا ولا ذاك، فتكون من قبيل الْمُبَاحَات ويجوز العمل بها حينئذ، يقول (ابن حجر العسقلاني) : (والذي عليه الجمهور انه لايجوز العمل به (أي الإِلْهَام) الاّعند فقد الحُجَجِ كلِّها، في باب المُبَاح)[٢].

٣) لايجوز لِمُلْهَمٍ أَوْ الذي رأى الرؤيا، ان يكون استحصل الْمعلومة التي اكتسبها بطريق مخالف للشرع، هذا بالإِضافة الى وجوب كون الرؤيا أَوْ الإِلْهَام نفسه موافقاً للشرع، والاّ فلا يعتبرشيئاً، ومثال ذلك :

١/ ترك الفرائض، ٢/ إِيذاء النفس، ٣/ مجافاة القُرْآن، ٤/ اللّجوء الى بعض العبادات البدعية، ٥/ العزلة التامة عن المجتمع ...الخ.

وللأسف ففي احيان كثيرة يُبْتَلى الُمسْلِمون – وخصوصاً أَهل الطرق – بهذه الآفات بسبب غفلتهم عن القُرْآن وَالسُنَّة وَسِيرة النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وصحابته الكرام رَضِيَ اللهِ عَنْهُمْ وتابيعهم بحق.

---

١) انظر: (فتح الباري)، ج: (١٤)، ص: (٤١٧).

٢) المصدر والجزء والصفحة نفسها.

وَصَاحِب الرؤيا أَوْ المُلْهَم، اذا حصل على معلومات عن طريق تلك الأساليب غير الشرعية والبدعية، لايعتد بها ولايوثق بها، لأن كل مايأتي عن طريق غير الشرع، فَسَيُرَجَّح خطؤه ونقصانه، يَقُول الله جلت قدرته في هذا الصدد: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ... ﴿٥٨﴾ ﴾ الأعراف.

وَالنَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسلام يَقُولُ: {مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ} ٨١، أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ برقم: (٤٥٨٩)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٢٦) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وَالخُلاصة: ان الحصول على العلم والمعرفة وانفتاح عين البصيرة، عن طريق الإِلْهَام والرؤى نوع من أنواع الكرامة، ولايتيسَّرُ ذلك الا لمن بلغ فِي الإنقياد لشرع الله تعالى، مبلغاً عظيماً.

٤- وَفِي تلك الحالات التي يمكن العمل بالرؤى والإلهام، فلا يَلْزَمان غير صاحبهما، وذلك بخلاف حكم الشرع الذي يَلْزَم الجميعَ العَمَلُ به، لأَنَّهما يقعان ضمن الحالات الخاصة والسرية التي لايعرفها ولا يطّلع عليها سوى أصحابها، ولربما كَانَ قَول النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لـ (وابصة) من هذا القبيل: {اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَاسْتَفْتِ نَفْسَكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ} ٨١ أَخْرَجَهُ أَحْمَد برقم: (١٨٠٣٠) وَاللَّفْظُ لَهُ، وَالدّارَمِي برقم: (٢٥٣٣).

تاسعاً: الوقوع في الخطأ فيما يخص بعض المفاهيم والمعاني الحقيقية لبعض الكلمات:

يُخطيء كثيرون – وخصوصا أتباع الطرق الصوفية – في إِدراك مفهوم بعض الأَلفاظ، وهم قد بنوا على فهومهم الخاطئة تلك جدار كثير من معاملاتهم الخاطئة المخالفة للشرع، مثال ذلك:

١) كلمة (الزُهد) وتأتي في اللّغة العربية بمعنى عَدَم الرغبة في الشَّيء والتقليل من شأنه، كَمَا يَقُولُ تَعالى: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ يوسف.

ولايخفى ان الزهد في الحياة الدنيا صِفَةٌ مِن الصِفات العظيمة لعباد الله المنتخبين، لأن الحياة الدنيا – قياساً بالآخرة وَالْجَنَّة – حياة تافهة لاقيمة لَها، ولكن الكثيرين غيّروا مدلول تلك الكلمة من الزهد الى الترك أَوْ الإعتزال، وهم عندما سمعوا بأن الأنبياء كانوا زاهدين، وكذلك العلماء والأئمة، فقد فهموا أنَّ هؤلاء لَمْ يُولُوا الحياة الدنيا أَيَّة أَهمية، بل ربما ظنوا بأَنَّهم حاربوها! وقد عَرَّف (علي بن ابي طالب) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الزُهد تعريف جيداً حيث قال: (لَيْسَ الزُّهد ألاّ تملك شَيئاً إِنَّمَا الزُّهد ألاّ يُملكك شيء).

٢) كلمة (الفَقر): لأن الله تعالى وصف عباده بالفُقَرَاء فِي كِتابه العَزِيز: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ فاطر، فيتوهم كثيرمن الناس أن الفقر صفة مرغوبة ينبغي على الإِنْسَان ان يُوجِدَها في نفسه! وَهَذَا تصور خاطيء ولاريب، لأن المخلوقات

كلها- وليس الناس فقط -هم فُقَرَاء الى الله ومحتاجون اليه في خلقهم وحياتهم وسيرهم ...الخ، أما افتقار العباد بعضهم الى بعض فهو يعني التطلع الى يد الغير، وأن يَمُنَّ بَعْضُهُم عَلَى بَعْض، وهذا فوق كونه ليست حالة فُضْلى، فإنه غيرمشروع أَصْلاً، بل إنَّ الفقر والعوز والجوع والدَّيْنَ، هي أدواء خطيرة يشرع للمسلم ان يستعيذ بالله تعالى منها، اذا أُصيب بشيء مِنْهَا، كَمَا قَالَ النَّبيُّ الْخَاتم صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي حَدِيث لَهُ: {اللّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ ...}، رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٢٢٦٧)، وَمُسْلِمٌ برقم: (١٣٥٣)، وَأَبُو دَاوُدَ برقم: (٨٨٠)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (قَالَ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح)، وَابْنُ خُزَيْمة برقم: (٨٥٢)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وَيَقُولُ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ كَذلِكَ: {اللّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلا قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلا شَيْءَ بَعْدَكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ نَاصِيَتُهَا بِيَدِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الإِثْمِ وَالْكَسَلِ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْغِنَى وَفِتْنَةِ الْفَقْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ...}، رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي (مستدركه) برقم: (٢٢١١) وَصَحَّحَهُ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِي.

وَقَالَ فِي حَدِيث آخر عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَم: {...وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ، فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ}، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ برقم: (١٥٤٧)، وَالنَّسَائِيُّ برقم: (٥٤٦٨)، وَابْنُ مَاجَهْ برقم: (٣٣٥٤)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (١٠٢٩)، وَحَسَّنَهُ الألباني.

وجديرٌ بالذكر أنه لَمْ يرد في أي من نصوص القُرْآن وَالسُنَّة، ثناءٌ على الفَقر، بل لقد اعتبرالفقر والجوع والدَّين بلاءً وعدواً ينبغي على الْمُسْلم أن

يستجير من الله سبحانه وتعالى منها،[١] هذا من جانب ومن جانب آخر فإن الغنى والثروة والمال الحلال تعد نعمة من نعم الله تعالى، كما قال الرسول الأعظم والنَّبِيُّ الخَاتَم صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكُ الْهُدَى، وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ، وَالْغِنَى}، رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (٣٩٥٠)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٧٠٧٩)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (٣٤٨٩) وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيح، وَابْنُ مَاجَهْ برقم: (٣٨٣٢)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٩٠٠)، وَقَالَ: {الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى}، رَوَاهُ وَالبُخَارِيُّ برقم: (١٣٦١)، وَمُسْلِمٌ برقم: (١٠٣٣)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٣٣٦١) وغَيرهم، ولايخفى ان الْمقصود باليد العليا هي اليد الواهبة واليد السفلى هي اليد الموهوبة لها ، وقال صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {لاَ حَسَدَ إلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا ويُعَلِّمُهَا}، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (٣٦٥١)، وَالبُخَارِيُّ برقم: (١٣٤٣)، وَمُسْلِمٌ برقم: (١٩٣٣) وَابْنُ مَاجَهْ برقم: (٤٢٠٨)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٩٠) عَنْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، اذاً فالأَموال من نعم الله التي يحق للناس أن ينظروا اليها، باهتمام، بل عليهم أَنْ يتنافسوا عليها منافسة شريفة.

٣) وكلمة (التوكل) أَيْضَاً أخطأ كثيرون في فهم معناها، فهي فِي الأَصل تعني الإِعتماد على الله تعالى وتعلّق القلب به، مع مراعاة اتخاذ الأَسباب، ولكن أُناساً كثيرين يتوهّمون ان التوكل بديل عن الأسباب والسعي، واذا سئل هؤلاء: لماذا لَم تتخذوا الأسباب للعمل الفلاني ؟ يقولون: نحن انما فعلنا ذلِكَ تَوكّلاً على الله، وهذا المفهوم الخاطيء كان موجوداً حَتَّى فِي زَمِن

---

١) جميع النصوص الواردة في مدح الفقر اما ضعيفة اوموضوعة، انظر: (العواصم و القواصم في الذب عن سنة أبي القاسم)، ج: (٨)، ص: (١٩٤-١٩٩)، ابن الوزيراليماني.

النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، ومثاله الأعرابي الذي أتى النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وترك بعيره دون ان يربطه متحَجِّجاً بقوله: (تَوَكّلْتُ عَلَى الله)، فَقَالَ لَهُ النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ {إعْقَلْهَا وَتَوَكَلْ}، رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ برقم: (٢٥١٧). وَحَسَّنَهُ الألباني.

نعم فربط البعير لايتناقض مع التوكل على الله، بل هما أمران مكملان لبعضهما، فالربط (أي اتخاذ الأسباب) له علاقة باليد والبدن، وأمّا الإعتماد على الله (التوكل)، فله علاقة بالقلب والنفس، والله سبحانه وتعالى عندما امتدح (ذا القرنين) قَالَ عنه: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ الكهف.

٤) كلمة (الصبر) هي الأخرى كلمة حُرِّفَتْ عن مفهومها ومعناها الحقيقي، لأن الصبر يعني التحمُّلَ وطُول النَّفَسِ من أجل تحقيق غاية في الخير، سواء كان ذلك تنفيذاً لفرض أَوْ نافلة، أَوْ حِفْظَاً للنفس من مواقعة الحرام، أوالمكروه، أو الثبات أمام نائبة من نوائب الأيام.

مع ذلك فالكثيرون يفسرون الصبر بمطلق التحمُّل والسكون وعَدَمِ الحَراك، بل ان بعضهم يظن أَنَّ الإنتفاض فِي وجه أهل الكفر والظلم والفساد وَرَدِّ مظالمهم ومفاسدهم، يتناقض مع الصبر وطُول النَّفَسِ الذي أَمَرَنا الله تعالى به فِي القُرْآن الكَريم: حَيْثُ قَالَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ آل عمران.

والحقيقة أَنَّ هذا الصبر – أي مطلق الصبر– ليس هو ما امتدحه الله تعالى، وانما الصَّبر الممدوح هو ماجاء في قوله تعالى: ﴿ ... وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي

ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ...﴿١٧٧﴾ ﴾ البقرة، نعم هؤلاء الذين يستحقون ثناء الله تعالى عليهم، ولذلك يقول الله عَـنْهُم: ﴿... أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ البقـرة.

٥) وأما الكلمة الأخرى فهي: (الرضاء بالقدر)، ومفهوم هـذا في الـشرع، أنَّ كل مايـصيب الإنـسانَ مـن بـلاء ومُـشكلٍ، انما أصـابه بـإِرادة الله تعـالى وحكمه، ولايجوز له إِبداءُ أيِّ سَخَط اوعدم الرضا عما حدث، بل عليه أَنْ يُذْعِن تمام الإِذعان، اما البلاء نفسه، فعليه السعي لإِزالتـه والـتخلّص منـه، لكن كَثيراً من الناس أخطؤا فهم هـذه المـسألة حيـث تـصوروا أَنَّ الإِيمـان بالقدر والرضا به، مبـرِّرٌ للسكوت وعدم النهي عن الظلم والفساد وعـدم السَّعي لإزالتهما! غافلاً عن أن المصائب كما تحـدث بقـدر الله تعـالى، فـإن مواجهتها والوقوف بوجهها والسعي لـمعالجتها وإِزالتها، أَيضاً تكون بقـدر من الله تعالى، اذ القَدَر أشبه بالسماء التي تُظَلِّل تحتها كلَّ خيرٍ وشَـرٍّ، وكـل مايحدث، فإِنما يحدث بقدر من الله جَل وعلا.

واذا كان الأمر كمـا ذكرنـا، فلمـاذا ينبـغي علـى العليـل ألاّ يـداوي نفســه ولايسعى لـــمعالجتها، ولـــماذا يرضـى بالفَقْـــر والدَّيْـــنِ ولايحـاول جاهداً التخلّص مِنْهُمَـا، وَلِمَاذَا يرضى بالعجـــز ولايبـذل مَجْهُـوداً للنـصر ورفعة الرأس ...الخ ؟!!

والحق ان الفهم الشرعي الصائب للقضاء والقـدر، يعتـبر أحـسن محِّـركٍ للإِنسان في تحقيق أي عمل أَو نشاط، فيه سـعادة الفـرد والمجتمـع في الـدنيا والآخرة، والإِختلاف الأساسي بين الـسلف – وخـصوصاً أَصْـحَاب النَّبِـيِّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ الكِرَام رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ – مع الأجيـال اللاحقـة لأُمّـة

مُحَمَّد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَم، هو أن هؤلاء رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، كانوا قد فهموا كل الكلمات والمصطلحات الإسلامية على حقيقتها وبصورة صحيحة، فاستطاعوا القيام بواجبات دينهم على الوجه الأكمل، أما الآخرون الذين أساؤوا الفهم، فلا ريب أنَّهم بَنوا بنيانَ تعاملهم على أساسٍ خاطيءٍ، ولهذا يتوجب الشروع بالتغيير والإصلاح من تصحيح ما في العقل والقلب من مفاهيم إذْ هي أهم ما في النفس: ﴿ ... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ... ﴿١١﴾ ﴾ الرعد.

عاشـرا: بعض الإنتقادات والملاحظات على أهل التصوف:

قد اتضح فيما مضى من الحديث أن تزكية النفس هي النقطة المشتركة بين جميع المسلمين ولايجادل في هذه الحقيقة الا من كان مغموراً أَو غافلاً.

اما تزكية النفس كتصوف وطرق ومؤسسات، فهذا شيء آخر ولاريب، ونحن – بإذن الله تعالى- سنقوم بتوجيه بعض الإنتفادات والملاحظات الى أهل التصوف عموماً، ومتصوفة كوردستان وطرقهم خصوصاً، آملين ان تكون إضاءة لعموم المُسْلِمين، وأخصُّ بالذكر مِنْهُم المتصوفة والدراويش والمريدين، وان تكون لشيوخهم تذكيراً وإيقاظاً ونصيحة مخلصة، وانتقاداً وتصحيحاً من مُحِبّ مخلص، وما من أحد يعلو على النصيحة، ولا أحد أَحَطّ من أن يُدْلِيِّ بدلو الخير والإِحْسَان الى إِخوانه وإِخواته، وهذه ملاحظاتي وانتقاداتي مُلَخَّصاً:

الأولى / العِلْم والبصيرة أساس الإسلام: يقول الحق جل في علاه مخاطباً رَسُولَه صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ يوسف.

نعم فأساس العبودية لله أن يعرف الإِنسانُ ربه وواجباته تجاه ربه، وبدون ذلك لايمكنه ان يخطو خطوة واحدة، وما يَبْنيه على أساس الجهل سَيُؤَثّمُ عليه، لأن الله تَعَالى يَقُولُ: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ... ﴿٣٦﴾ ﴾ الإسراء.

وَبناءً عَلَى هَذَا فَكُوْنُ غالبية أَتباع الطرق الصوفية – بما فيهم شيوخهم – هُم أَهل جَهل وليسوا أَهل عِلمٍ، يستدعي حُزْناً وكمداً، لأن الله تعالى لا يُعْبَدُ بالجهلِ، وجدار التديّن والتقوى لا يمكن إِقامته على أساس الجهالة.

وإِنّني حَقاً لا أدري لِمَاذا آلَتْ الأمور الى ما آلَتْ اليه، فإذا كانت المتصوفة والدراويش لايعلمون، أفَمَا كان يجدر بشيوخهم ان يعلموا، أن أول خطوة خطاها رَسُولُ الله صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ في تربية الأَصْحَاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، كَانَ تعليمهم القُرْآن، تراهم –أي المشائخ– لَم يعلموا أَن النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ: {مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ}، رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (١٦٩٢٤)، وَالبُخَارِيُّ برقم: (٧١)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٢٤٣٦)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٨٩) عَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الثانية/ التّقوى والتديّن مسألة ذاتية وليس إرثاً يورث : ومن الأخطاء التي دأب عليها أتباع الطرق الصوفية، أنهم قد ابتدعوا – في معظم المناطق – أعرافاً خاطئة مخالفة للشرع، في مجال تعيين شيخهم أَوْ أستاذهم، فهم بعد وفاة شيخهم أَوْ كبيرهم، يُنَصِّبون ابنه الأكبر أَوْ أحد أبنائه مكانَهُ، على المشيخة، دون مراعاة الأهلية والشروط التي تُؤَهِّله للتصدّي للإرشاد، ولايخفى ان هذا صنيع خاطيء، وذو تأثير سلبي جداً في تشويه الطرق الصوفية و تأليب الناس عليها، فإذا كان الشيخ الأول صار شيخاً وأُستَاذاً لصلابة دينه وتقواه وعمله، فلاريب أن ابنه لايرث منه هذه الصفات بصورة تلقائية، اللّهمّ إلاّ اذا كان هو في نفسه متحلّياً بتلك الصفات، والاّ فما يُغْني اسم بلا فحوى ولا يُسْمِنُ من جوع !![1] وقد قال أسلافنا: اذا

---

١) لاشك أن جميع الشيوخ الأُصلاء المتقيدين بالشرع، هم ضد هذه الأعراف الباطلة، وهم مجمعون على أن مقام الشيخية والإرشاد يكتسب بالجهد والكفاح الشخصي، وليس متاعاً او ثروةً تستحصل كإرث، وكمثال جيد في هذا المجال نذكر الموقف المشرِّف للشيخ عثمان بن الشيخ علاء الدين رحمهما الله، وذلك أنه قبيل وفاته، في سنة ١٩٩٦ في مدينة اسطنبول في تركيا ، قال في حديث له أورده (عبد الله مصطفى صالح) المعروف بالفنائي، في مقدمة ديوان الشيخ نزولاً عند وصيته فيقول: (.. انا لايهمني ان اصرف أيَّ مبلغ من هذه الأموال الزائلة ولا احزن قط لمال ولاثروة، أمَّا ما يُثيرُ حزني وأسفي، انه لايوجد في أبناء عائلتنا من هو منشغلٌ بالسَّير والسلوك، وأن يحول دون ان تنضب العين الثرة لرجالات هذه العائلة وخيرهم وإحسانهم، فالحقيقة ان هذا يدعو الى الأسف الشديد، اذْ لايسير أحدٌ من أبناء هذه العائلة على نهج آبائهم وأجدادهم، ومع ذلك فنحن نسمع ان بَعْضَاً من أفراد العائلة، قد استفاد من طيبة قلوب مريدينا والمنسوبين الينا دون ان يحققوا في أنفسهم حتى الواجبات الدينية، أَو أن يكون لهم إلْمامٌ بظاهر الشرع، فهم يتخذون كل السبل لخداع الناس ويأملون الحصول على التكية والخانقاه، ولكنهم يجهلون أن أي شخص جاء من أي طريق وتحت أي مسمى، حرام عليه مايأخذه من الناس مادام لم يُحَقِّقْ في نفسه شروط الإرشاد، وهؤلاء يعرفون تماماً، أنه ليس فقط لم يقطعوا أي مرحلة من مراحل الطريقة، بل انهم لم يشموا رائحتها أيضاً، وأخشى

كنت أَمْرداً فما تغني عنك لِحيةُ والدك؟ وقالوا: لا أحدٌ يَعْبُرُ النهر بسباحة أبيهِ!

الثالثة/ الذي لايَتَحَلّى بالعِلْم والدين، لايجوز له ان يكون اماماً وهادياً:
ومن الأدواء المستعصية التي ابتليت بها الطرقُ الصوفية من وقت مُبَكِّر، وخصوصاً في كوردستان، انهم – وكما أشرتُ الى ذلك آنفاً – يتخذون ممن يجهل القرآن والسنة والعلوم الشرعية، شيخاً وأستاذاً وقدوة لهم ويأملون قيام هؤلاء بتعليمهم وتزكيتهم! ولايخفى على عاقل ان من لم يكن يعرف طريقاً، لايستطيع ان يدل غيره أو يهديهم اليه، وقديماً قيل (فاقد الشيء لايعطيه)، ولنستمع الآن الى أحد أئمة العرفان والتصوف، ماذا يقول في هذا الصدد؟ يقول (إبن البنا السرقسطي) في أحد أشعاره المعروفة عن التصوف بعنوان: (المباحِثِ الأصلية) وَشَرَحَهُ (ابن عجيبة) في كتابه: (الفتوحات الإِلهية) يقول عن شروط شيخ الطريقة[1]:

وَإِنَّمَا القَوْمُ مُسافِرون ... لحضرة الحق وظاعنون
فافتقروا فيه الى دليل ... ذي بَصَرٍ بالسَّير والمَقِيل
قد سلك الطريق ثم عادَ ... لِيُخْبِرَ القَوْمَ بما استفادَ

ماأخشاه ان يحيط الناس بهؤلاء – لالِشَيءٍ الا انهم من اعضاء عائلتنا – فيخدمونهم بسبب الشيخية، وهذا حرام على كلا الطرفين ومُضرّبهم ...)، انظر ديوان: (حضرة الشيخ محمد عثمان سراج الدين النقشبندي) – ص: (٨-٩) طبعة اسطنبول، ١٩٩٥ م .

١) انظر: هامش (إيقاظ الهمم في شرح الحكم)، ص: (١٤٢).

ويتحدث في موضع آخر، عن شروط شيخ الطريقة والعلوم التـي ينبغي عليه معرفتها وإجادتها، فيقول(١):

عـارٌ لِمَن لَمْ يرضَّ العـلوما ويعلم الـموجـود والـمعدوما
وَلَـمْ يكـن فِي بَـدْأه فـقـيهـاً وسائر الأحكـام مـا يَدْريهـا
والحَـدّ*والأصـول واللسـانا والذكر والحديـث والبـرهان
ولم يكـن أحكم عِلم الحـال ولادَرى مقـاصِـدَ الـرجـال
وَلَمْ يُنَـزِّه صِـفَـةَ الـمَعبـود ولادرى مراتِـبَ الوجـود
والنفس والعقل معـاً والروحا ويدري منه صدره الـمشروحا
وعلم سر النسخ والـمنسوخ أن يتعـاطـى رتبـة الشـيـوخ

الرابعـة / لايجـوز اتخـاذ التكـايا والخانقـاه بديـلاً عن الْمَسَـاجِد: ومن أخطـاء أتباع الطرق الصوفية، أنهم يتخذون من تكاياهم بديلاً عن الْمَسَاجد، وقـد أُتخذت في الأصل أَمكنةً لتـربية المريدين وإلقاء الـدروس والأذكـار وللنـوم والراحة، وصنيعهم هذا -أي جعلها بديلاً عن الْمَسَاجد- خطأ لاريب فيه، وعملٌ باطل ومخالف للشرع، يجعل الشك يتطرق الى أصـل مـشروعية بنـاء تلك التكايا، نعم فالتكايا والخانقاهـات، لا تكـون مـشروعة الا كمـدارس ومعاهد وملاذات لطلبة العلم، أي كما ان الكتاتيب والْمَدَارس والْمَعاهـد،

١) انظر: هامش (ايقاظ الهمم في شرح الحكم)، ص: (٤٤٦).
*) الحقيقة أن الـمنطق ليس علماً اسـلامياً ولاعلاقة لَهُ بالتزكيـة، ويقـصد بالحـدِّ، علـم المنطـق الذي أُخِـذَ أساساً من اليونان.

لَيْسَت بديلة عَن الْمَسَاجد، وانما هي أماكن لتلقي الدروس وتعلّم العلم، كذلك التكايا وما شاكلها، فهي أماكن لتزكية النفس والتربية.

نعم فالمكان الوحيد الذي من شأنه أن يجمع سائر المُسْلِمين، وأن يَسَعَ صغيرَهم، وكبيرهم وجميعَ طبقاتهم وشرائحهم، وينظروا اليه بدورهم كأنه ملك لَهُم جَمِيعاً دونما حساسية، هو بيت الله تعالى.

والتكايا ينبغي أن تكون مركزاً للتزكية والتربية، وعلى أهل الطرق ألاّ يجعلوها داراً للعجزة أَوْ مكاناً يتسلل اليه الجواسيس أَوْ ...أَوْ....الخ .

الخامسة / انه لمن دواعي الحسرة، أن يكون أهل التصوف أداةً بأيدي أَهْل الدنيا: المتصوفة يحرصون على تعريف أَنفسهم بأنهم: (أَهْل القلوب) لهذا فلا يليق بهم، بل يقبح بهم أن يَسْتَغِلُّهُم – عن علم أوغفلة– ((أَهْلُ البطون)) وأُناسٌ مخادِعون لاهَمَّ لهم إلاّ بطونهم وجيوبهم، وأن يجعلوهم توابع وخَدَماً لهم، بسبب نظرتهم الى مافي أيدي هؤلاء الْمخادعين وعباد الدنيا، من مطمع ومتاع زائل، وبالنتيجة تطبع جباههم بطابع بطانة السوء لأهل الدنيا!

وعلى أَهْل التصوف قاطبة ان يتمثلوا هذا الشعر، ويجعلوه يَرِنّ في آذانهم، وقد قَاله أَحَدُ أَصْحَاب القلوب الحية:

فليتك تحلو والحياة مريرة … وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر … وبيني وبين العالمين خراب
اذا صحَّ منك الود فالكل هَيِّنٌ … وكل مافوق التراب تراب

السادسة / الدفاع عن تأويلات وشطحات بعض مشاهير الصوفية، أَمرٌ مخالف للشرع ومُشِينٌ لَهُمْ جميعاً: هذه المسألة لعبت دوراً مهماً فِي تشويه صورة المتصوفة والإِساءة الى سمعتهم، ومثال ذلك مايروى من شطحات عن (أبو يزيد البسطامي) و(الحلاج) مثل: (سبحاني ما أعظم شأني)، أَو (ما فِي الْجَبَّة الاّ الله) أَوْ: (أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حَلَلْنَا بدناً)، وسائر مايروى عن (ابن عربي) في كتابه: (فصوص الحكم) الذي يَعُجُّ بالكفر والشرك والزندقة، وكذلك في كتابه: (الفتوحات المكية)، ومن ذلك القبيل قصائد (ابن الفارض) و: (ابن سبعين)، وغيرهم حيث لايرتاب أحَدٌ –فَهِمَ من الإسلام أَقَلّه – بأن كلام هؤلاء يتقاطر كفراً وزندقةً، وأنه ليس بحاجة أبداً – ولاينفعه ذلك – أن يأتي المتصوفة بتأويلات وترقيعات لتسويغ ذلك، وإنْ كنتُ لا أَميل الى تكفير هؤلاء دون تأنٍ وروية، اذ لايخفى ان التكفير يحتاج الى ثبوت الشروط وانتفاء الموانع، و لايستبعد كون تلك الكفريات – أو بعضها مدسوساً عليهم –، ولكننا في الوقت نفسه لايَسَعُنا السكوتُ حيال تلك المخالفات، أو بيان حكمها الشرعيِّ، ولذلك فإن الموقف الصائب والعادل، أن نقول: هذا القول كفرٌ أو شركٌ، أما هل يكفر قائله أم لا ؟ فهذه مسألة اخرى تحتاج الى تحقيق وتَثبُّت وإِيضاح.

السابعة / الإيمان والعقيدة للتديّن، كالْمَاء والْهَوَاء لِلْجَسَد، اما التزكية والتصوف فهما كالفَاكِهَة والحَلاَوَة: وهذا أحد انتقاداتي على غالبية أهل التصوف فهم– مع الأسف لا يُعيرون العقيدة والإيمان نصف الإهتمام الذي يُعيرونه للتزكية وتهذيب النفس، ولاشك بأَنَّهم مخطئون في ذلك، لأَن الإِنسان بغير الإِيْمَان لاطريق له الى الجنَّةَ، ولكن عدم التزكية –

بالـمعنى العُـرفي الجزئي للكلمة – لايكون مانعاً مـن دخولهـا، فَالإيْمـان – اذاً– بـديل التزكيـة ولـيس العكـس، والحقيقـة كمـا قـال الأسـتاذ سـعيد الكوردي المعروف بـ (بديع الزمان) وبـ (النورسي) مامعناه: هذا العصر هو عصر الدفاع عن العقيدة، قَبْل أي جانب آخر من جوانب الإسلام،[1] وأنـا أرى بأنه كان ينبغي ان يُقيِّدَ كلامـه بقولـه: (لعمـوم النـاس)، لأن التزكيـة بالنسبة للخواص مثل الدعاة والْمَسؤُولين، لَها حكم آخر يختلف عما لعامـة الناس، فالخاصة مُضْطلعون بواجبات جسيمة ولايتم لهم القيام بـذلك علـى أَكمل وجه، دون تجرُّد وتَبـَرُّوء وتطهُّر، وهم بغيـر ذلك ربـما فـوق أنهـم لن يحوزوا على نتائج جيدة، فإنَّهم سَيَكُونون عرضةً للإنحراف الذي يجعلهم بحيث ليسوا لايكسبون الناس فحسبُ، بَلْ ويخسرون أَنْفُسَهم أَيْضاً.

وَبِهَذَا اختتم انتقاداتي وملاحظاتي واقتـراحاتي عن أهل التصوف، وآمـل ان يتقبَّلوهـا مِنّـي، ويُحْـسنوا ظـنَّهم، وأنْ يتأملوافيهـا ويأخـذوا مِنْهَـا مـا يَحْظـى باقتناعهم، من غيـر تعصُّبٍ أو حسّاسيةٍ.

١) انظر: كليات رسائل النـور، (الـمكتوبات)، ص: (٧٩).

الفصل السادس

ختام تصوراتي وتنبيهاتي
عن تزكية النفس

قرائي الأَحِبَّة والأعزاء!

سأحاول –بإذن الله تعالى – أن أعرض في هذا الفصل آخر تنبيهاتي وتصوراتي عن تزكية النفس وتهذيبها، وآمل ان تصبح إِضاءة على الطريق وباعثاً على تزكيتكم وسيركم الى الله جلا وعلا، واعلموا ان العلم بلاعمل لايُجدْي نفعاً، وَقَد قَالَ أَسلافنا: لايُصْبِحُ فمُ الإنسان حلواً اذا صاح: حَلْوى حَلْوى، ولذلك أتوجه اليكم بالتماس أخوي: أن تُحَوِّلوا العِلمَ الى عَمَل، وأن تُجَسِّدوا ما فهمتموه في أنفسكم والحَذَرَ الحَذَرَ أن تجعلوا أَنفسكم (حقيبة معلومات)،[1] فأهمية العلم تكمن في العمل به والإنتفاع منه، والعلم الذي

١) من كلام ثمين للعالم القدير(كاك أحمد مفتي زاده) الذي كان من أهالي كوردستان إيران، وتوفّي سنة (١٩٩٢) الميلادية إثْرَ خروجه من سجن دام عشرة أعوام رحمه الله تعالى.

لايُجَسِّده العَمَلُ والتطبيق، كالشجرة التي لا تُثْمِرُ، وبالتالي لاتستعمل الاّ للزينة أو الوقود! واعلموا – رَحِمَكُمُ الله – أن أَئِمَة السلف وعلمائهم، قَلّما كانوا يدونون الْمَسَائل الْمتعلقة بتهذيب النفس وتزكيتها، لأنهم كانوا يعتقدون أن تلك الْمَسَائل، لايمكن فهمها عن طريق الكتب لأنَّها معاملات تخص جانب السلوك، ويصعب على الإِنسان فهمها إلاّ عِنْدَ رؤيتها مُجَسَّدة في الواقع الْمُعاش، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ان يحقق لنا القيام بترجمة الأَقْوَال إلى أَفْعَال، وأن نكون منتفعين من علمنا قبل الآخرين.

أَولاً/ تزكية النفس وتهذيبها ضرورة حتمية للدُّعَاة، ومن يتصدون لحمل هموم الناس:

نَعَمْ أَيُّها القَارِيء الْحَبِيب!

بِمرور الأيام وكلما زادت تجاربي فِي أَوْسَاط العَمَل الإسلامي الْمشحون بالْمعاناة والْمخَاطر المحدقة، كلما زاد اقتناعي واطمئناني بضرورة وأهمية الجانب الذي سّماه القُرْآن بالتزكية، وَالسُنَّة بالإِحسان، وسُمِّي تصوفاً في التراث الإسلامي، بل هو شرط أَساسي وضرورة حتمية وصيانة لمقتضى التدين، لدى جميع الْمُسْلِمين، ان كانوا حريصين على تأصيل دينهم وتعميقه والقيام بواجباته وفق أساس متين.

ولهذا أكد الله جل وعلا على أهمية الجانب الْمَعْنَوي لتربية الْجَمَاعَة الْمُسْلمة عَلَى يَد النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، حيث خَصَّص له مِساحةً شاسِعة من السور الْمكية بصورة مباشرة وغير مباشرة، وكان ذلك أمراً مطلوباً وفي محلِّه، إذْ أَصبح ذلك الجيل بمثابة الحجرالأَسَاس، وقائد الْمسيرة وَالْهَادِي الّذِي يسير الناس على هداه، فإن لَمْ يكونوا على درجة

فائقة من القوة والتمحيص، صعب عَلَيْهِم تحمل الْمشاق والثقل الذي يُلْقَى عَلَى عَواتقهم، ولنتأمل هذه الآيات الكَرِيْمَة لتظهرلنا الصورة بشكل أوضح: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾ المزمل.

وَالمخاطَبُ في هذه الآيات العظيمة البعيدة الدلالة، وإن كان هو شخص الرّسُول صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، ولكنها تشمل الأَصْحَاب الكِرَام، الذين كانوا يحيطون بالنَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، لأن تلك الآيات أُنزلت للرسول عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَم لكي يقرأها على مَنْ حوله ويربِّيهم عَلَى هَداها: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ ... ﴿٢﴾ ﴾ الجمعة.

ولهذا ذكر تعالى فِي آخر سورة (الْمُزمل) قيام النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لصلاة اللّيل، بصيغة الْجَمْع وَذلِكَ كَي يكون الخطاب شامِلاً للصحب الكرام أَيْضاً: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى

ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾ المزمل.

نَعَمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمون الأَحِبّة!

فلا يمكن تحقيق أي عمل عَظِيم دون استعداد وَتَمْهِيد، وَحَتّى لو تَمَّ ذلك في ظاهر الحال، فلا يكتب له النجاح ويبقى النقص يَشُوبُه، وإنَّ أهمَّ جَوانب التهيئة والتمهيد في منظور الإسلام، تكمن في الناحية المعنوية، فلاشك أن أصل الإِنْسَان هو الرُّوح، وما الجَسَد الاّغطاءٌ وَمَظْهَر وظِلٌّ.

وأُعيد القَولَ تَارَةً أخرى: إنَّ تهذيب النفس وتقوية الجانب الْمَعْنَوي لِجَمِيع الْمُسْلمين أَمرٌ في غاية الأهمية، وهو القاسم المشترك بين المُسْلِمين جَمِيعاً، وهو بِمعناهُ الواسع الذي هو أَوسع من مدلوله العرفي، الطريقَ الوحيد الى السعادة والسؤدد: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ الشمس.

وَلَكِن الذي لايقبل جِدَالاً، أن تزكية النفس وتقوية الجانب الْمَعْنَوي لِأُناسٍ يضطلعون بحمل الأعباء الثقيلة والإهتمام بشؤون الناس وإدارة أمورهم، أشد حاجةً وأَكثر تأثيراً في مصيرهم، فمثل هؤلاء غَالِباً ما يقعون

تَحْتَ أَنواع من الضغوط من قبل المجتمع والمحيط الذي يعيشون فيه، فإنْ لَمْ يَكُونوا أشِدّاء أقوياء في ذواتهم وتعاملهم مع الله تعالى، فَهُمْ مُعرَّضون لأن تَزِلَّ أقدامهم، ومن أجل أن يكونوا بِمَنْأىً عن الخطأ والإنحراف والزَّلَل،[1] وكذلك لتيسير أمورهم[2] ووضوح رؤاهم،[3] فهم أحوج من غيرهم أن يُطَهِّروا أنفسهم ويُهَذِّبوها، وأنْ يرسخوا وشائجهم مع الله جل في علاه، وتأمل سورة (العلق) التي تضمنت أولى الآيات الى النَّبِيِّ الخَاتَم صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وفيها يرشد الله تعالى نَبِيَّه صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، أن يقاوم ضغوط الأعداء وتهديد الأشقياء، مثل: (أَبي جَهْل)، بالطاعات والسجدات ومزيد من التقرب الى الله تعالى، وبذلك يمكنه إفشال مخططاتهم: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾ ﴾ العلق.

---

١) ﴿ ...وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ آل عمران.

٢) ﴿ ...وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ﴾ الطلاق.

٣) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ...﴿٢٩﴾ ﴾ الأنفال.

ثانياً/ تزكيـة النَّفْس شَطر الإِسـلام، والإِسـلام لَـيْسَ سِـوَى القُـرآن وَالـسُنَّة، والتـديُّن هوالإِلتزام بهما:

نَعَـمْ يا قـرّائي الأعـزاء !

– يـجدر بنا – ونحن نتحدث عن التزكية والتصوف، أنْ نضع – نـصب أعيننـا– هذه الحقائق الثـلاث:

١– إِنَّ تزكيـة النفس جزء من الإِسلام، وجانِبٌ مـن أَصـل التـديُّن والتقيُّـد بالإِسـلام.

٢– الإِسلام عبـارة عن القُرآن وَالسُـنَّة.

٣– لايتحقـق الإِسلام دون الإِنقياد للقُرْآن وَالسُـنَّة.

نستنتج من الحقيقة الأولى، خطأ تصور كثير من معارضي التصوف، وفِي الوقت نفسه كثير من مؤيدي التصوف المتعصِّبين، فكلا الفريقين لَـمْ يـصيبا الحقيقة، حيث اعتبر الفريـق الأول التـصوف غريبـاً عـن الإِسـلام، واعتـبر الفريق الآخر التصوّف هو الإِسلام كُلّه!

ومن الإِنصاف ان نقول: لَيْسَ التَصوّف شَيْئاً غير الإِسلام ولا هو الإِسلام كله، والتديُّن بلا تزكية أمرٌ لايتحقق، وفِي الوقت عينه، لَيْسَ الإِسلام كلـه عبارة عن التصوف.

ويشـهد للحقيـقة الثـانية – غيــر الآيـة التــي كثيــراً مـا تتكــرر فِي القُـرْآن: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴿٥٩﴾﴾ النساء، الكثيــر مــن الأدلــة الناصعة، والتـي يؤخذ منها: أنه ليس فقط مَنْ يريد أن يُعَـدَّ مُـسْلِماً صَـادِقاً ومُزكّى النَّفْس، بل الذي لايريد أنْ يُوصَمَ بالخروج عن الإِسلام أَيْضاً، عَلَيْهِ

ألاّ يُضِيفَ – بأية ذريعة من الذرائع – الى القُرْآن وَالسُنَّة مصدراً غيرهما، كَكَرَامَة وليٍّ، والرؤية والكشف والإِلْهَام، والخلاصة انه لا يَحِقُّ له أنْ يُضِيفَ أيَّ شَيءٍ الى شرع[1] الله وَرَسُوله صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ.

كما أَنّنا نستنتج من الحقيقة الثالثة، أن التدين مقتصر عَلَى أُسلُوب وَكَيفية وَاحِدَة، وهي الإلتزام بالقُرآن وَالسُنَّة، وتنفيذ قوله تعالى: ﴿ ...أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ...﴿٥٩﴾ ﴾ النساء، وأنَّ التقيُّد بأيِّ كتاب من الكتب أَو مذهب، أَو طريقة، أَو سياسة، أَو تصور معين لأي شخص، مَالَمْ يكن في إطار القُرْآن وَالسُنَّة – بالإضافة الى القواعد الْمستنبطة –، لَيْسَ فقط لايكون بديلاً عن اتِّباعِ القُرْآن وَالسُنَّة، بل لايجوز ذلك أصلاً، ومن اعتبر غير القُرْآن وَالسُنَّة، وما ينبثق عنهما من قوانين وثوابت – ديناً، فهو بتصوره ذلك يكون قد شهد على نفسه بالكفر والخروج من الملّة، ولايُخَلِّصُهُ من ربقة الكفر– ربما– الاّ عَدَمُ تحقّق الشروط وانتفاء الْمَوانع، وذلك بشكل مؤقت[*]، وان اهتداء الْمُسْلِمين عموماً وأَتباع الطرق الصوفية خصوصاً الى هَذِهِ الْحقيقة العظيمة والْمهمة، والتعامل في ضوئها، يعصمهم من أخطاء قاتلة.

---

١) نعني بالشرع هنا الدين ومنهاج الله تعالى، وليس المعنى الإصطلاحي للكلمة، وهو (الفقه) .

*) وذلك لأنه إذا انتفت عنه موانع التكفير التي تحولُ دون تكفيره، وثبتتْ الشروط اللاّزمة لإطلاق حكم الكفر عليه، فَسَيَلْزَمُهُ الحكم المذكور.

ثالثاً/ التوحيد وأتّباع رَسُول الله صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ هُوَ جَوْهَر الإِسْلام وَتَزكِية النَّفس:

نَعَمْ يا أَبناء الإِسلام الأَعِزَّاء!

توحيد[1] الله تعالى في ربوبيته وأسمائه وألوهيته، واتّباع النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، بكل ماتحمله كلمة الإتّباع من معنى فيما يَخُصُّ القيام بواجبات الإسلام والعبودية لله، وكل ما يَمتُّ بصلة الى الآداب وسائر المعاملات في الحياة، فالتوحيد والإتّباع هما أصل وجوهر العبودية لله تعالى، وتزكية النفس، لأن العبودية والتديُّن لايمكن تحقيقها الا بشرطين:

١ – إخلاصُ العبودية لله تعالى.

٢ – عبادته وفق الكيفية التي حدّدها النَّبِيُّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ.

وجدير بالذكر أنَّ علماء الإسلام قاطبة – سلفاً وخلفاً – أكّدوا على هاتين المَسأَلَتَين أَيَّما تأكيد، وبالتالي فَقَدْ أَكّدتْ عَلَيْهما – بطبيعة الحال– نصوص القُرْآن وَالسُنَّة بشكل ملحوظ، ولكن الذي يدعو الى الأسى والأسف ان تَينك المسألتين – ومنذ وقت مبكر– ورغم الأهمية البالغة التي لهما، فأنهما لَمْ تَحْظَيا عند كثير من الْمؤيدين والإتباع السُّذَّج وذوي الْمستويات الدنيا في الطرق الصوفية، بأي اهتمام، ولَمْ يعد يبذل لَهُما أي رعاية، وَمِما زاد الطين بَلّةً، هو الْمُبالغة والغلُو في تقدير شيوخ الطريقة وتوجيهاتهم وَأَحَاديثهم التي لحقها التحريف والتغيير، بدورها أَو أن

---

١) بفضل الله تعالى فقد خصصنا (٢٤) درساً من سلسلة: (دروس في الإيمان والعقيدة السلامية)، لإِيضاح وبحث التوحيد، وقد اشتمل عليها المجلدان الثاني والثالث من كتاب: (الإيمان والعقيدة الإسلامية).

شيوخهم أَصْلاً، لَمْ يَكُونُوا سوى أسماء بلا مضمون، فجاء الأتباع بدل أن يُوَحِّدوا الله تعالى عَظّموا وقدَّسوا شيوخَهم وكبراءهم، واستبدلوا اتِّباع النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بالتقليد الأعمى لتوجيهات هؤلاء الشيوخ المخالفة للشرع، والتي غَدَتْ هي الْمنهاج والأسلوب الْمُفَضَّل في التديّن والتصوف لدى هؤلاء!

والأَدْهى من ذلك كله، أن الطريقتين اللّتين تحظيان بالحفاوة والإتِّباع في كوردستان –بجميع أجزائها – هُما:

الطريقة القادرية[1].

الطريقة النقشبندية[2].

وأن أتباع ومناصري كلتا الطريقتين قد ابتلوا بكثير من الشركيات الكبيرة والصغيرة والبدع، مع أَنَّ مؤسِّسي الطريقتين، وهما عَلَمان من مشاهير الأئمة، أكّدا كَثيراً على التوحيد واتِّباع النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وفي الوقت ذاته أكّدا أَيْضَاً على ضرورة اجتثاث مايضادُّهما من الإشراك بالله والإبتداع في الدين، وهذه مقتطفات من أحاديث هذين الأمامين وإرشاداتهما: يقول الشيخ عبدالقادر الگيلاني– الذي كَانَ مُوَطِّنا نَفْسَه للدفاع عن التوحيد والتجرّد لله تعالى – فِي أَحد مجالسه:

{الخلق عجزة لا يَضُرُّونك ولا ينفعونك، إنما الحق عَزَّ وَجَلَّ يجرى ذلِكَ عَلَى أَيديهم، فعله يتصرف فيك وفيهم، جرى القَلم فِي علم الله عَزَّوَجَلَّ بما هو لَكَ وَعَلَيْكَ. الْموحدون الصالِحون حُجَّة الله على بقية الخلق، مِنْهُمْ

---

١) اتباع الشيخ عبدالقادر يسمون في كردستان دراويش.

٢) اتباع الطريقة النقشبندية يسمون بالصوفية في كوردستان.

من يتعرَّى عن الدنيا من حيث ظاهرة وباطنه، وَمِنْهُمْ من يتعـرّى عنهـا مـن حيث باطنه فحسب، لا يرى الحق عَزَّ وَجَلَّ، على بواطنهم منها شـيئاً تلـك القلوب الصافية، من قدر على هـذا فقـد أعطـى الــملك مـن الخلـق، هـو الشجاع البطل، الشجاع من طهر قلبه مِما سِوى الله عزّ وجلّ، ووقف على بابه بسيف التوحيد وصمـصامة الـشرع، لا يُخَلِّـى شَـيْئَاً مـن الْمَخْلُوقـات يدخل إِلَيْهِ، يَجْمَع قلبه بِمقلب القلوب، الشرع يُهَـذِّب الظـاهر، والتوحيـد وَالْمَعرفة يُهَذِّبان الباطن}(*).

وَيَقُول فِي مَجلس آخر من مجالسه التي يعقدها لأَهل بغداد عـن التوحيـد أَيْضَاً: {(يَا غُلام) مَا أَنْتَ عَلَى شَيء، الإسلام ما صُحِّحَ لـك، الإِسـلام هُـوَ الأساس الذي يُبْنى عليه الشهادة، ما تمت لك، تقول لاَ إِلَهَ إلاّ الله وَتكذب، في قلبك جماعة مـن الآلهـة، خوفـك مـن سـلطانك، ووالـي محلتـك، آلهـة، إِعتمادك على كسبك وربحك وحولك وقوتك وسـمعك وبصرك وبطشك، آلـهة، رؤيتك للضر والنفع والعطاء والمنع مـن الخلـق، آلــهة، كثيــر مـن الخلق مُتَّكلون على هذه الأشياء بقلوبهم ويظهرون أنهم مُتَّكِلون على الحـق عَزَّ وَجَـلَّ، قد صار ذكرهم للحق عَزَّ وَجَــلَّ عـادة بألـسنتهم لا بقلـوبهم، فإذا حوققوا في ذلك حَرَدوا وقالوا: كيف يقال لنا ألسنا مُسْلِمين؟ غَدَاً تَبِينُ الفضائِحُ وَتَظْهَرُ الُمخبآت، (وَيْحَـكَ) تؤيد في قولك إذا قلت: (لاَ إِلَـهَ) نَفِـي كُلي، (وَإلاّ الله) إثبات كُلي لَه لاَ لغيـرهِ: فأي وقت اعتمد قلبك على شَيء غير الحق عَزَّوَجَلَّ فَقَد كَذَبتَ فِي إثباتك وصار، هو الْمخلص، هو الْمتقـي، هو الورع، هو الزاهد، هو الْموقن، هو العارف، هو العامل، هو الأمير ومن سـواه جنـوده وأتباعـه. إذا قلـت: (لاَ إلـه إلاّ الله) فقـل أَولاً بقَلْبِـكَ ثُـمَّ

*) (الفتح الربّـاني والفيض الرحماني) ص: (٥٤، ٥٥).

بلسانك، وأتكل عليه واعتمد عليه دون غيره، اشغل ظاهرك بالحكم وباطنك بالحق عَزَّ وَجَلَّ}[1].

وَكَانَ السَّيِّد أَحْمَد السرهندي المعروف بـ (الإمام الرَّبَّاني) كَثيراً مايؤكّد في رسائله وكتاباته على ضرورة اتِّباع السُنَّة النبوية والبعد عن البدع، وله في ذلك أقوال كثيرة، ويكفيه انه اعلن بصراحة وجرأة واستنباطاً من نصوص السنة –وما استبان له عن طريق الإلهام والكشف أَيْضاً – أنَّ تقسيم البدعة الى خَمْسَة أَقْسَامٍ، أَوالى قسمين: (البِدْعَة الْحَسَنَة وَالبِدْعَة السَيّئة) خطأ لاَ أَصْلَ لَهُ، وأن البدعة لايمكن ان تكون حَسَنة بحال من الأَحوال و(كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَة)، حيث قال بهذا الصَّدد[2]: {قال بعض الناس ان البدعة على نوعين حسنة وسيئة، فالحسنة هي كل عمل صالح حدث بعد زَمَنِ نبيِّنا، وزمن خلفائه الراشيدين عليه و عليهم الصلاة والسلام، ولم يكن رافعاً للسُنّة، والسَّيِّئة ما تكون رافعة للسنة، وهذا الفقير لا يشاهِدُ في شيء من البدعة شيئاً من الحُسْنِ والنورانية، ولا يَحُسُّ فيها شيئاً سوى الظلمة والكدورة، ومن رِاى اليوم – فرضاً – طراوة ونضارةً في الأمر المبتدع، بسبب ضعف البصيرة، ولكن سيعلم غداً بعد حصول الحِدَّة في بصره، أَنْ ليس له شيءٌ من نتيجة غير الندامة والخسارة.. قال سيِّد البشر عليه الصَّلاة والسلام: {مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ}، مُتّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (٢٦٠٧٥)، البُخَارِيُّ برقم: (٢٥٥٠)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٤٥٨٩)، {عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فإذا كان

١) المصدر السابق، ص: (٦٢، ٦٣).

٢) أنظر: (مكتوبات الإمام الرّبّاني) للإمام الشيخ أحمد بن الشيخ عبدالأحَد السرهندي، ج: (١)، ص: (١٥٩)، الطبعة الثانية.

الشيءُ مردوداً فمن أين يجيءُ لهُ الحُسْن...؟!}، وجدير بالذكر أن السيِّد يرى أن البدعة محصورة في مجال العبادة، وليس لها دخل في مجال المعاملات والعادات، كما جاء في مكتوباته، وهو محق في هذا[1] نَعَمْ فَهَذِهِ هِيَ مواقف هؤلاء الأئمة الفطاحل، ولكن الذي يدعو الى الأَسى أَنَّ كثيراً مِمن يَتَسمُّون بالشيخ والخليفة والصوفِي والدرويش في كوردستان وغيرها، قد ابتلوا بالشرك والبدعة والخُرافات وهمَ يَدَّعون اتِّباعَ طرق هؤلاء الأئمةَ!!

رابعاً/ القُرْآن وَالسُنَّة كَافيان للإِهتداء إلى الصّراط الْمُسْتَقِيم، وَلَكِن قلّما يمكن أنَّ تتم تزكية النّفس بصورتها المُثلى، إلاّ عن طريق مرشيد:

وهذا موضع اتفاق بين سائر الأئمة والْمتخصصين في مجال التزكية والتصوف، ولئن كان قد تبين لي شئ، فأنا أرى الرأي ذاته، ولأَحدٍ ان يتساءل: اذا كان القُرْآن وَالسُنَّة كافيين للهداية الكاملة، فما بالُ التزكية والتهذيب لاتهتدي الى نفس الإِنْسَان سَبيلاً دون شيخ أو مُعَلِّم؟!

وَالْجَوَاب: أن كُلَّ شخص لايمكنه فهم القُرْآن وَالسُنَّة كما ينبغي، وخصوصاً من الناحية الْمَعْنَوِية التي تعتبر أعمق الجوانب وأوسعها فِي القُرآن وَالسُنَّة، ثُمَّ نقول: هَل الخِبرة فِي كُتُب الطبّ ومطالعة الْمَصَادر الخاصة بعلم الْهَنْدَسَة، كفيل ان يجعل الإِنْسَان طَبِّياً أَو مهندساً دون معلم ؟ بالطبع لاَ، لِذا علينا ألاَّ نظر بعين الإِستغراب الى ماورد عَلَى لِسَان كثير من أَهْل التصوف بان (مَن لَمْ يَكُن لَهُ شَيخٌ، فَشَيْخُهُ الشَّيْطَان) شريطة ان تكون

١) المصدر السابق، ج: (١)، ص: (٢٠٧).

لدينا المفهوم الصحيح لكلمة الشيخ(*)، وقد سَلّطنا بَعْضَ الضوء على ذلك في الفصل الخامس، ومع ذلك فنحن نتفهم ان لكل قاعدة شواذاً، ومن الناس مَنْ يَخُصّهُ الله تعالى بالفهم الثاقب والقدرة الخاصة، فَتَتيَسَّر أموره، كما قال تعالى عن العبد الصالح الذي ذهب اليه موسى عليه السلام ليتعلم منه: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ الكهف.

خامساً / تزكية النفس خصلة أساسية من خصال سلفنا الصالح، ولَم يعارض هَذِهِ الْحَقِيقَة أَحد من العُلَمَاء الْمُتأَخِرين الْمشهود لَهُم بالعلم والصلاح:

لو تأملنا سيرة سلفنا الصالح وأخلاقهم وطريقة تعاملهم، تبين لنا جلياً أَنَّ كُلَّ عَلَمٍ من هؤلاء، كان في القمة السامقة من الناحية المعنونة والأخلاقية، وكان الإيْمان واليقين والصَّبر والشكر والتوكل والعبادة والتقوى والزهد والتواضع والشجاعة والسخاء والإخلاص والتجرّد والطهارة ... الخ، من خصالهم البارزة، وكانوا كالنجوم اللامعة التي تتلألأ في السَّمَاء، وكذلك الحال مع العلماء الذين اتبعوهم واقتفوا آثارَهم، فَلَقَدْ حَظَوْا بِسَهْمٍ وافِرٍ من التزكية والتهذيب والصّفات الجميلة والأخلاق الدمثة، التي جعلها القُرْآن وَالسُنَّة علامة وشعاراً للمؤمنين.

ولا أَجِدُ ضرورة ههنا أَن أَتناول الحديث عن أعلام كـ (الجُنَيد البغدادي، ومعروف الكَرخي، وسهل التستري، وأبي حامد الغزالي،

---

*) المقصود باشيخ هو المربِّي والمعلِّم والمرشد الحق الذي يُزنّي أَتْباعَهُ على أساس القُرآن والسُنَّة، وفي ضوء آثار وتجارب الصالحين، وتجارب الشخصية هو.

ومحي الدين النووي، والعز بن عبدالسلام، والسيوطي، وابن حجر العسقلاني، وابن حجر الهيثمي ...الخ).

فهؤلاء إما كانوا متصوفة بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة، أو كانوا ذوي مشرب صوفي، ولكِنِّي سأتحدث عن ثلاثة من القدماء، وثلاثة من المعاصرين، حيث لم يشتهرْ أَحدٌ من هؤلاء بالتصوف، بَيْدَ أنَّ مواقفهم كانت منصفة وإِيجابية عن التصوف وأهله الصادقين:

والقدماء الذين أرغب في التحدث عنهم هم (ابْنُ تَيْمِية) و(شاه وَلِي الله الدَهْلَوي) و(ابْنُ قَيم الجوزية)، أما (ابْنُ تَيْمية) رَحِمَهُ الله والذي عُدَّ عدواً لدوداً للتصوف جهلاً ظلْماً، سَواء من قِبَلِ بعض مؤيِّدي التصوف، أَو بعض مُعارضيه، لَهُ حوالي (٨٠٠) صفحة كتبها حول التصوف في الجزئين: (١١ و ١٢) من (مجموع الفتاوى)، تحت عنوان (علم السلوك) في ج(١١)، و(كتاب التصوف) في ج(١٢)، وابن تيمية كأي عالم متعمق وضليع فرق بين التصوف الأصيل والإِلتزام بالقُرْآن وَالسُنَّة، والتصوف الْمشحون بالأخطاء والْمخالفات الشرعية التي تضر ولا تنفع، وأما (شاه ولي الله الدَهْلَوي) رَحِمَهُ الله، فهو أَحد العلماء والأَئِمَة العاملين وخصوصاً فِي مجال التفسير والحديث والفقة، فقد كتب (٦٥) صفحة عن التزكية والإِحْسَان وضَمَّنَها معاني دقيقة لايتيسر الحصول عليها – ربما – عند غيه، وذلك في كتابه الشهير: (حُجَّة الله البالغة)[١].

والثالث هو العلامة (ابن قيم الجوزية) رحمه الله تعالى، وهو من أقرب تلامذة (ابن تيمية)، غير أنه بلغ شأواً بعيداً في مجال التزكية والعرفان،

---

١) انظر: حجة الله البالغة، ج: (٢)، ص: (١١٧-١٨٢).

وغدا متخصصاً طويل الباع فيه، ولا أعرف عالماً أو فقهياً – باستثناء أبي حامد الغزالي – تعمق في قضيَّة التزكية والأخلاق كما فعل ابن القيم، ولايخلو كتبه– قَلّ أو كَثُر– من ذكر وتطرق الى تلك القضيّة وبعضها مُخَصَّصٌ لذلك، مثل كتابه: (مدارج السالكين) وتتكون من ثلاثة مجلدات، وهو شرح لكتاب الشيخ اسماعيل الهروي (منازل السائرين) وكذلك كتابه: (إغاثة اللهفات من مصائد الشيطان) وهو قرابة (٧٠٠ صفحة)، ومعظمه يتناول مكائد إبليس اللعين، في جميع جوانب الإيمان والعقيدة والعبادة والأخلاق و التعامل والتجارة وسائر المعاملات الأخرى، وكذلك كتابه: (طريق الهجرتين وباب السعادتين) وهو قرابة (٥٠٠) صفحة وكتاب (حادي الارواح الى بلاد الأَفراح) و كتاب: (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) وكتاب: (مفتاح دار السعادة) وكتاب: (الروح)، وسأتطرق في عجالة الى ذكر ثلاثة من علمائنا المعاصرين، وبالطبع فإن من أذكرهم سواء من القدماء أو المعاصرين، فأنما أعني ضرب المثال وليس الإستقصاء، وهم: الشيخ (حَسَن البنا) رحمه الله تعالى، والإستاذ بديع الزمان: (الْملا سعيد النورسي) رحمه الله تعالى، والأستاذ (سَيد قُطْب إبراهيم) رحمه الله تعالى، فأما أولهم فهو مؤسس أُولى وأضخم الجماعات الإسلامية في القرن العشرين وهي: جماعة (الإخوان الْمُسْلِمون)، وقد ذكر مسائل عن دعوته وعن جماعته ومنهجه والمنهاج الداخلي والشعارات التي ترفعها جماعته، ومنها أنَّها (حقيقة صوفية)، ويقصد بذلك بأنَّ جانباً من دعوته ومنهجه، هو التزكية والتصوف الحقيقي[1].

---

١) ورد ذلك في كثير من المصادر والكتب الصادرة عن جماعته، مثلا انظر: (تربيتنا الروحية) سعيد حوي.

أما الثاني فهو إِمامٌ وعالِمٌ نابغة من كوردستان تركيا، وقد ألّف معظم كتاباته ورسائله منفياً ومسجوناً، وله (١٣٠) رسالة، وقد ترجمت الى العربية وطبعت حديثاً في عشرة مجلدات كبيرة تحت عنوان: (كليات رسائل النور) وقد خصص حياته كلها، ونتاجاته جميعاً – وخصوصاً كتاباته في الْمرحلة الثانية من حياته والتي سمَّى نفسه فيها (السعيد الجديد) – لإيضاح مسائل الإِيْمان والعقيدة والأخلاق وتهذيب النفس.

هذا مع أنه أعلنها صريحةً بأنه لا يتبع مسلكاً صوفياً، ولا هو شيخ لطريقة، رغم كونه يُكِنُّ احتراماً وتقديراً للطرق الصوفية وشيوخها العاملين وخصوصاً الشيخين: (عبدالقادرالكيلاني) و(السيداحمد السرهندي)(١).

اما الشخصية الثالثة فهو (سيد قطب)(*) الأديب والكاتب الألمعي العزيز، كان باحثاً متمكناً فِي القُرآن، ومناضلاً وبَطَلاً قَلَّ نظيرُهُ في التضحية من أجْل الإسلام، وهناك بعض البُسطاء الجهلة يعتبرونه معادياً للتصوف، ولقد أورد في العديد من مواضع تفسيره: (فِي ظِلاَل القُرْآن) مسائل معمقة ودقيقة عن الإِحسان والتقوى والتزكية، التي لايمكن للإِنْسَان أن يبلغها ولا يريح رائحتها إلاّ بعد مجاهدة النفس والسير الى الله تعالى،

---

١) انظر: (كليات رسائل النور)، ج: (٢)، (المكتوبات)، ص: (٧٩)، وجدير بالذكر أن النورسي قضى أكثر من ثلاثين سنة من عمره مبعداً ومسجوناً من قبل الأنظمة العلمانية المتعاقبة في تركيا، حتى أن رسائل النور)، ج: (٩)، (السيرة الذاتية)، أعلى الله مقامه ورفع درجاته وأجزل ثوابه. عناصر الشرطة لازمته وهو يحتضر، وقد دفن بعد وفاته في مكان مجهول، أنظر: (كليات

*) وقد قتل كل من (حسن البنّا) و (سيد قطب) رحمهما الله تعالى بإيعازٍ من القوى الكبرى ومباشرة من الأنظمة الطاغوتية المستبدة المحلية المصرية، حيث اغتيل الأول بالرصاص في (١٩٤٩)، وأُعدم الثاني شَنْقاً في (١٩٦٦) تقبلهما الله الكريم شهيداً.

فمثلاً تأمَّلْ كيف يفسر قوله تعالى: ﴿ ...فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ... ﴿٥٤﴾ ﴾ المائدة، حيث يقول:

{فالحب والرضا الْمتبادل هو الصلة بينهم وبين ربّهم ... الحب ... هذا الروح الساري اللطيف الرفاف الْمشرق الرائق البشوش .. هو الذي يربط القوم بربهم الودود}.

وحب الله لعبد من عبيده أمر لا يَقْدِرُ على إدراك قيمته، الاّ مَنْ يعرف الله – سبحانه– بصفاتِهِ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ، وَإلاّ مَنْ وجَدَ إيقاع هذه الصفات في حسه وشعوره وكينونته كلها .. أَجل لايقدر حقيقة هذا العطاء الا الذي يعرف حقيقة المعطي .. الذي يعرف مَنْ هو الله، مَنْ هو صانع هذا الكون الهائل، وصانع الإنْسان الذي يُلخِّصُ الكون وهو جرم صغير! مَنْ هو في عظمته، ومَنْ هو فِي قدرته، ومَنْ هو فِي تفرُّده، وَمَنْ هو في ملكوته .. وَمَنْ هو هذا العبد الذي يتفضل الله عليه منه بالْحُبِّ، والعبد من صنع يديه سبحانه وهو الجليل العظيم الحي الدائم الأزلي الأبدي، الأول والآخر والظاهر والباطن، وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد لا يُدْركها كذلك إلاّ مَنْ ذاقها .. واذا كان حب الله لعبد من عبادهِ أَمراً هائلاً عظيماً، وفَضْلاً غِامراً جزيلاً، فإن إنعام الله على العبد بهدايته لحبه وتعريفه هذا الـمذاق الجميل الفريد الذي لا نَظير له في مذاقات الحب كلها ولا شبيه له، هو إِنعام هائل عظيم، وفضل غامر جزيل.

واذا كان حب الله لعبد من عبيده أمراً يفوق التعبير، فإن حب العبد لربه أمرٌ ما استطاعت العبارة أن تُصوِّره الاُّ في فَلْتاتٍ قليلة من كلام الْمُحبِّين.. وهذا هو الباب الذي تفوَّق فيه الواصلون من رجال التصوّف

الصادقين، – وهم قليل بين ذلك الحشد الذي يَلْبَسُ مُسوحَ التصوُّف ويعرف في سِجلِّهم الطويل – ولا زالت أَبياتُ رابعة العدوية تَنْقُلْ الى حِسِّي مَذاقها الصادق لهذا الحُبِّ الفريد، وهي تقول:

فَلَيتكَ تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأَنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالَمين خراب
اذا صحَّ منك الود فالكل هَيِّنٌ ... وكل ما فوق التراب تراب

وهذا الحب من الجليل لعبد من العبيد، والحب من العبد للمنعم المتفضل، يَشِيعُ في هذا الوجود ويسري في هذا الكون العريض، وينطبع في كل حي وفي كل شيء، فإذا هو جو وظل يغمران هذا الوجود، ويغمران الوجود الإنساني كله، ممثلاً في ذلك العبد المحب المحبوب}(*)

نَعَمْ هَذِهِ هِيَ مواقف العُلَمَاء سلَفاً وخلفاً ومعاصرين، حيال التزكية والتصوف الحقيقي الملتزم باشرع.

سادساً / أئمة التصوف والتزكية لم يستحدثوا طريقة غير القُرآن والسُنَّة:

ومما يدعو للأسى والأسف، ان غالبية المُسْلِمين عموماً وأتباع الطرق الصوفية خصوصاً، بِمن فيهم الشيوخ والكُبراء أَيْضَاً، يتصورون أَنَّ أي شيخ أَوْ إِمام من أَئِمَة الطرق الصوفية، اختاروا لأَنفسهم طريقة واستحسنوها في أَسلوب التديّن وتربية أتباعهم عليه بِمَعْزِلٍ عن الكتاب

*) (في ظلال القُرآن) ج: (٢)، ص: (٩١٨).

والسنة ! وهذا التصور فوق كونه مُجافياً للحق والصَّوَاب، فإنه بهتان وفرية توجه الى هؤلاء الأئمة والأساتذة ذوي المقامات العالية، فلا ريب أن أئمة مثل: (الجُنيد البغدادي وأبي سليمان الداراني وإبراهيم بن الأدهم ... ثم أبي حامد الغزالي وعبدالقادر الگيلاني وبهاء الدين النقشبندي...الخ)، قد أَفْنوا أعمارهم لكي يسيروا هم وأتباعهم، على نهج النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وألاَّ يحيدوا عنه قيد شعرة وهم لم يطلبوا من أحد –قط– ان يتبعوا جنيداً أو ابن الأدهم أو الغزالي أو الگيلاني أو النقشبندي، بل كانوا ماينفكون يرشدون الناس الى اتّباع النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ.

اما السبب في ان مذاهبهم وطرقهم عُرفت فيما بعد بأسمائهم، فقيل: الطريقة لگيلانية، والطريقة السهروردية، و الطريقة النقشبندية ...الخ، فَيَكْمُن في أن أَتْباعهم لَم يتمكنوا من مواصلة طريقهم – وهي عينها طريقة السنة واتّباعُ النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ –، وان يسيروا على ضوء نصوص القُرآن وَأَحَادِيث الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسّلام، وكان حالهم كحال أَتْباع الْمَذَاهب الفقهية ومقلدتها، حيث – وبمرور الزمن –طرأت عليها التغيُّرات من زيادة ونقصان وشُوِّهت وحُرِّفت آخر المطاف، والناس بسبب الغفلة وضحالة العلم بدؤوا يتناسون حقيقة إرشادات هؤلاء الشيوخ رويداً رويداً، ثم اعتادوا على الْمخالفات الشرعية والأخطاء والإنحرافات الحاصلة، وباتوا يعتقدونَ أنَّ كل ما أُسند الى (عبدالقادر الگيلاني) أَوْ (بَهَاءَ الدّين النَقشبَندِي) أَوْ يمارس باسمهما، هما اللّذان قالوها فعلاً!!

والحقيقة كما ان الأَئِمَة من أَصْحَاب الْمَذَاهب كـ (الحسن البصري، وسفيان الثوري، وابن الْمُسَيِّب، وأَبي حَنيفة، وَجَعْفَر الصادق، ومالك، والشافعي، والطبري، وأَحْمَد، ودَاوُد الظاهري) رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالى، لَمْ يأتوا

بشئ من عند أنفسهم، وإِنَّما كانت مذاهبهم الفقهية عبارة عن تفسير وشرح الآيات والأحاديث، وعلى أبعد تقدير إِدْلائِهم بتصوراتهم وآرائهم في المسائل التي تحتمل أكثر من رأي، وكذلك الحال بالنسبة للطرق الصوفية، بل مجال الإِجتهاد في (الفقه) أَوسع منه فِي (التصوّف)، اذ ان الْمُتَّسَع الْموجود في الْمسائل الإِجتهادية والفقهية، تشمل مساحة رحبة، بخلاف قضايا العبادة والتزكية والتقرب من الله عَزَّوَجَلَّ، حيث لايكون هنالك مساحة واسعة للإجتهاد.

والمهم هنا أن نثق ونطمئن أنَّ أحداً من هؤلاء الأَئِمَة والْمتصدين لإرشاد الناس، لَم يَسْتَحلّوا– يوماً من الأيام – ان يُضِيفوا من عند أَنفسهم شيئاً إلى الإسلام، دع عنك أَنْ يَسْتَحْدِثوا طريقةِ بِرُمَّتها، تصبح فيما بعد بديلة عن السُنَّة النبوية!!

وينبغي أن يقال هُنا أَيْضَاً: أنَّنا إِذْ ندافع عن الطرق الصوفية، ونقول بأن أصْحابها لَم يبتدعوها، فإنَّما نعني الطرق التي تُعْرَفُ أَصْحَابُها ومؤسِّسوها، مثل: (أَبي حامد الغزالي، وعبدالقادر الگيلاني، والسيد أَحْمَد السَرهَندي، ومولانا خالد الكوردي)، لا ان يأتي شويخ ويجمع حوله بضعة من الدراويش والمتصوفة، فنشهد لهُ هذه الشهادة! أو أن يقول أي شخص – مستتراً وراء الزهد والتصوف – مايشاء من الأخطاء والشطحات، فَنأتي ونُرَقِّعُ له، ولاشك أن أشخاصاً كابن عَرَبي وابْنُ سبعين والحلاج ..الخ، قد جاؤوا بتخبّطات وأخطاء جسيمة، وأُسندت إِليهم كذلك أَفعالٌ ومواقف سَيئة، لا يسمح أي مُسْلم لنفسه أن يلتمس لها التأويل والترقيع.

وفي تصوري أن أفضل تصفية لتلك الطرق الصوفية وتراثها – بعد تقييمها بميزان الكِتَاب وَالسُنّة – ان نتخذ من أحاديث هؤلاء وأفعالهم – الواردة بطرق موثوقة – مقياساً لتقييمهم، مثلاً:

لنجعل من كتب: (فتوح الغيب) و (الفتح الرباني والفيض الرحماني) و (الغنية لطالبي طريقة الحق) مقياساً لطريقة عبدالقادر الگيلاني، ومن كتب: (مكتوبات الإِمام الربّاني)، ورسائل: (مولانا خالد الشهرزوري الكوردي) مقياساً وميزاناً نزن بها الطريقة النقشبندية، وحينذاك سنفهم جيداً كلام هؤلاء الأَئمة عن التزكية والتصوف، وكيف كانت طرقهم أصلاً، وماذا حَلَّ بها اليوم، وأخيراً ننظر الى مدى قرب وبعد المحبين والأتباع الى تلك الطرق .

سابعاً/ نزاع السلفيين والصوفيين، على أصل السلفية والتصوّف، نتاج الجهل وعدم النضج:

وقبل الولوج في بحث هذه المسألة أُلفْتُ انتباه قرائي الأعزاء إلى أنَّني إنَّما قلتُ: إنَّ النزاع على أصل السلفية والتصوف، هو عَبَثٌ ونتيجة للجهل، لأنَّني أريد قَطْعَ الحجة على مَنْ يُنكر ان يكون النزاع بسبب الجهل أو عدم النضج، ويتساءَل: هل اذا وقع صوفي في شرك، (كالإِستغاثة بشيخه)، أَوْ بِدعة، (كاستحداث شيء في الشرع)، ثم جاء سلفي واصطدام معه، فهل سبب ذلك هو الجهل وعدم النضج، أَوْ على العَكْس؟

وأُؤكِّد مَرةً أخرى أن الخلاف أَوْ الْمساجلات التي تقوم بها هاتان الفرقتان، إن كَانت على أصل (السلفية والصوفية) فَهُوَ خَطَأ نابِعٌ مما ذكرت، سَواء من أحد الطرفين أَو كليهما، أما جدال السلفيين مع

الصوفية، أَو أي فئة أخرى من الْمُسلمين الآخرين، بسبب الشرك والبدعة و...الخ، فهذا ليس حقاً مشروعاً وحَسْبُ، بَلْ هو واجب أَيضاً، والآن عوداً على إثبات ماعنونّا بها هذه الفقرة، ونتساءَل:

أليس النزاع بين الفريقين سببه الجهل؟ فإذا كانت السلفية عبارةً عن فهم الكِتَاب وَالسُنّة وفق مافهمه سلفنا الصالح، وإدارة الإسلام والعمل بمقتضى الشريعة في ضوء ماقام به وطَبّقه السلف الصالح، ثم إذا كان التصوف عبارة عن تطهير النفس وتصفيتها من الرذائل وإِصلاحها وتزيينها بالفضائل، وما من جدال ان الشرك بالله من أسوء الرذائل وأنجسها، وتوحيد الله سبحانه و تعالى هو أحسن الفضائل وأعظمها، نعم فإذا كانت هذه هي السلفية، وتلك هي الصوفية، إذاً: ليس فقط لايوجد تضاد بينهما، بل هما مرتبطتان ومكمِّلتان لبعضهما البعض، وتهذيب النفس كما أشرنا الى ذلك سابقاً- أحد خصال السلف الصالح وشعاراتهم.

إذاً: فالتزكية من جهةٍ شَطْرٌ من السلفية، ومن جهة أخرى، فلا يتحقق لنا اتِّباع سلفنا الصالح والإِقتداء بهم، بغير تزكية النفس، وبتعبير آخر: ان كنت تريد اتِّباع السلف الصالح، فعليك بتزكية نفسك، ومن أجل القيام بذلك، عليك ملازمة نهج السلف الصالح، وعدم الحياد عنه قيد أُنملة، لكي تصل الى مبتغاك.

ولكن لايفوتني أن أقول: ان استعمال كل من شعاري: (السلفية والصوفية)[1] كأساس للموالاة بين أهل الإسلام، هو

---

١) كلمة (السلفية) لها أيضا مفهوم عصري خاطيء، حيث اتخذها شعاراً وعنواناً أفرادٌ متفرقون أو جماعات ومؤسسات، ولأنهم ينقسمون الى أصناف عديدة، فلايمكن وضع تعريف محدد لهم، إذ ربّما بلغ عدد أنواع السلفية، عددَ الشيوخ الموجِّهين لمن حولهم من الأتباع والتلاميذ!

بــدعة[١] في مــستوى واحــد، لأن الله جـل في عــلاه هــو سَــمّانا – بــنصِّ القُرْآن – مؤمنيــن ومــســلمين قــال تعالــى: ﴿... فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ آل عمران، وقال: ﴿ ..هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا ..﴿٧٨﴾ ﴾ الحـج.

إذاً: فأُمّــة مُحمَّد صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يعـرفون في الحالات الإعتيادية بــ: الْمُؤمنين وَالْمُسْلِمين، أما فِي الحالات غيــر الإعتيادية، وفِــي مواجهــة أَهــل البدعة، ومــن منطلــق ان كــلاً مـن مـصطلح (الــسنة) و(الجماعــة) وردا في أَحَادِيث النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فالــسلف الــصالح اختــاروا مـصطلح: (أهل السنة والجماعــة) للــذين يقتفــون آثــار النَّبِــيّ صَــلّى اللهُ عَلَيْــهِ وَسَــلّمَ وخلفائِهِ الراشدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُــمْ، وفِــي الوقــت ذاتــه عرفــت الجماعــات والفـــرق الــضالة، كــالخوارج والْمُرجئــة والرافــضة والناصــبة والْمُعـــتزِلَة والْجبــرية والقدرية ... بـ (أهل الفرقــة والبدعــة)[٢].

---

١) المقصود بالبدعة –هنا– هي البدعة اللغوية والعرفيــة وليست الشرعية.

٢) روى عن ابن عباس في تفسير الاية (١٠٦) من سورة ال عمران ،﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ... ﴾، انه قال تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه اهــل البدعــه والفرقــة)، انظر: (تفسير القرطبــي)، ج: (٢)، ص: (١٢٩–١٣٠)، ولكــنِّي لاأُحبِّذ استعمال كلمة (أهل السنة والجماعة) الاّ اضطراراً، وذلك لعدم ورودها هكذا لا فــي الكتاب ولا في السنة، ولكــن وردت كلمة (سُــنَّتــي) و كلمة (الجماعة) منفردتين وفي سياقيــن مختلفيــن!

(١) لاشك أن اتخاذ الجماعات والحركات الإســلامية عناوين وشعارات خاصة بها تــميّــِزها عن غيــرها شيء آخر وله حكم آخر، إذ هذا عملٌ يُحتمَّهُ الواقع السياسي وتَــسْتَلزِمهُ ضــرورة العمل الإيسلامي ثم لايدّعي أحد من تلك الجماعات– كما يفعل السَّــلفيّون أو أكثــر –، بــأنَّ اتّباع الكتــاب والسُنَّة والتزام الحق محصورٌ فيهم، ولايتخذ وشعاراتهم الحزبية أساســاً للمــوالاة والــمعاداة ... الخ!

وعلى هذا يكون تحديد واختيار أي لقب أَو عنوان آخر للمُسْلِمين، نوعاً من الإنحراف البدعة، واذا اتخذ عنوانٌ مّا، فستكثر العناوين، وليس بالضرورة – اذا تلقب الْمُسْلِم بلقب ما– ان يكون حقيقته ومضمونه موافقاً لذلك، بل كثيراً ما يكون على العكس من ذلك، فمن أراد ان يكون مسلماً بحق، ومُتّبِعاً للسلف الصالح ومزكّي النّفس فَلْيَسع وليبذل جهده فِي الوصول الى تلك الغاية، باكتساب المحتوى والمضمون، وليس في تلقيب نفسه بألقابٍ جذّابة، ثُم إِشعال الخصومة والتعصُّب من أجلها، وكسب الْمؤيدين والتصدي للمعارضين واتهامهم لعدم تسميتهم بما تسمى به[1]!

ويَحْدوني الأَمَلُ ان لا يُسيء أَحَدٌ فهمي عندما أقول: التسمِّي بالسلفي أو الصوفي خطأ أَوْ بدعة – بالْمَفهُوم الذي أَوْ ضحته سابقاً –، ولا ينبغي لأحد أن يفهم قولي، على أنّني أَنْهَى عن اتِّباع النهج السلفي، أَوْ التزكية والتصوف، لأن التزام نهج السلف والتزكية شيء، والتَسمِّي بالسلفية والصوفية شيء آخر، تماماً كما أن الصلاة شَيء والذي يتسمَّى بالْمصلِّي شيء آخر!

أَنَا أَقول: السلفية بمعناها ومفهومها الصحيح – وليس بالمفهوم العُرفِي السائد الْمعاصر– والتي هي عبارة عن انتهاج طريق سلفنا الصالح في كافة مجالات الممارسات الدينية، مع مراعاة ظروف المجتمع والمحيط والتغيرات الحاصلة في هذا الصدد، وهي نقطة مشتركة بين جميع الـمُسْلِمين قاطبة، وليست ثياباً مُفصَّلا لأُناس محدَّدين، وهي لا تُكْتَسَبُ من جرّاء التلقِّب والتَسمِّي بها، فليس بالضرورة أن يصبح سَلَفياً من سمَّى نَفسهُ ولقّبهُ سَلَفياً! نعم فالسلفية منهجٌ وعلى الإِنسان ان يُجسِّدها في

نفسه، لا أن يتخذها شعاراً مفرَّغاً من محتواه، يزايد بها على الناس في سوق الكلمات[1]!

واستناداً لما أسلفنا ندعو الْمُسْلِمين سواء من تسمَّى مِنْهُمْ بالسلفي أَوْ الصوفي، ألاّ يفتعلوا جدالات في مالا يستحق الجدال، وألاّ تذهب بهم الظنون أن السلفية والصوفية – في أصل معناهما – أمران نقيضان لبعضهما البعض، أو لَمْ يكن كل من ابْنُ تَيْمِيَة وعبدالقادر الگيلاني جَسَّدا فِي نفسيهما كلا الجانبين خير تجسيد؟!

١) قلت في احدى خطب الجمعة وانا اتحدث عن الإيمان ومكوناته ونواقضه: ان الذي لايصلي كسلاً اختلف حوله العلماء هل ان ذلك يخرجه من الإسلام أم لا؟ ثم رجحت رأي القائلين بتكفيره، وذلك بعد ثبوت الشروط وانتفاء الموانع، وقد بلغني ان بعض المتسمِّين بالسلفية، ادعوا بان رأيي ذاك مخالف لرأي السلف الصالح ! واثار ذلك استغرابي لان الرأي الذي رجحته هو الرأي معظم السلف كما اوضحت ذلك في المجلد الاول من كتابي: (العبادة الإسلامية في ضوء القرآن والسنة)، ص: (٣٣٥-٣٦٨) الطبعة الأولى، لسنة: ٢٠٠٠م. ولكن يبدو ان هؤلاء – كونهم سموا انفسهم سلفيين – يعتبرون آراءهم موافقة لآراء السلف الصالح، وان لم يكونوا حقاً سائرين على نهجهم أو حتى لو كانوا مذهبيين، واما نحن طالما أنّنا لا نتلقب بأيةّ ألقاب، فمهما كان كلامنا موافقاً لآراء سلف الصالح، فلا يُجدينا ذلك نفعاً! ولاريب ان هذا النوع من التفكير موغل في الخطا ومتعارض مع منهج السلف الصحيح.

الفصل الســابـع

تجربتـي الخاصة في مجال التزكيـة
تهذيـب النفـس

قـاريء الحبيـب!

ما ستقرؤه فِي هذه الصفحات هي خلاصة، تجربتي العملية في مجال التزكية والسَّير إلى الله تعالى، خلال ربع قرن، وذلك في الفترة الواقعة مابين عامي ١٩٧٦-٢٠٠٠م أي منذ كنت في السنة الثانية في المعهد الإسلامي في السليمانية، حيث كان عمري ١٥-١٦ عاماً، ووصولاً الى يومنا هذا وقد بلغت سن الأربعين(*)، ويجدر بالذكر أنني لن أقوم هنا فِي هذه الصفحات القلائل، بتدوين الأحداث التي رأيتها في سفري ذي الخمسة والعشرين عاماً الى الله تعالى، فإن التصدِّي لذلك بحاجة الى تخصيص موضع لاتسعه هذه العجالة، اما الذي أُقيِّدهُ هنا، فلا يعدو ان يكون استنتاجاً للدروس

*) هذا كان قبل عشر سنوات، إذ بلغت الآن الخمسين من العمر.

والعبر وما اسْتَحْصَلتهُ في أثناء ذلك السفر من ناحية الحياة المعنوية و تزكية النفس، كما أُلفِتُ الإنتباه أنَّني لَم أَكتبْ ههنا الاّ ما اطمأنت نفسي اليهِ وما يليق ذكره، أما مالَمْ ينضج بعد، أَو ما يحسن السكوت عنه، فقد أعرضت عن ذكره صفحاً – أو أَدَّخِره الى فرصَةٍ سانِحة أخرى، ان كان في العمر بقية، على أَمَلِ ان يكون ما سأَسْرُده مما ينفع اخوتي وأخواتي ونعوذ بالله تعالى من شرور أَنْفُسِنا وَسَيّئات أَعْمَالِنَا:

١- للصاحب الخيِّر والبيئة الطاهرة، تأثيرٌ عظيم في تزكية النفس:

إنَّ سنة ١٩٧٦ والتي كَانَت السُنَّة الأولى من دراستي في الْمعهد الإسلامي في مدينة (السليمانية)، ومن منطلق ان بيئة[١] الْمعهد والظروف الأخلاقية والثقافية والْمعنوية في الْمدينة[٢] كانت تشكل على نفسي وروحي ضغطاً أليماً، وأنا كنت لا أزال حَدَثاً قليل التجربة والخبرة، ولذلك فقد وقعت فِي أزمة إِيْمانية وروحية صعبة ومؤلمة، ولكن مصاحبتي لبعض الأصدقاء المخلصين من جهة، وتعارفي مع بعض الصوفية ومشاركتي في حلق الذكر مَعَهُمْ، وهبتني طاقة واكتسبتني شداً لأَزْري، ومقاومة أمام العواصف الهوجاء التي كنت أتعرَّض لها آنئذٍ، وهذا هو السبب في أنَّ أهل التصوف يجعلون شعارهم، قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ التوبة.

---

١) المعهد الاسلامي – حينئذ – والذي كان يفترض ان يكون منبعاً لتهيئة الكوادر الإسلامية، كان قد زُجَّ اليه العديد من الكودار الشيوعية والماركسية وكانوا نشطاء مؤثرين على كثير من السذج، وأنا كنت في صِدامٍ عنيف معهم.

٢) نادراً ماكنت تَجِدُ طالباً أو أيَّ شاب يفهم شيئاً من الإسلام.

ولـهذا أيضاً نَجِدُ العارفين بالله المتصدِّين للتـربية وإرشاد الناس الى طريـق الله، لا يتوانون في إرشاد الناس الى ترك البيئات الفاسـدة، والهجـرة الى بيئـة طاهرة وأناس فضلاء، كما يتضح ذلك مـن الحـديث الـذي رواه الْبُخَـاري وَمُسْلِم عن أَبِي سَعِيد الْخُدرِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النَّبِـيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحدث عن الرجل الذي قَتَلَ تِسْعَةً وَتِـسْعِينَ نَفْـسًا، ثُـمَّ أراد ان يتـوب، ولمـا ذهب الى الراهب أخبره بأنه لاتوبة له، فأكمل الرجل بالراهب تمام المائة، ثم ذهب الى عالم فقال له – بعد أَنْ أخبره بإمكانيـة التوبـة –:: { انْطَلِـقْ إِلَـى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُـمْ وَلاَ تَرْجِـعْ إِلَـى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ...} ، مُتّفَقٌ عَلَيْـهِ: رَوَاهُ أَحْمَـد بـرقم: (١١١٧٠)، الْبُخَـارِيُّ برقم: (٣٢٨٣)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٧١٨٤).

٢- الحفـاظ على لحظات العمـر، واستعمال الأعضاء في الحسنات وصـدها عن السـيئات، من أقوى ضمانات تزكيـة النفس والسيـر الـى الله تعالـى:

نَعَـم فالذي لايقوى على ضبط هواجسه وخيالاته ونظراته وتأملات عينيه وتعابيـر لسانه ومسموعاته ولقماته وخطواته، وَالخُلاَصَة: ان الذي لا يُلْجِـمُ نَفْسَهُ ولايربطها برباط الشرع، لايمكنه الرقي الى مـستوى تزكيـة النـفس أبداً، وأقول هنـا- للدرس والعبـرة – في مدة خمس سـنوات مـن ١٩٧٥- ١٩٨٠م عنـدما كنـت في الـسليمانية أي مـن الـمرحلة الثـانية ولغايـة السـادسة فـي الثانويـة، وكنـت شـاباً ناشـطاً منـشـغلاً بالطاعـة والعبـادة وأرغب أن أَقضي سائر وقتـي في ذلك، وكنت أحفظ نفـسي مـن الـذنوب كثيـراً والحمد للهِ تعالـى، إني نجحتُ حتّى أَنَّنـي لا أَتذكّر أَنِّي نظرت نظـرة شهوة عمداً الـى امرأة في غضون تلك السنوات الخمـس! وفي تلـك الآونـة

كنت كثير الإنشغال بمطالعة كتاب: (إحياء علوم الدين) للإمام الغزالي رَحِمَهُ الله تعالى وكنت منهمكاً في ضبط نفسي وأعضائي، ألوم نفسي بشدة على أي تعبير لايليق أو تعامل غير سديد، وأضع عليها نظاماً قاسياً من الْمراقبة والـمُساءلة، ولربما بَدَرَمنِّي الغلو في ذلك أَيضاً، لأن كتاب: (إحياء علوم الدين) يحتوي الكثير من الْمبالغات والغلو في هذا المجال، وكان من عادتي أن أَحاول تطبيق ما أتعلّمه وقلّما كنت أُبقي من وقتي فراغاً، فلقد كنت في ذكر ومطالعة ودعاء وتفكير وزيارة الخواص من أصدقائي دون انقطاع، ولذلك لَمْ أستطع البقاء في القسم الداخلي أكثر من السنة الأولى، أما السنوات الأربع الأخرى، فلقد كنت أحصل على غرفة في أحد الـمَسَاجد، إمّا لِوَحْدي أو مع بعض رفاقي، حتى إنَّني كنت أمتنع عن شرب الشاي خوفاً على وقتي من أن يضيع، وكنت أَقْتَنِعُ بِما يَسُدُّ الرَّمَقَ من الزاد، ثم إنني بسبب عدم الإستعداد أنْ أَمُدَّ يدي، أو أَخْذِ الْمساعدة من أحَدٍ، وبسبب فقر عائلتي وضيق ذات يدهم، وبغية شراء الكتب والْملابس، كنت أُضطر الى أن أَشتغل عاملاً فِي أيام الخميس والجمعة ما استطعت الى ذلك سبيلاً، وهكذا كنت أَحصل على مصارف الكتب وحاجاتي الأُخرى، ولازلت محتفظاً ببعض الكتب التي اشتريتها في تلك الأيام!

وفي مرات عديدة كنت أتعرض الى النقد واللوم من بعض زملائي، ولكنَّني كنت لا أَميل –عادة – الى النقاش والجدال، بل كنت أُوثرُ الوحدة وقِلّة الإِختلاط، وكم كنت أَتَلَذَّذُ بتلك الطريقة من العيش!

٣- التفكيــر والتــأمل والإعتكـاف، شــروط أســاسية لإنجــاح مــشــروع تهـذيب النــفس:

لاتذهب بـي الظنون أنَّ أحداً يـمكنه القيـامُ بـأي شـيء في هـذا المجـال، دون أن يَخْتَلي بنفسه أحيـاناً ويتـأمل ويفكر عميقاً.

ولذلك فإن الباري جل شأنه، ذكر الذِّكْرَ وثَنّى بالتفكيـر، وتحـدَّث عـن السجود والركوع، ثم أعقب ذلك بذكر الإعتكاف: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ .... ﴿١٩١﴾ ﴾ آل عمران.

وقـــال تعالـــى: ﴿ ...وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ البقرة.

ورغم ما للإختلاط بالناس والمحيط من أهميـة، وكـون التعامـل معهـم بمـا يوافق الشرع فناً، يَحْتاج الى حـذر وخـبرة، وأدب وخُلُـقٍ عـالٍ، لا يُجيـده ولايستطيع أن ينجح فيه كلُّ شخص، بل أكثر الناس يقعون في هذا الـمجال في أخطاء متعدّدة، ولكنه تَبَيَّن لي- بـما لايقبل جـدالاً- ان الوحدة والخلوة والإعتكاف أمرٌ صَعْبٌ قلَّ مَنْ يـمكنه ارتقاء ذلك الـمرتقى.

والإنسان دون قوة الإيْمان والشعور بـمعية الله سبحانه وتعالى، لايـمكنه الإعتكاف والإختلاءُ بنفسه – لا أقـول لأيـام- بـل حتـى لـساعات أَيـضاً، والأدلة كثيـرة ومتظافرة على ضرورة وأهمية التفكيـرو الخلوة والإعتكاف، وقد اتفقت على ذلك كلمة العارفين بالله والـمتَخصـِّصين في مجـال التزكيـة والتـربية والسلوك، وَالنَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، قَلّما كان يَمُـرُّ عَلَيْـهِ عـام

لايعتكف فيه عشرة أيام على أقل تقدير، وكان عليه الصَّلاَةُ وَالسَّلاَم كَثيراً مايختار العشر الأواخر من رَمَضَان، وقتاً لاعتكافه صلوات ربي وسلامه عليه، كما روى الإمام البُخَارِي عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: {كَانَ يَعْتَكِفُ العَشْرَ الأوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ، حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ تَعَالَى}، مُتّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (٢٤٦٥٧)، البُخَارِيُّ برقم: (١٩٢٢)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٢٨٤١)، وهناك أمران مهمان وشرطان أساسيان للغاية، فيما يخص جدوى الإعتكاف وحسن نتائجه:

١- البراءة من كل قصد في الإعتكاف سوى مرضاة الله تعالى وعبادته والتقرُّب اليه ونيل ثوابهِ.

٢- مراعاة كافة الشروط والآداب الشرعية للإعتكاف، الظاهرية منها والباطنية على السواء،[١].

اذاً: فالذين يدخلون المعتكف في غير ابتغاء وجه الله تعالى والعبودية لهُ، مثلاً الذين يبتغون استحصال مايكون خارقاً للعادة، والذي يسمى عند الناس كرامة، أو أنه يقع في الأخطاِ والمخالفات الشرعية في معتكفه، كحال كثير من أتباع الطرق الصوفية في (الخلوة الأربعينية) وأنا نفسي وقعت في قدرٍ من تلك الأخطاء في الْماضي،[٢] نعم ان الذين يعتكفون على أساس الأخطاء والْمخالفات الشرعية وتلك الغايات المشبوهة، ليس فقط يُحْرَمون من أي أجرٍ أو ثوابٍ أو لذة روحية، فحسبُ، بل هم معرَّضون للأضرار

١) في المجلد الرابع من كتابنا: (العبادة الإسلامية) تناولنا موضوع الإعتكاف بالتفصيل .

٢) وقد قيل قديماً: (الغريق يَتَشَبَّثُ بكل حشيش) وانا في أعقاب الظمأ الروحي الذي كنت أشعربه، وافتقادي لِمَنْ يُرْوي ذلك العَطَش، بذلتُ جُهوداً كثيرةً، واذا لم تكن كل نوعٍ من تلك الجهود يُلبيِّ حاجتي، فإنها كانت لي دروساً وعِبَراً.

والأخطار أيضاً،[١] وعليهم ان يأخذوا حِذْرَهُم لكي لايُؤْتوا من ثغرة الْمخالفات الشرعيةٍ أو يُلْدَغوا من جهتها، وفي ختام هذا الحديث يودِّي ان أذكر ملاحظتين:

الأولى: لئن أَعْجَزَ الإنسانَ الدخولَ الى الخلوة والمعتكف، بعضُ الظروف والعراقيل، فَلَنْ يَعْجِز عَن القيام بالتفكير والتأمّل في سائر الظروف والأحوال.

الثانية: الإعتكاف – ويقال له خلوة أيضا[٢] لا تَصِحُّ إلاَّ في المسجد، كما أجمع على ذلك العلماء، وعلى هذا، فالذين يعتكفون في الكهوف والجبال والصحاري، عليهم أَن يُوقنوا أَنَّ اعتكافهم ليس شرعياً –، ومن ثم فلن يكسبوا أجره أيضاً، ولايكونون مستفيدين من فوائدها الشرعية[٣]، وهم أقرب في صنيعهم ذلك الى رهبان النصارى[٤].

---

١) أعرِف أُناساً اختلت عقولُهم نتيجة لتلك التصرفات والمخالفات، أو أصيبوا بالجنون المطبق، ويجدر بالذكر انه اثناء تلك المجاهدات الروحية فان الشياطين تسعى جاهدة لأحاق الأذى والضرر، واذا لم تكن آداب الإعتكاف مرعية أثناء الخلوة، فإن الملائكة لاتستطيع الدفاع عن العابد، بل تُشْحَذُ هِمَّةُ الشيطان لكي يستحوذ عليه ويُغْويه، وعلى نفسها جنت براقش!

٢) يقول ابن تيمة: (ماذا يفعل بي أعدائي؟ نفي سياحة وسجني خلوة وقتلي شهادة).

٣) لكن جميع الجهود التي تصرف من أجل خدمة الجانب الروحي، تؤدِّي الى تقويتها وتصفيتها وحدوث بعض الحالات غيرالإعتيادية، سواء كانت تلك الجهود المبذولة، بطرق شرعية أو غير شرعية.

٤) ان بعض اهل التصوف– بل غالبيتهم – يستدلون لخلوتهم وأربعينيتهم باعتزال النبي صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ في غار حراء! وهذا لايصح أن يتخذ دليلاً لكونه جرى قبل مبعثه صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، والنبي عليه الصلاة والسلام هو إمامنا وقدوتنا نحن المسلمين كـ(رسول الله ونبيِّه الخاتم) كما قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... (٢١) ﴾ الأحزاب، وليس بصفته (محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب)، ولذلك أخبرالله تعالى بأنه– قبل هداية الله

٤- كل طاعة أَوْ عِبَادَة لا يَتوفّرُ فيها شرطا: التجرّد لله، والموافقة للشرع، لاتؤدّي الى تزكية صاحبها:

نَعَم فبدون الإخلاص لله تعالى والإتّباع لشرعه عَزَّ وَجَلَّ -كَمَا أَوْضَحنا ذلِكَ فِي الْمباحث السابقة - فإن عمله يكون هباءً منثوراً، بَلْ فِي غياب هذين الشرطين، فإن الشخص العابد، بدل الأَجْر والثواب، يكون عرضةً لعقوبة الله تعالى، والسالك في هذه الحالة لايزدادُ من الله إلاّ بُعداً، ولا ينالُهُ الاّ التدنّي الى الحضيض، وقد قال الشاعر في هذا المعنى:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها
ان السفينة لا تجري على اليَبَس

ثم ان الحقيقة التي جعلناها شعار هذا الْمَبْحَث وعنوانه، وبالرغم من دلالة العديد من الآيات القُرآنية والأَحاديث النبوية، والتي يكفي منها نص واحد لإثباته، فإنَّ سائرعلماء الْمسلمين وأئمتهم عموماً والْمتخصِّصين في مجال التزكية وتهذيب النفس منهم خصوصاً، مُجْمِعون على ان الإنسان يعجز عن السير الى الله والإتصاف بالصلاح، دون التقيُّد والإلتزام المطلق بالقُرْآن وَالسُنَّة، والغريب حَقَاً ان يتوَهَّم أحدٌ أن يكون بإمكانه التقرُّب من الله عَزَّوَجَلَّ عن طريق غير الشريعة الغراء، والصراط الْمستقيم! أليس الله تعالى

جل وعلاه - إيّاه -كان غيرمهتدٍ: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ الضحى، ثم إن النبي بعد ذلك أصبح يعتكف في المسجد وترك الإعتكاف في الغار!

ورسوله صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بأعلم من العالَمين، بالطريق الـمُوصِل الى الحق جَلَّ ذكره ؟! يقول (ابن البنا السرقسطي) في كتابه (المباحث الأصلية)[١] عن إلتزام أهل التصوف بالقُرْآن وَالسُنَّة:

فاسلك طريق العزم تلق يُمْنَه

اذ الكتابُ قيّده والسنة

ويقول الشيخ جُنيد البغدادي: (علمنا هذا مُقَيَّدٌ بالكتاب والسُنَّة، فمن لَمْ يسمع الحديث ويجالس الفُقَهَاء ويأخذ أدبه عن الْمتأدبين، أَفْسَدَ من اتَّبَعَه)[٢].

ويقول سهل بن عبدالله التستري: (بُنِيَتْ أصولُنا على ستة أشياء: كتاب الله، وسنة رسوله صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وأكل الحلال، وكَفُّ الأَذى، واجتناب الآثام والتوبة، وأداء الحقوق)[٣] وَلاَ يَخْفَى ان الأصول: الثالث والرابع والخامس والسادس، كُلّها تَنْدرِج تحت أصلي الكتاب والسُنّة، ويقول أبو قاسم النصر اباذي[٤].

(أصل التصوف ملازمة الكتاب والسُنّة وترك الأهواء والبدع ...)

وأعني من إيراد هَذِهِ الأَقوَال، أَن أُنَبِّه الى أنَّ أحداً لا يمكنه بحال من الأَحوال ان يبلغ شَيْئاً دون السير على الطريق اللاحب للكتاب والسُنّة، وليعلم أَتبْاعُ الطرق الصوفية كيف كان حال أئمتهم وعلمائهم، وأنْ يَكُفّوا

١) انظر: المباحث الأصلية في هامش: (إيقاظ الهمم في شرح الحكم)، ج: (١)، ص: (٩٢).
٢) المصدر السابق، ج: (١)، ص: (٩٣).
٣) المصدروالصفحة نفسها.
٤) انظر: المصدر نفسه.

بتعاملهم وخُلُقهِم البِدْعي الجافي للشرع، من إِسناد التُّهَم الى هؤلاء الأعلام، بلسان الحال، وألاّ يُسيئوا الى أنفسهم والطرق التي يزعمون اتِّباعها! وفي ختام هَذَا الْمَبْحَث لنتأمل هذه القصيدة التي نَظَّمها أحد العارفين بالتصوف الحقيقي، وهو: (ابن البنَّا السرقسطي)، وفيها يُبْدي امتعاضه وغضبه من التصوف في زمانه، ثم يُعْرِضُ أصول التصوف قائلاً:

١- اذا علمت كيف كان الحال	والشيخ والتلميذ ثم حالوا
٢- فاعلم بأن أهل هذا العصر	قد شغلوا بمحدثات الأمر
٣- اذْ أَحدثوا بينهم اصطلاحا	لَمْ أر للدين بهِ صلاحا
٤- وصَنَّفوا بينهم أحكاما	أكثرها كانت لهم حراما
٥- وانتهجوا مناهج منكوسة	وارتكبوا طريقة معكوسة
٦- كانت اذن موارد شريفة	فاسْتَبْدِلَت مذاهب سخيفة
٧- قد أُسِّسَتْ على صحيح العقل	وأُسُّها الآن بمحض الْجهل
٨- يُدْعى الذي يمشي عليها سالك	وسالكوها اليوم حزب هالك
٩- بها عاش القوم بخير عيشة	فَصُيِّرَتْ بعدهم معيشة
١٠- كانت تُضاهي الكوكب المنيرا	والآن أضحت حائطاً قصيرا
١١- اذ صار لا يُعْلَمُ منها الا	أكلاً ورقصاً وغِنىً وسُؤْلاً
١٢- كانت على الإِنصاف والنصيحة	فهي على الإِسراف والفضيحة
١٣- تعرف بالْخُلُق والإِيثار	والآن بالْحقد والإِقتار
١٤- كانت أجلَّ غِبْطة وخِطّة	والآن فهي بدعة وخِلْطة

٥- وجود الْمرشد والْمُعَلِّم وانْ كَاَن مهماً ومُيَسِّراً للأمور، لكن رحمة الله وهدايته واسعة، والقُرْآن وَالسُنَّة يُحققان كلَّ الغايات لمن اتَّبعهما:

وهذه احدى الحقائق الكبرى والسامية التي تَجَلّتْ لي كالشَّمْس الساطعة، إبّان سفري الْمنفرد الْمليء بالْمنحدرات والْمرتفعات الوعرة الى الله تعالى، ولا يُنكر أَحد أهمية الـمُرشد الكامل، ودوره فِي إنارة الدرب للشخص السالك وتقريب الغاية اليه، ولكن بالرغم من هَذِهِ الحقائق يجب ان يُعْلَمَ كَمَا أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ جعل الحاجات الأساسية للإنسان، والتي لا يَسْتَغْنَي عَنْهَا أَحدٌ كَالْمَاء وَالْهَوَاء والضوء والطعام واللّباس، مُيَسَّرة سَهْلَةُ الْمنال، يحصل عليها كلُّ الناس، فكذلك يَسَّر طريق الْهداية التي الروح إليها أحوج من حاجة الجسد الى الْمَاءِ وَالْهَواء ونور الشمس، بحيث يسهل على كُل إنسان الحصول عَليها اذا أراد ذلك، وانما أُلِحُّ على عرض هذه الحقيقة، لأن كثيراً من أتباع الطرق الصوفية يظنون بأنَّ الْهداية والتزكية لا تتأتيان الاّ عن طريق شيخهم أَو طَريقَتِهم التي يَتَّبِعونها! فهم لا يكتفون بحصر الْهداية في التصوف عموماً، بل يحصرونها في طريقتهم الضيّقة، وقد ورد في صحيح الإمام الْبُخَاري ان رَجُلاً قَالَ في حضرَة النَّبِيّ صَلّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلّمَ: {اللّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا وَلاَ تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا! فالْتَفتَ النَّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقَالَ: لَقَدْ تَحَجَّرْت وَاسِعًا}، رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (٧٢٥٤)، وَالبُخَارِيُّ برقم: (٥٦٦٤)، وَأَبُو دَاوُدَ برقم: (٣٨٠)، وابْنُ خُزَيْمَةَ برقم: (٨٦٤)، وَغيرهُم، وَهَكَذَا أُولَئِكَ يريدون الحِجْر على لطف الله وكرمه وهدايته الواسعة الرحبة!

اذ طالـما أَنَّ الله جَل في علاه، وهو عالم السّر وما يخـفى، أعلن أنَّ القُرآن هدايـــة لكـــلِّ أحـــد: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ...﴿٩﴾ ﴾ الإسراء، وليست السنة الاّ بياناً لـه: ﴿ ... وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ...﴿٤٤﴾ ﴾ النحل، وهو الـذي وعـد أن يهدي من يتجرد ويخلص له العمل وأنْ يُعينه ويكون لـه ظهيـراً: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ العنكبوت.

أجَلْ، اذا كان الأمر على ما ذكرنا، فلا يحـقُّ لأحـدٍ أَنْ يـزعم ان الْهدايـة لاتتحقّق دون شيخ أو مرشد، لأن زعمه هذا لا يستند الى دليل شرعي، نعم هذه حقيقة ان الشيخ أو الْمرشد إنْ لَمْ يَكُن اسْماً بـلا محتـوى، بامكانـه أن يُذَلِّل كثيراً من المصاعب للإنسان، وأن يَحُلَّ له عُقَداً ومعـضلاتٍ، مـا كـان لِيَحُلّها من تلقاء نفسه، أَوْ كَانَ عَلَيْهِ ان يقضي قِسْطاً من عمره فِي معالجتها، ولكن أَيْضَاً لا يصح القَوْل ان الإنـسان بلاشـيخ ومرشـد، عـاجز مكتـوف اليدين، لايقوى على فعل شيء، بَلْ الصواب أن كـلَّ مَـنْ أَخْلَـص لله تعـالى وأَجْهَدَ نَفْسَهُ بما يوافق الشرع، فإنه سَيَجْني ثِمارَ جهده وكدِّه، أمّـا اذا كـان يرمق أعالي درجات التَديُّن والإحسان وَيرنُو الى بلوغ غايتـه ومبتغـاه، فـلا يتيسَّرُ له ذلك الاّ نادراً، مَـالَمْ يكـن مُـسْتَرْشداً بتوجيهـات مُرشـدٍ، ولكـن حذاري! لَيْسَ ذلك لأن الكتاب والسنة غير كافيين للهداية، وهل بعد همـا هداية !بل من منظور أنه لايستطيع الإِستفتادة الْمُثْلَى منهما لوحده.

وَأَجِدُ من الْمناسـب هنـا أن أَعْـرِض الى ذكـر حـديث كحقيقـة وثـمرة لتجاربي الْمريرة والكثيـرة:

منذ ان وعيت بفضل الله تعالى ومَنِّه بدأت أبْحَثُ عن شيخ ومرشد، ليروي عطشي ويُطمئْن نَفْسي، ولكنني – ليس فقط في كوردستان بأجزائها الأربعة، وانما لَمْ أَجِدْ ذلك الشيخ في أي مكان، وأنا لا أقول لم يكن ثَمَّ أَحَدٌ، بل أقول: أنا لَمْ يكتَبْ لي العثور عليه، لأن الأرض لا تخلو قط من هؤلاء ..

وبطبيعة الحال فقد استفدت من لقاءاتي ببعض الشيوخ(١) الْمتخصصين في هذا الجانب ولكن لَمْ يكن ذلك ليشفي غليلي.

ورغم تلك المحاولات التي كنت أبذلها والتعقبات التي كنت أقوم بها، إلاّ أنَّني كنت دائم الإنشغال معها بكتاب الله تعالى وَسُنّة نبيه مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، والْمطالعة والتبحُّر في كتب وتراث العلماء والأئمة، خصوصاً أهل التفسير والحديث والْمتخصصين في مجال التزكية، حتى تَجَذَّرت قناعتي وتَقَوَّتْ عاماً بعد عام، واطمأَنَّت نَفْسي الى ان الطريق يكمن في القِرَاءَة والفهم والتفاعل مَعَ كِتَابِ اللهِ تَعَالى، والعمل بمقتضى سُنّة النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بالحرف الواحد.

---

١) أحد هؤلاء الذين سُعِدتُ بلقائهم واستفدت منهم خُلُقياً وروحياً، هو الشيخ (ناظم العاصي) الذي كان على الطريقة (النبهانية) وذلك في عام (١٩٧٩)، حيث كنت في خدمته لثلاث ليال في قرية (السبعة) التابعة لقضاء (طوز) في محافظة تكريت، فكان مثال العبادة والأخلاق العالية والشجاعة والشهامة، واغتيل بايدي العفالقة البعثيين عن طريق التسميم، تغمده الله برحمته وأعلى درجاته وتقبله في الشهداء.

وجدير بالذكر ان بعض الشيوخ الذين كنت أرتادُ مجالسهم، كانوا يقعون من عيني بسبب ما كنت أُلاحِظُ على الشيوخ والدراويش من الطّمع وحب الدنيا، والجهل بالقرآن والسنة، والتقليد الأعمى، ومقارفة الشرك والبدعة، كالإِستغاثه بالشيخ والوقوف أَمامَهُ ووضع اليد على الصدر...الخ.

وهنا أَجِدُ من المناسب أن أنقل كلاماً بليغاً مُعَبَّراً لابن الجوزي، والذي أورِدَهُ (محمد بن مفلح المقدسي) في كتابه: (الآداب الشرعية والحقوق المرعية)، إذ يقول:

قد تقع لكثير من الناس يقظةٌ عند سماع الْمواعظ وأخبار الزُّهاد والصالحين، فيقومون على أقدام العزائم على الزهد وانتظار الموتِ بما يصلح لَهم، ففيهم من يقتدي بجاهل من الْمتزهدين، أَوْ يعمل على ما فِي كتاب بعض الزهاد، فيرى فيه التَّقلّلَ من الطعام بالتدريج وترك الشهوات وأشياء قد وضعها من قلة علمه بالشريعة والحكمة، فيديم الصومَ والسهر والتقلل، ويدوم على الْمآكل الردية، فتجف المعدةُ وتضيق، وتقوى السوداء، وتنصبُّ الأخلاط الى الكبد والطحالِ، وربما تصاعدت الى الدماغ، فيبس أَوْ فسد الطبع، وربما تغير ذهنه فاستوحش من الخلق وحشةً يعتقدها أُنساً بالحق، فأعرض عن مجالسة العُلَمَاء، ظناً منه أنه قد بلغ الْمَقْصُود، فهذه الأشياء تعكّر أَولاً الْمَطلوب من التعبد، فينقطع الإِنْسَان بضعف القوة عَنْهُ ويبقى معالِجاً للأمراض فيشتغل الفكر فيها عما هُوَ أَهم.

ولقد تخبّط في هَذَا الأَمر خلقٌ كثير من الصالْحين صحّت مقاصدهم وجهلوا الجادة، فمشوا فِي غيرها، وفِي هؤلاء الذين حملوا على أنفسهم من عاجَلَه الْمرض والْموت، وفيهم من رجع القهقري، ومنهم من تخبّط فلا من هؤلاء ولا من هؤلاء، فأما العلماء الفهماء، فإنهم على قانون الحكمة وسبيل العلم، فإياك أن تعرض عن الجادة السليمة، واحذر من الإِقتداء بجهّالِ المتصوفة والمتزهدين الذين تركوا الدنيا

على زعمهم، فالصادق منهم في تركها عاملٌ بواقعة لا بالعلم[١] والْمُبَهْرَج[٢] منهم خسر الدنيا والآخرة.

ومن جَهْلِ هؤلاء أنهم لو رأوا عالِماً يَرْفُقُ بنفسه عابوه، ولو رأوا عليه قميص كتّان، قال زاهدهم: هذا ما يعمل بعلمه؟ ولو رأوه راكباً فرساً قالوا: هذا جَبّار، فإياك أن تحملكَ وثبةُ عزمٍ على ان ترومَ ما لا تناله فتزلق، وإن نلته أثمَرَ تلفاً أَوْ ردّاً الى وراء، استَضِيءْ بمصباحِ العِلْم، فان قَلَّ علمُك فاقتدِ بعالِمٍ محكم، وراعِ بدنك مراعاة المطيّة، وليكن همك تقويم أخلاقك، والْمَقصود صدق النية لا تعذيب الأبدان، وأكثر الكلام في هذا الْمَعنى في مواضع، وأن الجادة طريق رَسُولُ اللهِ "صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ".

وَقَالَ أَيْضَاً: أما ترى زهّاد زماننا إلا من عصمهُ الله باتّباع السنة، يغشاهم أَبناءُ الدنيا والظلمةُ، فلا ينهونهم عما هم فيه إلا بطرف اللسان؟ أين هؤلاء من سفيان حيث كان لا يكلمُ من يكلم ظالماً؟ ولو قيل لزهاد زماننا: اخرجوا فاشتروا حاجةً من السوق، صعب عليهم حفظاً لرياستهم، كأنهم ما علموا أن رَسُول الله "صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ" كان يشتري حاجته ويحملها بنفسه، ولو قيل لزهادنا: كلوا معنا لقمة لخافوا من انكسار الجاه، لأن الناس يعتقدون فيهم دوام الصوم، وَأَيْنَ هُم من (معروف)، أصبح يوماً صائماً فسمع ساقياً يقول: رحم الله من شرب، فشرب، فَقِيلَ لَهُ: أَما كنت صائماً؟ فَقَالَ: بَلَى، ولكن رجوتُ دعوته!

---

١) أي بما هو واقع من نفسه ووجدانه الذي حدث له من مطالعة تلك الكتب، لا بالعلم المستفاد من الكتاب والسنة وحقائق الحكمة.

٢) أي الكاذب الزائف.

والله لا يبقى في القيامة إلا الإخلاص، وقبل القيامة لا يبقى إلا ذكر المخلصين، كم قول معروف من عالم لا يُعْرَفُ قبره، ومن زاهدٍ لايُدري أين هو؟ و(معروف)(١) معروف بالله عليكم اقبلوا نصحي يا إخواني عاملوا الله وتعالى في الباطن حتى لا يُدرى أنكم أهل معاملة –الى أن قال: إن النَّبِيّ "صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ" لَمْ يكن معه يأس الزهاد وحده، ولا الإنسباطُ في الدنيا وحده، بل حاله جامعةٌ لكل خُلُقٍ صالح، الى ان قال: الرياء يكونُ في التعبدات، فالعلم أصل كل خير، ومعدنه أخلاق الرسول وآدابه "صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ"(٢).

٦- العبادات بأنواعها والواجبات الشرعية بأصنافها، لها تأثيرها على تزكية النفس وتهذيبها، ولكن كُلٌّ يستفيد من جانب أو جوانب متعددة، وكُلٌّ مُيَسَّرُ لِمَا خُلِقَ لَهُ:

يَقُولُ عَزّ من قائل: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾ الإسراء، وَقَالَ النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: {اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ...}، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (٦٢١)، وَالْبُخَارِيُّ برقم: (٤٦٦٦)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٦٩٠٣) عَنْ عَلِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نَعَمْ ان الصّلاة والزّكاة والصّوم والحج والعمرة والأمر بالمعروف والنّهي عَنِ الْمُنْكَر والْجِهاد والدعوة ...الخ، واجبة على عموم المسلمين، لكن الله

---

١) أي معروف الكرخي أحد الزهاد، رحمه الله تعالى.

٢) (الآداب الشرعية والحقوق المرعية)، ج: (٢)، ص: (٣٧١، ٣٧٤).

عز وجل لَم يُقَسِّمْ القدرة والإستعداد بينهم بنسبة واحدة، كي يقوموا جميعاً بأَعباء المجتمع وواجباته، كُل حسب قدراته واستعداده، هكذا الحال بالنسبة للتزكية وتهذيب النفس، فهناك مَنْ يَحْبُوهُ الله تعالى بزكاءِ النفس بسبب الأدعية والأذكار وما شاكلها، وهناك من يُكْرِمهُ الله تعالى بذلك، بسبب الدعوة ونشر العلوم الشرعية، أو عن طريق الكسب الحلال والإنفاق واليد العليا، أَو بسبب الأَمر بالْمَعْرُوف النَّهي عَنِ الْمُنْكَر، أَوْ الدفاع عن حرمات الإسلام وَالْمُسْلِمين، أَوْ بسبب الصّلاة فِي جوف اللّيل والصيام .....الخ .

وفيما يخص العبد الفَقير، فإنَّني بفضل الله وكَرَمه الذي عَمَّني، فقد عِشْتُ في ظلال القُرْآن الوارفة والسُنَّة النبوية المشرَّفة تعلّماً وتعليماً، واستفدت كثيراً من الصلاة، أَخُصُّ بالذكر قراءة وتدبر سورة الفاتحة، وكذلك فقد استفدت أيَّما استفادة بحمد لله ومَنِّه وَكَرَمِهِ من الصّيام والذكر والإعتكاف والتوبة، أما ما لَحِقَني من الأَذى والمصاعب في مجال الدعوة والهجرة والجهاد وخصوصاً من أهل النفاق والحُسّاد من الْمُسْلِمين، وبخلاف ما رغب الأعداء وشاؤا، فقد أفادنني وأَظْهَرَ لي كَثيراً من أسرار الدين والدنيا، وَتَجلّت لي بسبب ذلك كثيرٌ من الحقائق.

وعليه ينبغي على الإنسان أن يتأَمَّل في نفسه ويتعرَّف عليها جيداً، ويستكشف مواطن القوة التي وهبها الله تعالى له فيعمد الى تقويتها وتنميتها، و(عَلِي بْن أبي طَالبٍ) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: (قِيمة الْمَرءِ مَا يحسنه)، وهناك بعض الناس ولاريب قد وهبهم الله تعالى مواهب كَثيرة، (ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤتيهِ مَنْ يَشَآء).

٧- لا يتزكى الإِنسان بشيء كما يتزكى في الشدة والْمصاعب التي يلقاها في ميدان العمل الإسلامي، خصوصاً فِي الْهِجرة والجهاد، فهما يُمَحِّصان الإِنسانَ ويُصَفِّيانِهِ من الأَدْران:

والإنسان كلّما حقّق فِي ذاته العبودية لربه جل وعلا، فلاشك بأَنَّه يكون حينئد أَقرب الى الله، وكلما زاد من ربّه عَزَّ وَجَلَّ اقتراباً، تَزَكَّتْ نفسه وتَهَذَّبْتُ أَكْثَر فأكثر، وان التجرد والإخلاص الذي يحصل في قلب الإِنْسَان، في معمعان الْجِهَاد والْمحنة ومكابدة الآلام والْمَكَارِه وَالْهِجْرَة والتشرد والْمواجهة، قَلّما تُسْنَخ الفرصة لتحصيله في حالَةٍ أخرى، إِذ مَنْ ذا الذي يكون أكثر عبودية وتجرداً، ممن يترجم أقوالَه بأفعاله، ويثبت عملياً أنه يحب الله ورسوله أكثر من نفسه وأهله وماله ووطنه وأقربائه والناس أجمعين؟!

وتأَمَّلْ رحمك الله! كَيْفَ قضى الله تعالى في هذه الْمَسأَلَة، فجعل عبادة الجهاد والتضحية، أفضل من أية عبادة أخرى، وَرَفع درجة المجاهد على غيره: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ التوبة.

ولو تأَمَلّت سيرة الأصحاب الكرام وَالْمخلصين للنَّبِـيّ صَـلّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ، في ضـوء الآيـات القُرْآنيـة لوجـدت أنهـم لَـمْ تتزكّـى نفوسُـهم وتطهرَّت نفوسهم في أي ميـدان، مثلما تَصَـفّتْ في ميادين القتال، فـي بَـدْرٍ وأُحُدٍ والأَحـزاب وحُنَـيْن وَتبـوك، فهـم لَـم يهتـدوا الى أمراضـهم ونقـاط ضـعفهم، إلاّ هنـاك!

حقـاً ان الْهِجْـرَة وَالْجِهَاد فِـي سَـبيل الله تعالـى، أَفْـضَلُ سـاحة لتـربية الإنسان وتـزكية نفسه، ولهذا سـمَّى النَّبِيُّ صَـلّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ الْجِهَـاد بِـأَنّه القمـة البـاذخة للإسـلام: {وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَـادُ فِـي سَـبِيلِ الله}، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَـهْ برقم: (٣٩٧٣) وَصَحَّحَهُ الألباني في (السلسلة الـصحيحة) برقم: (١١٢٢).

وَوَصَفه الله الحكيم أَيْضاً بأَنه مُمَحِّصٌ ومُصَفٍّ لنفـوس الْمُـسْلِمين: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ آل عمران.

أَجَــلْ، الْهِجْـرَة وَالْجِهَـاد سَـبَبٌ لظهـور الإِيْمـان، واختيـار الـشُّهَدَاء، والتطهُّر من الأَوضار للمجاهدين، وسبب في الوقـت ذاتـه لقمـع الكـافرين وإضعاف شوكتكم، لكن شرط ذلك كله، هو التجرّد لله تعالى والسّيـر بـما يوافق الشرع والتـربية في ظلال القُـرآن الوارفـة، لقيـادات المجاهـدين قبـل القاعدة العامة، والاّ فَلَـن تُجْـدي فَتـيلاً أَسْـماء بـلا فحـوى، وشـعارات لا يدعمها العمل والتطبيـق.

٨- ذكـر الْمَوت والقَبْـر والبَـرْزَخ والقِيـامَةَ، من عوامل تزكيـة النـفس:

هَذِهِ حقيقـة اتفقت حولها كلمة أهل العرفان، ومادام حب الدنيا والتشبُّـث بها والفرحة بـملذاتها، من علامات الكافرين والـمنحرفين وعُبّـاد الـدنيا، كَمَا يَقُـول تَعَالــى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨﴾﴾، يونس، إذاً ينبغـي أن يكـون الزهـد في الدنيا من الناحية الـمادية، والإهتمام باليوم الآخر والإستعداد له، والسعادة بما ينتظر المؤمنين عند رَبّهِم جَلَّ وعلا، من علامات الـمُؤمنين العابدين.

ولا يخفى – من جانب آخر – أن إيثار الحياة الـدنيا والركـون اليهـا، أَوْ الإعراض عَنْهَا مطلقاً وعدم الإهتمام بهـا، كلاهمـا توجّـهٌ خـاطي، وبينهمـا موقف وسَطٌ، وهو الذي تبنّاهُ الإسلام، وهو الزهد في الـدنيا والنظـر اليهـا، كوسيلة أَوْ كقاعة للإمتحان، وبُغْية ألاّينخدع الإنْسَان ولا ينبهر ببهرج هذه الحياة الدنيا، ولا يَعُضَّ على أصابع الندم والحسرة، فـإن الإسْـلام لَـمْ يَـزَلْ يَحُثُّ الْمُسْلِمين عَلَى ذكر هاذم اللذات، وألاّ يغفلوا ولـو للحظـة واحـدة، عن حقيقة أن هذه الحياة الدنيا تصير الى زوال، وأنَّهم لابدّ يومـاً أنْ ينتقلـوا الى مكانهم الحقيقي والدائمي، وقد وضع الْمُصْطَفَى عَلَيْهِ الـصَّلاَةُ وَالـسَّلاَم يده (الْمباركة) على كتف عَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَائِلاً لَـهُ: {كُـنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ}، رَوَاهُ الْبُخَـارِيُّ بـرقم: (٦٠٥٣). رَوَاهُ اَلتِّرْمِذِيُّ برقم: (٢٣٣٣)، وَابْنُ مَاجَهْ بـرقم: (٤١١٤)، وَابْـنُ حِبَّـانَ برقم: (٦٩٨)، وَالبَيْهَـقِيُّ في (شـعب الإيْمان).

وَيقُولُ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَيْضاً: {أَكْثِـرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اَللَّـذَّاتِ: يَعْنِـي: اَلْمَوْتِ}، رَوَاهُ اَلتِّـرْمِذِيُّ بـرقم: (٢٣٠٧)، وَالنَّـسَائِيُّ بـرقم: (١٨٢٤)، وَابْنُ مَاجَـهْ برقم: (٤٢٥٨)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٢٩٩٢)، عَنْ أَبِـي هُرَيْـرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْـهُ، قَالَ الشيخ الألباني: حَسَـنٌ صَحِيحٌ.

ولسبب وحكمةٍ ما، منع[١] النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ ـ ابتـداءً ـ زيـارَة الْمُسْلِمين للقبور، ثُمَّ أَذِنَ لَهُـمْ قَـائِلاً: {كُنْـتُ نَهَيْـتُكُمْ عَـنْ زِيَـارَةِ القُبُـورِ فَزُورُوهَا}، رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٥٢٢٩)، عَنْ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللهُ عَنْـهُ، وَفِي رِوَايَةٍ: {فَمَنْ أَرَادَ أنْ يَزُورَ القُبُورَ فَلْيَزُرْ، فإنَّهَا تُذَكِّرُنَا الآخِرَةَ}، بَلْ إن رَسُول الله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَم كَانَ كَثِيراً ما يخرج بنفسه الى الْمقابر، كمـا يتضح ذلك من الحديث الذي روته أُمُّنـا الكَرِيْمَـة عَائِـشَةَ رَضِـيَ اللهُ عَنْهَـا، قَالَتْ: {كَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَخْرُجُ مِـنْ آخِـرِ اللّيْـلِ إِلَـى الْبَقِيعِ فَيَقُولُ: «السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُـؤْمِنِينَ، وَأَتَـاكُمْ مَـا تُوعَـدُونَ غَـدًا مُؤَجَّلُونَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللّهُ بِكُمْ لاَحِقُونَ، اللّهُمَّ اغْفِرْ لأَهْلِ بَقِيعِ الغَرْقَـدِ»}، رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٢٢٩٩)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وَخصوصاً فيما يتعلـق بوفاة أنـاس قريبـين مـن الإنـسان، فهـذا لاَشَـكّ سَيَكُون أَدْعـى لأن يهتـزَّ للخَطْـب مـن الأَعمـاق، ويُعِـدَّ عِـدَّة الـسفر، ويأخـذ أُهبـة الإستعداد وينطـلق فـي رحلـة البَـرْزَخ والقيـامة، اذا جـاء أجَلـهُ الذي يَطْرقُهُ بغتـة[٢].

---

١) يرى كثيـر من العلماء ان الحكمة كانت في قرب عهـد النـاس بالـشرك وخـشية علـيهم مـن الوقوع في شيء منه ، للإسـتغاثة بهم وطلب الحوائج منهم.

٢) حَرِيّ بي أن اذكر في هذا الـمقام أني عائَيْتُ في مرات عديدة استشهاد وموت بعض أصدقائي وأحبتـي، وقد أثّر ذلك في نفسي أيّمـا تأثـير، وخاصـة بعـض هـؤلاء، ولا أرى حاجـة لـذكر

٩- الروح كالجسد يتقّوى بالرعاية والرياضة والتمارين، وَتضعُفُ بالإهمال وعدم الإكثرات بـه:

وهذه حقيقة أخرى لا تحتمل النقاش والْمماراة، للذين لَهُمْ تجربة وخبرة فِي هذا الجانب، وَهِيَ مَسَأَلَة أَوضح من الشَّمْس فِي كبد السَّمَاء، يشهد عَلَى ذِلكَ – إضافة الى الآيات القُرآنية ونصوص السُنَّة –إجماع أَهل العِرْفان والتزكية جَمِيعَاً، وَمِنْ هَذِهِ الحقيقة نستنتج حقائق أخرى مِنْهَا:

١/ الواجبات الشرعية والعبادات جَمِيعاً، لَهَا تأثيرها الخاص على الروح ونفس الإنْسَان(١):

نَعَمْ أَيُّهَا القَارِيء الْحَبِيب!

ان الصَّلاة، وَالزَّكَاة، وَالصَّوْم، والحج والعُمرَة، وْالْجِهَاد، وَالأَمْر بالْمعروف وَالنَّهِي عَنِ الْمُنْكَر، والدعوة، والتعليم، والإحْسَان مَعَ الوَالِدَين، وَصِلَة الأَرْحَام، ومساعدة ذوي الحاجة، وإطعام الفُقَرَاء وكسوتهم، واحترام الضيف، والكسب الحلال والسعي وراء الرزق، والقيام على حوائج الناس، والإصلاح بين الْمتخاصمين، وإسداءُ الْمعروف، والعفو، وسعة الصدر مع الأهل، والإهتمام بتربية الأطفال، والرد على مكائد أعداء الإسلام، ودَمادَثة

أسمائهم هنا، رحمهم الله وعفاعنهم وأجزل لهم الثواب ورفع درجاتهم في عليين، وأحد هؤلاء المقربين من أحبتي كانت زوجتي المخلصة وشريكة حياتي الوفية: (روخسار) رحمها الله تعالى وتغمد روحها بفيض كرمه ولطفه مع سائر أحبتي، وأحبهم وأعظمهم وأدناهم الى فؤادي هو حبيبي محمد صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، أسأل الله أن يجمعنا واياهم في جنّة الخلد ويُنْسينا هموَم الدنيا وغُمومَها.

١) انظر: (العبادة الإسلامية) المجلد الأول، حيث حققنا في مفهوم كلمة العبادة بالتفصيل.

الخُلُق، وحسن القول والعمل، في مجال التعامل مع الناس جميعاً، والصفح وَكَظْم الغَيْظ، ووقاية النفس من مواقعة الذنوب الظاهرة والباطنة، الكبيرة والصغيرة ....الخ، لكل هذا أَثَر بليغٌ وخاصٌ على تربية وتقوية الروح والتحوُّل الى عبد صالح لله تَعَالى، اذاً: فكلّما وسَّعَ الْمُسْلِمُ دائِرة العبودية لربه وعمَّقها، وتوغَّل في تلك الدائرة، أكثر فأكثر، ازدَاد إِيمانُهُ وتقواه بالمقابل، وسَيُؤثّر ذلك لا محالة فِي عروجه في مدارج الإحْسَان والتزكية.

نعم فالعابد الصادق هو من تكون له صولة في كلِّ الميادين، ويكون له سهم في كُلِّ حِصّةٍ، ويُثْبِتُ عبوديته في كل حين، ويَعبد ربَّه بكل ما يمكنُهُ من أنواع العبادات.

٢/ والروح كالْجَسَد أَيْضاً يمكن لَهَا أن تعتاد وتَتَربَّى تدريجياً، وليس بخطوة واحدة وفِي مرحلة واحدة:

التدرج سنة وقانون عام وشامل وضعه الله تعالى في كائناته، وتربية الروح وتنميتها ليست مستثناة من هذا القانون، وكما أنَّ الرياضي – مثلاً حامل الأَثقال– لايمكنه حمل وزن ثقيل مُعَيَّن من الحديد بادي الأمر، لكنه بعد التدريب والتمرين – ان كان فِي بدنه استعداد – سيقوى على ذلك، فكذلك الحال في الناحية المعنوية، اذْ ان الشخص الذي له سابقة في العبادة، يكون سَهْلاً عليه القيام بعبادة ربّه على الوجه الأكمل، أما الشخص الجديد الطاريء على المجال، فعسير عليه القيام بذلك، واذا ما شرع فيه من دون استعداد وتدرّج وتدرّب، فَسَيَفترُ ويتراجع![1]

١) أنا رأيت من هذا الصنف كثيراً يأتي بادي الأمر متحمساً، لكنه بعد مدة لا يكتفي بالفتور، بل يترك كلّ شيء هائماً على وجهه، والسبب هو عدم مراعاة سُنة التدرّج ومحاولة القفز!.

٣/ من خصوصيات الروح أنَّها تتقوّى في أعقاب تعويدها وتدريبها، وتطرأُ عليها ظواهر غير اعتيادية:

نعم فجسد الإِنْسان – بغض النظر عن كونه مُسْلِمَاً أَوْ كَافِرَاً، عَاصِيَاً أَوْ مُتَقيّاً – بطول التدريب والتمرين يصبح قوياً، ويدخل مرحلة غير اعتيادية، مثلاً الذين يلعبون (الجمناستيك) أَو (الكاراتيه) أَو (الكونفو)، بإمكانهم القيام بحركات بهلوانية مثيرة للإنتباه، لا يمكن للآخرين القيام بها، بل هي بالنسبة إِليهم من قبيل الأعمال الخارقة للعادة!

والروح بالصورة ذاتها ودون الإستثناء بين الصالح والطالح، مَنْ يقوم على رعايتها وخدمتها وتقويتها بتدريبات وتمرينات، فإن الإستعدادات الموجودة فيها تنتعش وتنشط، وهذه حقيقة جديرة أن يحيط الجميعُ بها علماً، حتى لاتذهب بهم الظنون: أنَّ كلَّ مَنْ رُؤِيَت فيه حالَةٌ أَو ظاهرة معنوية غير اعتيادية، كانت كرامةً وعلامةً على تديّنه وتقواه!

لأَننا اذا اتَّخَذْنا من ذلك قياساً، وجب علينا ان نعتبر الهندوس والسيخ أَيْضَاً أَصْحَاب كَرَامَات، لأَنَّهُمْ نتيجة لتقوية الجانب الروحي فيهم، يقومون بأشياء عجيبة مثل ابتلاع الحجر، وطعن أجسادهم بالحراب ....الخ، ولايصح ذلك يقيناً، لأن سِرَّ المسألة كما قلنا: هو أن الروح في ذاتها لها قابلية ظهور تلك الحالات فيها، وأحياناً تقوم الشياطين والجن بتقديم المعونة في ذلك أَيْضَاً، لِأُناسٍ إما أَنَّهم ليسوا مُسلمين، أَوْ مُسْلِمون لكن غارقون في وَحْل الإِنحراف، ويقومون بذلك لتضليل هؤلاء الأشخاص من جهة، ولتضليل الناس وخداعهم من جهة أُخرى،

وقد سألتُ بعض الجن في هذا المجال هؤلاء وأجابوني وفقاً لما أنا بصدد تعليله لكم(١).

ولا نقول بطبيعة الحال – ان كل من بدرت منه حالة من قبيل ما تحدثنا عنها من الحالات الروحية يكون من ذلك الصنف، لأن الْمُتَّقِين أَيْضَاً من شأنهم أَنْ تَظْهَر على أيديهم تلك الحالات، لكن علينا ان ندقق النظر الى ذلك الشخص وعلى أيّ محمل يمكن حمل ما يَبْدُرُ منه، لا أنْ نُسارِعَ الى ختم كل خارق للعادة بختم الكرامات، أو السحر دون تحقيق.

اذاً فعلينا – طبقاً لما ذكرت – عند رؤيتنا لخارق للعادة، أن نتأمل، جَيِّداً الحالة نفسها، والشخص الذي يظهر عليه تلك الحالة، ثم حَكَمْنا عليه، فإذا كان الشخص وما صدر منه ضمن دائرة الشرع، موافقاً للكتاب والسنة، فالشخص في هذه الحالة وليٌّ وحالته كرامة والعكس بالعكس صحيح، وفي ختام هذا البحث أَودُّ ان أُشير الى عدد من الحالات الخارقة للعادة، والتي ظهرت على أيدي أُناس تقيَّدوا بالقُرْآن والسُنَّة وعُدَّتْ لَهُمْ كَرَامَات، وسَأُشير في الْمقابل الى حالاتٍ أُخرى هِي أَيْضَاً خوارق للعادة، ولكنَّها صدرت من كَافرين أَوْ عصاة وعُدَّت لَهُم حالات شيطانية، ولكن قبل الولوج الى هذا الموضوع أَجِدُ من الضرورة بمكان أن أَعْرِضَ مقياساً يُعْرَف ويُميَّز به ما يندرج تحت أي حالة من الحالتين:

---

١) أشار (ابن تيمية) رحمه الله الى ذلك في مواضع من كتبه، أنظر: (مجموع الفتاوى)، ج: (١١)، ص: (١٥٧-١٦٢)، وكذلك عدد من العلماء غيره، ولكن (ابن تيمية) كدأبه، فَصَّل الموضوع تفصيلاً شافياً، وميَّز قَضَّهُ مِنْ قضيضه، وما ذكرته من كلامي مع الجن كان بعد دخولهم جسد بعض الأشخاص وتَلبُّسهم به، وليس مباشرة.

أولاً:- صاحب الكرامة في ذاته مؤمنٌ متق ملتزم بالشرع، والحالة التي تظهر عليه فيه خير الإِسلام وَالْمُسْلِمين، ولا تتعدّى حالته حدود الشرع، ولا يملك من أمر تلك الحالة ولا توقيتها شيئاً.

ثانياً:- اما صاحب الحالة الشيطانية، فهو في ذاته كافر أو عاصٍ، وحالته لاتمت الى نفع الإسلام والمسلمين بأية صلة، والحالة تظهر باختياره وتَوْقيته الذي يضعه لها.

أولاً- أمثلة على كرامات أولياء[١] الله تعالى:

١) عندما كان (أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَتلو سورة الكَهف، هبط عليه من السماء ما يشبه الغمامة وفيها ما يشبه الأنوار، وكانوا ملائكة جاؤوا لاستماع قراءته[٢].

٢) الملائكة كانت تُسَلِّم على (عمران بن حصين) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، حَتّى اكتوى بسبب مرضه، ثم لَمْ تعد تُسَلِّمُ عَلَيْهِ بَعْدَ ذلِكَ[٣].

٣) عندما رجع (أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ) و (وَعَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ) رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا من عِند النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الى منزليها، في لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ ، رافقهما نور بقدر رأس السوط، وعندما افترقا انقسم النور بينهما وظلَّ يرافقهما[٤].

---

١) لايخفى أن كرامات أولياء الله تعالى تكون من بركة اتّباعهم للنبي صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، كما قال بعض العلماء: (كرامات الأولياء فرع من معجزات الأنبياء).

٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

٣) رَوَاهُ الحاكم برقم: (٥٩٩٤).

٤) رَوَاهُ البُخَاري برقم: (٣٥٩٤)، وأحمد برقم: (١٣٨٩٧) تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مُسْلِم، عَنْ أَنَس.

٤) استضاف (أَبُو بَكر الصديق) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ثلاثة ضيوف في بيته، وكانوا اذا أكلوا لقمة حَلَّ مَحَلّها أكثر منها، حتى اذا فرغوا جميعاً، كان الطعام أكثر مما كان قبل أكلهم منه، فذهب به أَبُو بَكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى النَّبِي صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وأكل منه كثير من الأصحاب وشَبِعوا[1].

٥) بينما (سلمان الفارسي) و (أبو الدرداء) رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يتناولان الطعام كانت الآنية أو الطعام يُسَبِّحُ[2].

٦) عندما كان (خُبَيْبُ بْنُ عَدِيّ) أسيراً عند المشركين في مكة، كان يؤتى بالعِنَب، ولم يكن في مكة يومذاك عنب[3].

٧) قامت (أم أيمن) بالهجرة من مكة الى المدينة دون ماء ولاطعام وكانت صائمة، وكانت توشك ان تهلك من العطش، فسمعت عند أَذان المغرب صوتاً من جهة رأسها، فرفعت رأسها ورأت قربة ماء متدلية، فَشَرِبَتْ منه حتى ارتوت، فَلَمْ تشعرْ بالعطش حتى ماتت[4].

٨) كانت (سفينة) جارية أعتقها النَّبِيِّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وفي طريقها لقيت أسداً فقالت له: أنا مرسلة من عند النبي صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فرافقها الأَسَدُ حتى أَوْصَلَها الى المكان الذي أرادَتْ[5].

---

١) متفق عليه.

٢) رَوَاهُ أبو نعيم في الدلائل.

٣) رَوَاهُ البُخَارِي وأحمد عن ابي هريرة.

٤) أنظر: (طبقات ابن سعد)، ج: (٨)، ص: (٢٢٤)، و(الإِصابة في تمييز الصحابة)، ج: (٤)، ص: (٤٣٢).

٥) رَوَاهُ الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، ورواه أبو نعيم في الدلائل ورواه البزاز والطبراني بنحوه.

٩) كان (البـراء ابن مالك) اذا أقسم على الله أَبَرَّه، وعندما كـان يـشتد بهـم العطش في ميدان القتال كانوا يطلبون منـه أن يُقْـسِمَ علـى ربـه، فـسألوه ذلك في معركة القادسية، فقال: أَقْـسَمْتُ عليـك يـاربّي أن تَهْـزِمَهم وأن أكون أول الشهداء! فَهُزِموا واستشهد البـراء[١].

١٠) وحاصر (خالـد بـن الوليـد) رضـي الله عنـه قلـعة محكمـة، فقـالوا: لا نَسْـتَسْـلِمُ حتى تشرب هذا الســم! فشـربه وقـال: (بِـسْمِ اللّـهِ الّـذِي لاَ يَضُـرُّ مَعَ اسْمِهِ شَـيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِـي السَّـمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِـيمُ)، فَلَمْ يضــرَّه[٢].

١١) عندما كــانت (زنيــرة) تُعَــذَّب بأيــدي الْمـشـركين في مكـة عَمِــيَ بَصَــرُهَا، فَقَالَ لَهَا الكفار: قد أعمى الـلات والعــزى بَـصَـرِك! فقالـت: كلاّ والله فأعـاد الله بَصَــرَها[٣].

١٢) عندما بهتـت (أَرْوى بنت الحكم) (سعيد بن زيـد) دعا عليها: إن كانت كاذبـة أَنْ يُعْمِـيَ الله بَصَــرَها وَيُهْلِكَـها فـي بَلَدِهَا، فَعَمِيتْ وَوَقَعَـت فــي حُفْـرَةٍ ومــاتت[٤].

ما مر معـنا كانت نبذة من كرامات للرعيل الاول من الأصحاب الكـرام رضي الله عنهم وأرضاهم، ولم تنقطع الكرامـات في الأجيـال التــي جـاءت

---

١) رَوَاهُ الحاكم برقم: (٥٢٧٤)، تعليق الذهبـي فـي التلخيص: صحيح.

٢) رواه ابو نعيم في الدلائل، وقال الـهيثمي في مجمع الزوائد: رواه ابو يعلـى والطبــراني بنحـوه وأحدا إسنادي الطبـراني صحيح.

٣) انظر: (الاصــابة)، ج: (٤)، ص: (٣١٢).

٤) رَوَاهُ مُسْـلِمٌ برقم: (٤٢١٨).

بعدهم، ومازال أولياء الله تظهر على أيديهم الكرامة وخصوصاً على أيدي التابعين، مثلاً[1]:

١/ عَبَر أَبُو مُسْلِم الخولاني وجيشه نهر دجلة، عندما فاضَ ماءهُ، مشاةً على أرجلهم، دون أن يخسروا شيئاً من أمتعتهم.

٢/ وعندما قَبَض عليه (الأسود العَنْسي) وكان مدعياً للنبوة، فوضعه في النار، ولكنهم رأوه يصلي وسط النيران! وعندما قدم الى الْمدينة الْمنورة، أَجْلَسه عُمَرَ بْنُ الْخَطّاب بينه وبين أَبِي بَكر الصدّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وَقَالَ: (الحمد لله الذي لم يُمِتْني حتى أرى من أُمة محمد، مَنْ فُعِلَ به كما فُعِلَ بإبراهيم خليل الله).

٣/ كان (عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْس) يَأْخُذُ عَطَاءً سنوياً مقداره أَلْفَيْ دِرْهَمٍ، وكلما لقي محتاجاً في الطريق أعطاه منه دون حساب، وعندما كان يعود إِلَى بَيْتِهِ لَمْ يَكُن ينقص مالُه لا عَدَدَاً وَلاَ وَزْناً، وشاهد مرة أَسَداً يعترض طَريق قَافِلَة، فاقترب منه وَوَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى رَقبة الأسد قائلاً: (إِنَّمَا أَنْتَ كَلْبٌ مِنْ كِلابِ الرَّحْمَنِ وَإِنِّي أَسْتَحِي أَنْ أَخَافَ شَيْئًا غَيْرَهُ).

٤/ عِنْدَمَا اخْتَفَى (الْحَسَن البَصْرِي) مِن (الْحَجَّاج بْن يُوسُف الثَّقَفِي) دَخَلوا غُرْفَته سِت مَرات، وَلَكِنَه كَانَ قَد دعا ربّه ألاّ يروه، فلم يكونوا يرونه!

٥/ مات فرس (صلة بن الأشيم) في احدَى الغَزَوَات، فدعا الله تَعَالى أَنْ لا يُحْوِجَه وأَنْ يُحيي لَهُ فَرَسه، فأحياهُ الله لَهُ، وَعِنْدَمَا وَصَل إِلى بَيْتِهِ، أَمَر ابنه أَنْ يُزِيلَ عَنْهُ سَرْجَهِ ولِجامَه لأنّه عارية، ثُمَّ مَاتَ الفرس من فوره!

---

١) لكتابة هذه الكرامات، اسفتدت من (مجموع الفتاوى) لابن تيمية، ج: (١١)، ص: (١٥٢-١٥٦).

٦/ فـي أيام (الحَـرَّة)[1] الـمشؤومة لم يكن قد بقـي في مَسْجِدِ النَّبِيّ صَلّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ غيـر (سـعيد بـن الـمسيب) أحـد، وَلَـمْ يَكُـن يُـؤَذَّن فــي الْمَسْجد، فكان سعيد يسمع فـي أوقات الـصلاة الأَذان مـن قبــر النَّبِـيّ صَلّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ.

٧/ عندما توفي (أُويـس القَرَنِي) وجدوا بيـن ثيابه عدداً من الأَكفان التـي لَمْ تكن عنده قبل ذلك، وعنـدما أَرادوا دفنــه، وجـدوا قبــراً مهيــئاً وقـد حُفِـرَ لَحْـدُه من الحجـر!

٨/ عندما حفر القبـر للأحنف بن القيس، وقع أحدهم قَلَنْـسـوته في القبــر، فَنَـزَل لإِخراجها، فَرَأى القبـر قد توسّع مَـدَّ البصر.

٩/ أُصيب (عبد الواحد بن زيد) بالشلل، فدعا ربه أن تعمل أعضاؤه عنـدما يَتَوضَـأ، فاسـتجاب الله تعالـى لـه، وكـان فــي أوقـات الوضـوء يرجـع سالـماً مُعــافىً.

ثــانياً- أمثلة على الحالات الشـيطانية للكفار والعصـاة[2]:

١) الحالات التـي كانـت تـرى علـى (عبـد الله بـن صـيّاد) حتـى ان بعـض الصحابة ارتابوا أن يكون هو الـدجال! وارتـاب في أمـره النَّبِـيّ صَـلّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ نفـسه، ولكنـه يقـن فيهـا بعـد بأنـه كـاهن، كمـا روى ذلـك البُخَـارِي وَمُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِالله بْنَ عُمَــرَ.

---

١) حدثت هذه الحادثة الـمأساوية في عهد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وهي من أَفظع مـا حَـلَّ على أهل الـمدينة من الـمصائب.

٢) انظـر: (مجموع الفتــاوى)، ج: (١١)، ص: (١٥٧-١٥٩).

٢) الْحَـالات (الشَّـيْطَانِيَة للأَسْوَدُ العَنسي) الّذِي ادَّعَى النُّبُـوَّةَ، كَـانَ لَـهُ مِـنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يُخْبِـرُهُ بِبَعْضِ الأُمُورِ الْمُغَيَّـبَةِ.

٣) وَكَذلِكَ الْحَال مَعَ (مُسَـيْلِمَةَ الْكَذَّابِ) فَقَدْ كَانَت الشَّـيَاطِين توصـل اليـه بعض الأخبار والأسرار، وتُنَفِّذ له بَعْضَ الـمهام.

٤) (الْحَارِثِ الدِّمَشْـقِيِّ) الَّذِي خَرَجَ بِالشَّامِ زَمَنَ (عَبْدِ الْمَلِـكِ بْـنِ مَـرْوَانَ)، وَادَّعَى النُّبُـــوَّةَ وَكَانَـتِ الـشَّـيَاطِينُ يُخْرِجُـونَ رِجْلَيْـهِ مِـنَ الْقَيْـــدِ وَتَمْنَـعُ السِّلاحَ أَنْ يَنْفُـذَ فِيهِ، وَتُسَبِّحُ الرَّخَـامَةُ إِذَا مَسَحَهَا بِيَدِهِ، وَكَانَ يَرَى النَّاسَ رِجَالاً وَرُكْبَـانًا عَلَى خَيْـلٍ فِي الْهَوَاءِ، وَيَقُولُ: هِيَ الْمَلائِكَـةُ وَإِنَّمَـا كَـانُوا جِـنًّا، وَلَمَّا أَمْسَكَهُ الْمُسْلِمُونَ لِيَقْتُـلُوهُ طَعَـنَهُ الطَّـاعِنُ بِـالرُّمْحِ فَلَـمْ يَنْفُـــذْ فِيهِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ: إنَّك لَمْ تُسَمِّ اللّهَ فَسَمَّى اللَّهَ فَطَعَـنَهُ فَقَتَـلَهُ.

٥) وَمِن هَؤلاء من تـأتي لَهُمْ الشَّـيَاطِين بالطعـام والفَوَاكِـه والحلـوى وأَشْـيَاء أخرى، وَهِيَ غَيـر مَوْجُودَة فِي الْموضع الذي يتواجدون فيهِ، وَمِـنْهُمْ مـن تحمله الجن الـى مدينة أو مكـة أو القدس أو أي مكان آخـر، ومـنهم مـن تـذهـب بـه الجـن الـى عرفات ويعيدونه الـــى مكـــانه في اللّيلـة نفـسها، وهم "بطبيعـــة الحـال" لايـــجنون مـن كـل ذلـك الاّ التعـب واسـتهزاء الشياطين بهـــم.

٦) وَمِنْ هَؤُلاَءِ مَنْ يَتَصَـوَّرُ لَهُ الشَّيْطَانُ فِـي هَيْئَـة حَـسَنَة، أَوْ هَيْئَـة إِنْـسَـان صَالْح وَيَقُـولُ لَهُ: أَنَا الْخَضِـرُ، وَرُبَّمَا أَخْبَـرَهُ بِبَعْضِ الأُمُـورِ وَأَعَانَـهُ عَلَـى بَعْضِ مَطَالِبِـــهِ.

٧) وَمِنْهُمْ مَنْ يَـرَى عَرْشًـا عَظِيْمَـاً فِـي الْهَـوَاءِ وَفَوْقَـهُ نُـــورٌ وَيَـسْـمَعُ مَـنْ يُخَـاطِبُهُ وَيَقُـولُ: أَنَـــا رَبُّـك، كمـا حـدث ذلـك مـع الـشَّيْخِ عَبْـدِالْقَادِرِ

الگيلانِـي، فإن كَانَ عَالِماً وَمُتّـقياً كَعْبـدِالقَادِر، فإنه يستعيذ بـالله وينهـره فيختفى، وان كان ساذجاً وجاهلاً، وقع فـي الفـخ وانخدع به وأصبح مـن الخاسرين،[1] هذه الحالات الشيطانية تظهر لأشـخاص كـافرين ومفـسدين نتيجة لـمعاصيهم التي يرتكبونها، ولكنها لا تؤثر على الْمُسْلم الراسـخ في إسلامه، ما دام يتدبر قراءة القُرآن وخصوصاً آية الكُرسي، اذاً: فغايـة مـا نريد قوله: أنَّ الروح ذات استعداد في ذاتها لظهور خـوارق العـادة منهـا، عن طريق التدريب والتمرين، كما يحدث ذلك مع الهندوس والبوذيين وهم يلعبون (اليـوگا) ويتمكن الإنْسَان من خلال روحه ذات القـوى الْمعنويـة العجيبة، أن يتقرب إلى الله تعالى وَيَقْتَرِبّ مـن المَلائكـة، بـسبب الطاعـات فتظهر بسببها الكرامات، أو يتقرب بسبب الكفر والشرك مـن الـشياطين، فتظهر بسببها عجائب وغرائب تُلْفِتُ الإنتباه، وإن تمييز هذه الحالات التي ذكرناها آنفاً، يحتاج الى خبرة وعلـم عميـق، لأنَّهـا في ظاهرهـا لا تختلـف كثيـراً، ولكنها مختلفة جداً في أصلها ومنشأها وجوهرها ونتـائجها.

١٠- ما هو مقياس تزكيـــة النفس؟!

قَــارِئـي الحبيـــب!

في هذا الْمَبْحَث الأخيـر من حديثي عن تجربتـي الخاصة في المجال التزكية، سأعرض لك في سبع نقاط مقتضبة ميزانـاً ومحكـاً، ليكـون رهـن تـصرفك، كـالْمرآة تعكـس لـك حالتـك الإيْمانيـة والْمَعْنويـة، وبالتـالي يتـبين لـك الـمستوى الذي بلغـته في تزكية نفسك:

---

١) انظر: الـمصدر السابق، ج١١، ص١٥٨.

١- إِيْمــانٌ شُــهودي:

أي الإيْمان الـذي تـشاهد بـه بعيــن العَقْـل والقَلْـب، حقـائقَ التوحيـد والنبـوة والْمعاد، أو كَمَا عبَّـر عَنْهُ النَّبِـيُّ الأَعْظَـم مُحَمَّـد صَـلّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَلّمَ بالبلاغـة النبويـة: {أَنْ تَعْبُـدَ اللهَ كأَنَّـكَ تَـرَاهُ}، رَوَاهُ مُـسْلِم بـرقم: (١٠٢)، إيْمَـان كالذي عَبَّـر عَنْهُ أحدُ أئمتـنا بقولـه: (لـو كُشِـفَ الغطـاءُ ما ازددتُ يقيـناً)[١].

٢- التــلذُّذ بالعبــادة:

وهذه علامة أخرى من علامات تزكـية النفس، وهي عبـارة عـن التلـذذ بالعبادة والشـعور بالسكينة والراحة بـسـببها، كَمَـا كَـانَ النَّبِـيّ صَـلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ يَقُـولُ عِنْـدَمَا تحـين الـصَّلاة: {أَرِحْنَـا بِهَـا يَـا بِـلاَلُ}، رَوَاهُ الطبـراني فـي (الكَبيـر) برقم: (٦٢١٥).

٣- الفرح بالتقوى والإحسان والحزن للذنب والـمعصية:

وَهَذَا مقياس من مقاييس وجود التقوى والتزكية مـن عـدمها، كَمَـا قَـالَ رَسُول الله صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: {اسْتَفْتِ قَلْبَكَ، البِـرُّ: مَـا اطْمَأَنَّـت إِلَيْـهِ النَّفسُ، وَاطْمأنَّ إِلَيْـهِ القَلْبُ، وَالإِثْمُ : مَا حَـاكَ فــي الـنَّفْسِ، وَتَـرَدَّدَ فِـي الصَّــدْرِ، وَإِنْ أَفْتَـاكَ النَّـاسُ وَأَفْتُوكَ}[٢].

---

١) الـمقصود بكشف الغطاء: هو ظهور حقـائق الإيــمان والإسـلام في الواقـع الــمرئي للعيــن الباصرة، وذلك القائل هو (علي بن أبي طالب) رضي الله عنـه.

٢) رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (١٨٠٣٥)، والدَّارمي برقم: (٢٥٣٣)، وقـال النـووي: حـسن، وَحَـسَّنَهُ الألباني.

٤- الإِستعداد للتضحية بالروح والتصّدق بالمال وتفريقه بين المحتاجين في سَبِيلِ الله:

وهذه علامة ودليل ومقياس آخر من مقاييس التزكية، ذلك أن الإِنسان لا يكون كامل الإِيْمَان، بل إنَّ البعض يرى أنه لايثبت الإِيْمان للإِنسان حتى يكون الله وَرَسُولَه صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أحبَّ اليه من نفسه ومن الناس أجمعين: {ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَان: مَنْ كَانَ اللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لا يُحِبُّهُ إِلا لِلّهِ...}[١].

والذي يكون الله وَرَسوله صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، أَحبَّ اليه من نفسه، يَسيرٌ عليه أن يَبْذُلَ روحَهُ، وأنْ يُنْفِقَ ويُفرِّق ما يملك في سبيل الله تعالى، والإنسان دَوْماً يكون مُضَحِّياً بكل شيء من أجل ما يضمر له حباً عظيماً، والمولى جل شأنه يقول: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ التوبة.

٥- إِلجام النفس بلجام الشرع وضبط الغرائز النفسية:

وهذا أيضاً يعد من العلامات الدالة على تزكية النفس، قد أوضحنا هذا في المباحث السابقة، فالذي لم يتحرر من قيود نفسه، وأغلال شهواته

١) متفق عليه: البُخاري برقم: (٦٥٤٢)، ومُسْلِمٌ برقم: (١٧٤)، عن أنسٍ رضي الله عنه.

وغرائزة، هذا أبعد ما يكون عن بلوغ التزكية والدنو الى مقامات الإحسان الباذخة، وهل يؤذن للخادم أن يجلس في مجالس الأشراف والوجهاء؟!

نعم، ان النجاة والتخلّص من عبودية النفس والجسد و شهواتها، أمارَةٌ ودليل على تزكية النفس، والعكس بعكسه صحيح.

ورحم الله القائل:

وَمَنْ أَباح النفس ما تهواه   فإِنما إِلهه هَواه

٦- الثبات في الشدة والرخاء:

يصف الله تعالى عباده الصالحين وأولياءه المقرَّبين بقوله:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ يونس، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١﴾ المعارج.

والحقيقة أن أي اضطراب للإنسان حيال المصائب والنِّعم، والأتراح والأفراح، فإنما ذلك من أمرين اثنين:

١) فقدان مصلحة مادية او معنوية.
٢) أَو كسب لمصلحة ومنفعة مادية أَو مَعنوية.

ومن منطلق ان عباد الله الْمخلصين والكاملين لا يرنون الى غير رضا الله تعالى، وقلوبهم معلقة دوماً بجناب الله جل في عليائه، ويحتقرون الدنيا بما فيها من متاع زائل، لذلك تراهم ثابيتن لا يلين لهم قناة،

أمام الشدة والرخاء والفقر والغنى، والله تعالى يقول: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ الحديد.

٧- فَضَائِل الأخْلاق:

وهذا ميزان دقيق فِي غاية الأهمية يوزن بها مقدارالتزكية التي حصل عليها الإنسان، فلئن كان الإسلام شجرةً، فالعقيدة والإيْمَان جذورها، والعبادة والتقوى أوراقها وفروعها، ومكارم الأخلاق ثِمارُها، مثال ذلك:

١) كَظْم الغَيْظ ورد الغضب: ﴿ ...وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ... ﴿١٣٤﴾ ﴾ آل عمران.

٢) العفو والصفح: ﴿ ...وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ آل عمران.

٣) التصدق والإحسان: ﴿ ...وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ آل عمران.

٤) الإيثار: ﴿ ... وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الحشر.

٥) رد السيئة بالحسنة: ﴿ ...وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾ الرعد.

٦) التواضع وعدم التكبر: {وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلهِ إلاّ رَفَعَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ}، رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (٨٩٩٦)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٦٧٥٧)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (٢٠٢٩) وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٣٢٤٨)، وَالدَّارِمِيُّ برقم: (١٦٧٦) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُ.

٧) التضامن مَعَ أَفرَاح الْمُسْلِمين وَأَحْزانهم: {لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ}، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (١٣٩٩٥)، وَالبُخَارِيُّ برقم: (١٣)، وَمُسْلِم برقم: (١٧٩)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (٢٥١٥) وَقَالَ: صَحِيح، وَابْنُ مَاجَهْ برقم: (٦٦)، وَالدَّارَمِيُّ برقم: (٢٧٤٠) وغيرهُمْ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُ.

نَعَمْ وَكَمَا قُلْنَا مراراً:

القلب الذي يستقرّ فيه الايمان يصبح منبعاً ثَرّاً وعيناً لايَنْضبُ بالأخلاق الجميلة والخِصال الحميدة، فالإيْمان فضيلة عظيمة تستجلب معها كلَّ الفضائل ما دونها، لكن، لاريب أَنَّ إيماناً من هذا القبيل لاتحتويه كل القلوب !! وَلِذلِكَ، كَمَا أنَّ التزكية تكون من ثمار الإيمان، فالتزكية في الوقت ذاته تكون سبباً لكمال الإيْمان وبلوغه القمة السامقة، وبالتالي فبين الإيمان والتزكية علاقة متبادلة في التأثير والتأثّر!

وأختم هذا البحث بهذا البيت من الشِّعر الفارسي:

گوهر پاك ببايَدْ كه شَوَدْ قابِ فيض

ورنه هرسفگ و گل لؤلؤ و مرجان نَشَودْ

والْمعنــى:

ينبغي أن يكون هنــاك معدن طــاهر قابل لتــلقِّي كــرم الله تعالـــى، فعنـد ذلك تحـصل التزكيـــة، والاّ لايـــمكن أن يتحـوَّل الحجـر والطِّيـــن لؤلـؤاً ومرجـــاناً.

وههـنا أُنهـي الحـديث عـن تجربتـــي واســتنتاجـــاتي فـــي مجال تزكيـــة النفس، وسفر سيـري الـــى الله تعالـــى، آمـــلاً أن يـــستفيد منهـا قرائـــي الأَحِبَّـة الكرام، ويأخذوا منها مختلف العِبَـر والـدروس، وأن يـدعوا للعبـد الفقيـر الـمخطيء بالـمغـفرة والرحـمة.

كلمتي الأخيرة

١- لفظة التزكية في الإستعمال القُرآني وَالسُنَّة النبوية، لها معنى ومفهوم أوسع من المعنى الإصطلاحي السائر الذي تُستخدم فيها هذه اللفظة، فهي في المفهوم القرآني تعني تطهُّر الإنسان من كل رذيلة وبراءته منها، وكذلك تشمل تحلِّي الإنْسان بكل الفضائل دون أيِّ تحديد بجانب معين، نعم إنَّ آيات: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ الأعلى، و: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾﴾ الشمس، و: ﴿...وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ...﴿١٨﴾﴾ فاطر، تشمل قَبْلَ كُل الشيء البراءة مِنَ الكُفْر وَالشِّرك والتحلِّي بالإيْمان والتوحيد، ولذلك جعل الله تعالى الفلاح المطلق ثمرتها، ولاريب أَنَّ الفَلاح المطلق هو الذي يليق ان يكون نتيجة للتزكيِّ والطهر المطلق، والذي هو المعنى الصحيح الذي تحتوي عليه لفظة التزكية، وليس الجانب المعنوي والأخلاقي المحدود بالإصطلاح السائر.

٢- ان قضية التزكية بكلا المفهومين القرآني والإصطلاحي، لها بداية وليستْ لها نهاية، اذاً: فلا تظنن أيها الْمُسْلِم الحصيف! أننا بعد هذه الطبعة الرابعة المنقّحة والمزيدة لهذا الكتاب، لم يعد في جعبتنا عن التزكية شيء، كلاّ ما نفد ما عندنا ولن ينفد، ولكن إعلم أن هذا الكتاب هو ملخص لقرآءاتي وتحقيقاتي وآخر الملاحظات والنتائج التي استخلصتها من تجربتي الخاصة.

٣- لَقَد أَجْمع كافة العُلَمَاء وذووا الإختصاص في مجال التزكية والتصوف، أنَّ العلم والخبرة في هذا العلم يجوز أن تُؤْخذ من الكتب ومجالس العلم، ولكن محال ان يتحلّى الإنسان بحقيقتها دون تجسيد حقائقها والعمل بمقتضاها، ولذلك فلسان أهل هذه الصنعة يلهج بعبارة: (مَنْ ذاق عَرَف) واذاً: فلا تذهبن بك الظنون، أنك بقراءة هَذَا الكِتَاب الذي صنف فِي التزكية، ستكون من أهلها، كَلاّ كَلاّ، بَلْ يَنْبَغِي عَلَيْكَ ان تُحَوِّل عِلْمكَ الى إرادةٍ، وَفَهْمِك الى تجسيد، وَحِينئِذ لَكَ يتسنَّى لك أن تبلغ غايتك بإِذنِ اللهِ تَعَالى.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

٢ شعبان (١٤٢١)
٢٠٠٠/١٠/٣٠
هوراман أحمد أوا
علي باپير

آخر مراجعة للترجمة العربية
٩ ذي الحجة ١٤٣٢ هـ
٧ تشرين الثاني ٢٠١١ م
أربيل/ كوردستان العراق

المحتويات

مصادر تخريج الأحاديث

١) الـموطأ، تأليف: مالك بن أنس، الناشر: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان الطبعة: الأولى (١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م)، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي.

٢) (الْمُسند) للإمام أحمد بن حنبل، تأليف: أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، الناشر: مؤسسة قرطبة، القاهرة، الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها.

٣) صحيح البخاري (الجامع الصحيح المختصر)، تأليف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٧ -١٩٨٧) تحقيق: د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة، جامعة دمشق.

٤) صحيح مسلم (الجامع الصحيح)، تأليف: أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار الجيل بيروت + دار الأفاق الجديدة، بيروت، ثمانية أجزاء في أربع مجلدات.

٥) صَحِيح ابْنُ حِبَّان، للإمام أبي حَاتِم محمد بن حِبَّان الخُراساني، تحقيق: حقوق أصولُهُ وخَرَّجَ أَحاديثه: الدكتور الشيخ خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، الطبعة الأولى (١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤ م).

٦) صحيح ابن خزيمة، تأليف: محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، (١٣٩٠-١٩٧٠)، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي.

٧) سُنَن أبي داود، للإمام أبي داود سُليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الطبعة الثانية (١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧ م).

٨) سُنَن التِّرمِذِي، للإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة التِّرمِذِي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الطبعة الثانية (١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧ م).

٩) سُنَن النَّسَائي، للإِمام أبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي الشهير بـ (النَّسَائي)، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الطبعة الثانية (١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م).

١٠) سُنَن ابْنُ مَاجَهْ، للإِمام أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني الشهير بـ (ابْنُ مَاجَهْ)، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الطبعة الثانية (١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م).

١١) الْمُستَدرَك على الصحيحين، للإِمام الحافظ أبي عبدالله الحاكم النَّيسابوري، تحقيق: صالح اللحَّام، دار ابن حزم، الطبعة الأولى (١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧ م).

١٢) المعجم الكبير، للحافظ أبي القاسم سُليمان بن أحمد الطَّبَراني، حَقَّقَهُ وَخَرَّجَ أَحاديثهُ حمدي عبدالمجيد السلفي، مكتبة الأصالة والتُّراث، الطبعة الأولى (١٤٣١هـ – ٢٠١٠م).

١٣) سُنَن الدَّارمي للإِمام أبو محمد بن عبدالرحمن بن الفضل بن بهرام الدَّارمي، حَقَّقَهُ وَشَرَحَ أَلفَاظُهُ وَجُمَلَهُ وَعَلَّقَ عَلَيهِ وَوَضَعَ فَهارسَهُ: الأستاذ الدكتور مصطفي ديب البغا، دار المصطفى، الطبعة الأولى (١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧ م).

١٤) مشكاة المصابيح، تأليف: محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية (١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م).

١٥) السنن الكبرى، تأليف: الإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: دكتور عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن الجزء الأول دار الكتب العلمية بيروت – لبنان الطبعة الاولى (١٤١١ هـ – ١٩٩١م).

١٦) شعب الإيمان تأليف: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٠ تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول.

١٧) المعجم الصغير (الروض الداني)، تأليف: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطَّبَراني، المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت، عمان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م) تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير.

١٨) الأدب المفرد، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي دار البشائر الإسلامية – بيروت الطبعة الثالثة، (١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م)، تحقيق: محمد فؤاد، الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.

١٩) صحيح الترغيب والترهيب، تأليف: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة: الخامسة.

٢٠) سلسلة الأحاديث الصحيحة، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني الطبعة الثانية.